فلك النبوة المستمرة

(الفردوس)

(شجرة الحياة)

الانسان لا يريد الفرحة, بل الواقع أننا نسعى الى التعاسة. و لكن نقول و نفترض عادة باننا نسعى الى اللذة و السعادة, و نستغرب عندما نرى أكثر الناس لا تسعى الى تحسن أحوالها النفسية و المالية, بل نراهم يفعلون أمورا يظهر عليهم أنهم يتقصدون بها الشقاء, التدخين كمثال بسيط جدا. فلنفترض أن انسان أراد الفرحة حقا فماذا عليه أن يفهم و يفعل؟ هذا هو التساؤل الذي نرغب في محاولة وضع اجابة راسخة له.

في كل الأمور الافاقية (الطبيعية) و النفسية نرى أن لكل أثر سبب أو أسباب. فالجاذبية سبب للسقوط و الأكل سبب للشبع. و حتى في المشاعر دائما يكون لها أسباب, قد تكون أسباب شعورية أو لا شعورية و هو الغالب بل يكاد يكون الدائم. فاذا أردنا أن نكون في فرحة دائمة لا تنقطع قدر الامكان, اذ كل حي سيشقى لا محالة بسبب وقوع أمور يكرهها بارادته أو بدون ارادته كالمرض عامة و الموت و ما شابه, فنحن نريد الفرحة بأكبر قدر ممكن و بأسهل الطرق الممكنة (أي الغير مكلفة ماليا او من حيث الجهد), فاذن يجب أن نبحث عن سبب دائم ليقدح فينا نار الفرحة بحيث لا تنطفيء هذه النار أبدا. و بعد النظر في الأمر يظهر أن هذا السبب يجب أن لا يكون شيئا يحتوي على هذه الأمور الثلاثة: الناس و المال و الحواس.

فاذا كان سبب فرحتك الأصلي يعتمد على وجود انسان معين-او حيوان- فهذا الانسان قد يموت أو يمرض أو يسافر أو يغضب منك أو لا يرضى أن يفعل ما تريده أن يفعل أو غير ذلك من الموانع. و اذا كان يعتمد على المال فقد تخسر مالك أو يسرق منك أو تشقى لمجرد اهتمامك بحفظ أموالك و تتأكد من عدم تسلط الاحتيال عليك أو قد تشقى بسبب رؤية ورثتك يتمنون موتك و غير ذلك مما هو معروف للكل. و اذا كان يعتمد على الحواس فقد تمرض أو تنكسر رجلك أو تصاب عينك أو تمنع من ممارسة ما تحب ممارسته لسبب خارج عن ارادتك و امكانيتك و ما شابه ذلك من اصابات و موانع نعرفها كلنا و لعل أكثرنا مر بحادثة منعته من ممارسة ما يحب ممارسته باستعمال حواسه الجسمانية لفتره مؤقته او دائمه.. فاذن, علينا أن نجعل رغباتنا أو أسباب فرحتنا مثل الشجرة, لها أصل و فروع كثيرة, و السبب الأصلي يجب أن لا يكون ناس أو مال أو حواس, و بذلك نضمن وجود سبب للفرحة لا ينقطع منا أبدا, ثم نجعل رغباتنا الفرعية كما نشاء و نشتهي, و لن نخشى عندها أن لا يتوفر لنا شيء من رغباتنا الفرعية لأننا سنملك دائما أصل راسخ لا يزول أبدا.

و الآن, هل يوجد سبب للفرحة لا يحتاج ناس أو مال أو حواس؟ الجواب: يوجد سبب واحد لا غير, و على مر العصور استند العارفون عليه و هو: التأله. التأله هو التأمل الباطني, و فيه معنى الألوهية أي الوجود اللانهائي, الله الأول و الاخر و الظهر و الباطن. التأمل هو الكنز الوحيد الذي لا ينفد و حوله نسجت الأساطير و القصص التي تحكي عن كنوز و جواهر و أسرار و ممالك. التأمل الباطني, أو ذكر الله ان شئت, هو الملجأ الوحيد و الأعظم لكل الناس في كل زمان و مكان, و هو السلاح الأكبر في مواجهة مصاعب الحياة بشتى أنواعها. و كما أنه يستحيل أن يشبع جسم انسان بدون أن يأكل كذلك يستحيل أن يفرح قلب انسان (على الدوام) بدون أن يتأمل. و للتأمل لا تحتاج الى ناس و لا مال و لا حواس, فقط اجلس بسكون و اسبح في بحر وجودك اللانهائي. فاذا كانت الحياة السعيدة شجرة فأصلها و لا شك هو التأمل.

و لكن ما الذي يجعل التأمل سبب للفرحة أصلا؟ الجواب: لأن جوهر النفس الانسانية هو الكبرياء. الانسان يريد أن يكون كبيرا الى أبعد الحدود, هذا من حيث الجوهر, و التأمل يسمح للكبرياء النفسي أن يتنفس, لأنه يجعل النفس تتوسع الى ما لا نهاية. فمثلا ما الذي يجعل الأثرياء (نقديا) و الحكّام (بالمعنى السياسي) يشعرون بالكبر؟ هو لأن ارادتهم تتحكم في نفوس الأخرين و الاشياء, فكأن نفسه قد توسعت و خرجت من محدودية الجسم و حلت في اجسام أخرى و تحكمت بها. و هكذا كلما توسعت النفس أكثر كلما شعرت بتناغم أكبر مع جوهرها الذاتي, أي الكبرياء. ففي عالم التأمل لا يوجد حدود, لا حدود جسمانية و لا حدود عقلية. عالم مطلق, عظيم , الهي. اذا أردنا أن نلخص مئات الالاف من الكتب الروحانية و الدينية الحقيقية, و ملايين الكلمات بل مليارات الكلمات و الاشعار و المجادلات العرفانية, اذا أردنا أن نلخص كل هذا في كلمة واحدة فهي هذه: تأمل. و هل خرجت كل هذه الكتب الا من تأمل بعض الناس! و هل ستنفع كل هذه الكتب الا انسان متأمّل؟!

اضف الى ذلك أن عزتك النفسية لن تنذل أبدا لأحد اذا كان أصل حياتك هو التأله. فالناس عادة تذل أنفسها لأناس اخرين لأن أصل فرحتهم يعتمد على حضور هؤلاء الناس, أو يذل نفسه لبائع مخدرات لأنه لا يملك المال الكافي لشراء جرعة اليوم. فاذا لبست تاج التأمل لن تذل نفسك من أجل فرحة أبدا, بل تكون كريما اذا طلبت و كريما اذا أخذت و كريما اذا أعطيت. و هذه ليست مثاليات خرافية, كل من يعيش بهذه الطريقة سيرى بنفسه آثارها هذه و غيرها. تذوق لتدرك.

و يظهر لي أمر آخر بعد التأله المجرد ليكون سبب عظيم و بسيط للفرحة. و هو دراسة الكتب. و أهمها القرءان. فمن حسن حظنا نحن العرب أن القرءان نزل بالعربية. و هذا بالطبع ليس لان الله يحب جو الصحراء أو أشعار امروئ القيس الفاسق أو كرم حاتم الطائي المرائي, و بالتأكيد ليس لان الله يفضل اسلوب نسائنا في اختيار

ملابسهم أو اسلوب اجدادنا في كسب قوت يومهم بالغزو و النهب. انما منّ الله علينا لأن محمد عربي. و لو كان محمد عليه السلام فرنسي فلعل القرءان كان سينزل بالفرنسية. على أية حال, الحمد لله على نعمة القرءان.

دعني أضرب مثلا ليقرب لنا عظمة دراسة القرءان: اذا كتب عالم عشرين كتابا ووضع فيهم كل علمه و اراءه في مختلف نواحي الحياة, و فصله تفصيلا بحيث لا نحتاج الى الرجوع الى كتاب اخر لنفهم افكار هذا العالم. ثم أخذت أنت هذه الكتب العشرين و درستها كلها و لنفرض أنك فهمتها كلها. فما الذي حصل هنا ؟ نفسك تكون قد اقتربت أو اتحدت مع نفس هذا العالم, حتى انك اذا سئلت عن أي مسألة قد تستطيع أن تعرف ماذا سيجيب عنها هذا العالم لو كان حاضر بيننا. و بوجود هذه الكتب العشرين أنت لا تحتاج وجود العالم بجسمه حتى تفهم أفكاره. فكتبه هي مرآة نفسه. و نرى هذا بين الناس دائما, فيأتي أحد المفكرين و يترك جسمه الفكري أي كتبه ميراثا للناس, و عادة ما يتعلق به بعض التلاميذ الذين يخلصون لكتبه حتى ترى الواحد منهم و كأنه هو ذاك المفكر في أفكاره و أسلوبه و عمقه و أخلاقه و مشاعره احيانا . و هكذا كل عاقل يدرس كتاب فانه يقترب أكثر من نفسية الكاتب بقدر ازدياد استيعابه لهذا الكتاب و اتصاله به بمختلف ابعاده الوجودية كالعقل و الشعور و غير ذلك من ابعاد النفس الوجودية.

و تأويل هذا المثل هو أن الله أنزل لنا كتابه الذي هو روحه كما قال "و كذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا". و هذا هو التقرب من الله الحقيقي, هو بدراسة كتابه. فكأن المسافة بيننا و بين الله 6200 درجة أو يزيدون, و كلما فهمت اية ارتقيت درجة. و منزلتك في الجنة (معرفة الله) هي بقدر فهمك للقرءان كتاب الله و روحه و مرآته. و أعلى درجة هي أن يكون عقلك و عقل القرءان واحد. و هذه حالة طبيعية ناتجة عن طول الدراسة و التعمق الشديد, فهذه الحالة لا تكتسب بالتنطع و التمثيل و التصنع, بل هي حالة نفسية تلقائية بسبب طول المعاشرة و الصحبة و الخلّة, و كما قيل في الحكم: أخبرني من أصحابك أخبرك من أنت.

فالقرءان لم ينزل لكي نحفظه عن ظهر قلب كما يفعل بعض الناس, لا يوجد و لا ءاية واحدة تحث على حفظ القرءان على نمط "التكرار يحفّظ الحمار", و لا يوجد دليل عقلي واحد يؤيد هذا الأسلوب. و على فرض أن الحفظ الغيبي كان ضرورة في السابق لأن القرءان لم يكن مكتوبا, فان هذه الضرورة قد زالت منذ زمن طويل خاصة اليوم. فالقرءان محفوظ الظاهر و سليم و لن يستطيع أحد تغيير حرف واحد منه. فلماذا نضيع الوقت بالحفظ؟ الله رب القرءان يقول "كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا ءايته و ليتذكر اولوا الالباب". دراسة القرءان هي حفظ القرءان بحق.

يحكى أن شاب جاء الى عالم بالكتاب و قال له: يا سيد بارك لي لقد اتممت حفظ القرءان كله بالأمس. فقال له العالم الفاهم: مبروك لقد أصبح عندنا نسخة بشرية زائدة بجانب المليار نسخة المكتوبة حاليا, الحمد لله الذي حفظ لنا كتابه بذاكرتك! فالحق أنه يجب اقفال كل جمعيات "تحفيظ" القرءان ليوم واحد ثم اعادة فتحها من جديد. لماذا اقفالها ليوم واحد؟ حتى يتسنى للعمال أن يزيلوا اللائحة التي تقول "تحفيظ" و جعلها "تدارس", ثم من شاء أن يدرس و يتدارس مع الناس فأهلا به.

و كذلك القرءان لم ينزل لنغني به. من أراد أن يسمع الغناء و التلحين فليسمع لعمرو دياب و عبدالمجيد عبد الله. و من أراد علم روحاني من الدرجة الأولى فليأخذ كتاب الله. نعم بعد الدراسة العميقة فليغن من يشاء كما يشاء. و لكن ما نراه الان في المساجد و المجالس هو اضاعة للوقت و تحويل كنوز الله الى مجالس طرب, و الحق أن مجالس الطرب مسلية أكثر في كثير من الاحيان! عندما تنحرف الوسيلة تنحرف الغاية معها. القرءان وسيلة الى رقي النفس و العقل, و طريق ذلك هو بالدراسة العميقة و الدراسه الجدلية النقدية, فاذا تحول معلمي القرءان الى ملقنين و مغنين فلا عجب أن الناس هجرت القرءان.

و كذلك لم ينزل القرءان ليكون محتكرا لفئة دون فئة أو طبقة دون طبقة. لكل دارس حظه من القرءان. كمثل حظ الوعاء من الماء. فالوعاء الكبير سيحوي ماء أكثر من الوعاء الصغير. و كذلك بحسب سعة اطلاعك على اراء الناس و اجتهاداتهم, كل الناس من كل أهل الأرض, و بحسب عمق تفكيرك و طول تحليلك و قوة مجادلتك, بحسب هذه و هذه سيكون حظك من علم الله المكنون في الكتاب العظيم. ففكرة "اجعل بينك و بين الله شيخ" هي فكرة تدل على أن هذا الرجل لا يعرف الله أصلا, و كأنهم لم يقرأوا "اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا" . الذي يجعل بينه و بين الله شيخ سيجد بينه و بين الشيخ جهنم. أنت ولدت فردا و ستبعث فردا, فكن ملك نفسك و كف عن التصرف كالأطفال الذين يعتمدون على الأباء ليحمونهم و على الامهات ليرضعونهم. الفرق بين تطور البذرة الى شجرة مثمرة و بين تطور الطفل الى رجل هو أن البذرة تتطور بدون ارادتها (في الظاهر)و أما الانسان سيبقى طفلا حتى يقرر أن يتخلى عن أبيه و أمه في سبيل استقلاله.

ما الذي يجعل أكثر الناس تنفر من القرءاة و التفكير و المجادلة؟ لانهم يخشون أن ينكشف ما في اللاشعور لهم. فالقلب مثل الصندوق الذي يحوي الحجر في قاعه و التراب يغطي هذا الحجر الى قمته. و بطول التفكير و مراجعة الافكار التي يعتقدها الانسان و ووضعها تحت المجهر للنقد فانه يكون كمن يزيل التراب شيئا فشيئا, و بعد فترة

سيرى الحجر. و للأسف فان الانسان, كل انسان, يحوي حجرا "خبيثا" في قاع لاشعوره, رغبات محرمة و أفكار سيئة, بحسب المعيار الاجتماعي للتحريم و التحقير بالطبع فما هو محرم هنا مقدس هناك و العكس, و منذ الطفولة و نحن نكبت هذه الرغبات و الافكار حتى نؤمّن أنفسنا من العقوبات. فنكبر و نحن نشعر بأننا اثمون, فنعمل على تغطية هذا الجزء من نفوسنا, بل و نعلن الحرب عليه. و من أقوى أسلحتنا في هذه الحرب هو سلاح اسمه "االكبت" . هو عدم الاعتراف بهذا الجزء من انفسنا. و للأسف فان كبت الرغبة و الفكرة لا يقتلها و لكن يجعلها تنخر في النفس من الباطن من حيث لا تشعر. كمثل الحشرات في المنزل, اذا لم تعترف بوجودها و تفهمها فانك لن تسعى لابادتها, و النتيجة هي أن تستيقظ في يوم من الايام و اذا بمنزلك و كانه حديقة حشرات فيها من كل زوجين اثنين و فيها ما تشتيه الأنفس و تلذ الأعين من القرف. حشرات حتى داروين لم يراها في حياته. ثم تشمئز من بيتك و قد تتركه و تهرب منه لأنه وصل الى حالة لا يمكن اصلاحها, أي بسهولة, فتحيا مشردا في الشوارع. و المشكلة أن النفس المكبوتة المريضة لا يمكن لك أن تتركها و تسكن في نفس أخرى, فتبدأ تمقت نفسك و تشعر بالكابة و الوحدة السيئة و تبدأ حياة "جميلة" لا تحسد عليها.

فاذن الطريق الى أقصا درجة ممكنة من الفرحة هو بأمرين: التأله و الدراسة. التأمل يجعل أنهار العشق الالهي تفيض عليك, و دراسة القرءان تجعل روح الله تنفخ فيك. بذكر الله تتوسع نفسك في الوجود اللانهائي, و بدراسة كتاب الله تتوسع نفسك في عوالم الخلق الأربعة و تفهمها و تفهم العلاقات و السنن التي تسير عليها: عالم الافاق و النفس و الملكوت و الأسماء الحسنى, المجموعة في أعظم كنز في كل العوالم و هو "بسم الله الرحمن الرحيم" . فكما ترى فان أول أية في الكتاب هي أعلى درجة يمكن لكائن أن يصل اليها.

التأمل و الدراسة هما مصراعي باب الفردوس, "ادخلوها بسلم ءامنين".

(الرضا و التوسع اللانهائي)

يوجد نوعين من الرضا: رضا العاجز و رضا الشبعان.

أما رضا العاجز فهو مثل القزم الجوعان الذي مد يده الى شجرة ليقطف منها تفاحة فلما لم يطلها جلس و قال "الصيام عبادة عظيمة, اللهم اني صائم".

و أما رضا الشبعان المقتنع فعلا فهو مثل من يأكل سفرة كاملة من الطعام الشهي الرفيع ثم يأتي اليه من يقدم له طعاما جديدا فيرفضه و يقول له "شكرا, و لكني شبعت و لا أريد شيئا اخر".

كما قلنا و نعيد: قلب الانسان لانهائي في قدرته على الاستيعاب. دائما يريد المزيد. يربد الجديد. يريد ان يتوسع و يمتلك اللانهائية و يحتوي عليها. يريد الاشباع التام لقلبه, و قلبه غير متناهي, و لذلك لا يمكن ان يرضا بالمحدود. و الناس لذلك ينقسمون الى فرق: ففرقة تتعذب و تندب حظها يوميا بسبب عدم الاشباع النفسي. و فرقة تتعذب ايضا بسبب النقص و المحدودية و لكنها تسلي نفسها بالادعاء بالقناعة و الزهد و البساطة في الحياة و ما اشبه و لكنهم في الحقيقة يتعذبون و غير راضين في باطن قلوبهم, فهم مثل صاحبنا العاجز. و فرقة عرفت وسيلة للاتصال باللامحدود, فقلوبها متشبعة و فرحة, و لذلك تراهم قانعين فعلا في الامور الظاهرية الجسمانية المعيشية, لانهم شبعوا فعلا في القلب بالتوسع اللامحدود و السعي في هذا التوسع اذ قد عرفوا لهم طريقة لهذا التوسع (و هنا يختلف الناس في هذه الطرق و سنذكر طرفا منها) و هذه الفرقة الثالثة هم وحدهم الراضين فعلا فعلا فعلا. و لا يمكن لغيرهم ان يكون راضي ابدا ابدا ابدا.

القراءة و الدراسة هما شرب و اكل القلب. وواضح ان هذين العملين مرتبطين بالكتب. و من الناس من يكتفي بالتامل المجرد المحض او التأله, و هؤلاء ايضا سيكونوا يتعذبون الى حد ما لان التأله اصلا قائم على معرفة بدرجة من الدرجات. فالتأله أو التأمل المباشر في الافاق و الانفس هو قراءة و دراسة الكتب التكوينية , و هذه العوالم هي ايضا كتب الله, اذ المخلوقات هي كلمات الله التي لا يمكن ان يحرفها بشر, و هي مرجع هذا القرءان العربي و مرجع كل كتاب خرج من بشر. معلوم ان للكتب مراجع, كالتي تراها في الصفحة الاخيرة غالبا, و يذكر الكاتب فيها المصادر التي استقى منها افكاره و اطروحاته. هذا القرءان العربي ما هو مرجعه؟ يقول "سنريهم ءايتنا في الافاق و في انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق" و الواقع ان كل الكتب ايا كان مصدرها او واسطة نقلها هي كتب تشير الى وقائع في العوالم النفسية و الافاقية و الملكوتية و الاسمائية. فالكتاب مرآة لواقع. كل كتاب مرآة لواقع. أيا كان الكتاب. و أقل ما يقال هو أن الكتاب مرآة لواقع نفسية الكاتب نفسه. فهو يشير الى هذا العالم النفسي بالدرجة الأولى. و على ذلك فكل الكتب حق بدرجة او بأخرى. و تركيزنا هنا هو على هذا القرءان العربي. و أحسب ان الفكرة اصبحت واضحة.

فنحن اذن امام ثلاثة انواع من الكتب (بحسب الاعتبار العقلي التفصيلي): كتب الوجود, و القرءان العربي, و باقي كتب الناس. كتب الوجود هي العوالم الموضوعية مثل عالم الافاق (ما يسمى بعالم الطبيعة, و الادق هو عالم

الافاق, لان كل شئ هو من "عالم الطبيعة") و عالم الانفس. و القرءان العربي مفهوم. و باقي كتب الناس هي كل كتاب او كلمة تصدر من بشر على وجه الارض في كل زمان و مكان.

و التعامل مع الكتب له درجات او فروع: يوجد التلاوة, و التفسير, و التدبر, و الدراسة , و النقد, و مشاهدة المصاديق, و الكتابة و ما أشبه. و تحليل هذه الاعمال العقلية و الروحية يحتاج الى كتاب خاص, فهنا سأقتصر على كلمة "دراسة" اذ لعلها هي الاشمل و هي العملية المحورية التي تشير الى فهم المضمون و تحليله و التفاعل معه بالقبول او النقد.

و بناء على ما فات, فاننا ان اردنا ان نلخص الفردوس في كلمة واحدة يمكن ان نكتب: دراسة الكتب.

كل الكتب هي كتب الله, و لكن تختلف درجة تجلي الله بحسب الكتاب نفسه و بحسب الدارس. و على ذلك فان تفريقنا احيانا بين القرءان العربي و غيره من الكتب هو ليس تفريق بحسب الجوهر, اي انه هو كتاب الله و غيره ليس كتاب الله, لا, اذ كل الكتب تدل على الحقيقة كما عرفنا "و لله المشرق و المغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله وسع عليم". و لكن الاختلاف هو بحسب الدرجة, اي ان القرءان العربي (بحسب نظرنا و تجربتنا) يدل على الحقائق اسرع و اوضح و اقوى و اعمق و اشمل و اسهل مما تدل عليه الكتب الاخرى. فهذا القرءان "يهدي للتي هي أقوم" و تأمل صيغة "أقوم" فهذا يعني ان غيره يمكن ان يكون "قيّم" و لكنه هو "أقوم". فنحن لا نلغي اجتهاد الناس و كتاباتهم- حاشا لله- و لكن فقط من اجل اختصار الكلام و تركيزه نركز حديثنا عن هذا القرءان العربي. و الا فالمسألة اصبحت واضحة للمتأمل.

و لاحظ ان دارس كتاب الافاق كالفيزيائي و الكيميائي او دارس كتاب الانفس كالطبيب و المفكر الاجتماعي, هم من اهل الله ايضا, مثلهم مثل من يدرس هذا القرءان العربي. الكل يدرس كتب الله. و يحكم النتائج و الثمار "هاتوا برهانكم" و "و اما ما ينفع الناس فيمكث في الارض". فالبرهان يدل على واقعية النتيجة, و المنفعة تدل على اي النتائج احسن للقبول بها و السلوك بحسبها. و هذه هي سنة الله في اهل المعرفة و اسلوبهم في التعامل مع الكتب كلها.

القرءان كلمة تدل على كل كتب الله. و لذلك يقول "ان قومي اتخذوا هذا القرءان" او "ان هذا القرءان" كلمة القرءان مجردة عن ضمير الاشارة "هذا" تدل على كل الكتب على الاطلاق, باقسامها العقلية الثلاثة التي ذكرناها اعلاه. و في الواقع هم ليسوا ثلاثة كتب الا من باب التقسيم العقلي و العقائدي, و لكنهم كتاب واحد من حيث انهم كلهم يدلون على حقيقة واحدة. "حتى يتبين لهم انه الحق". و في نهاية المطاف, الكل يتكلم عن الواقع او ما سيقع بيقين (عنده على الاقل). فعندما نتحدث عن كتاب الله فنحن نتحدث عن الوجود ككل. و لكن يغلب علينا استعمال هذه الكلمة كاشارة الى كتاب الله "هذا" اي العربي الذي نزل على محمد النبي الامي عليه السلام. و من الان فصاعدا سنستعمل هذه الكلمة بهذا المعنى, مع استحضار باقي المعاني في الذهن للتذكر و التوحيد.

فاذن الحياة هي دراسة القرءان.

الحياة هي التواصل مع القرءان.

الحياة هي ان تصبح انت قرءان.

و هنا نرجع الى مسألة الأكل و الشرب في القلب. فالكلمات هي التي نأكلها و نشربها. فكمثال: انت عندما تأكل و تشرب الطعام الجسماني, هذا الطعام يصبح فيك و يتحلل فيك و يعطيك ذاته و يجعلك "تتوسع". فلا يكفي ان تنظر الى الطعام حتى تشبع و تتوسع, و لا يكفي ان تشمه او تسمع عنه, او ان تلمسه بيدك, و لا شئ من امثال هذه الاعمال. لا يغنيك الا ان تحتوي على الطعام, ان تجعله جزء من ذاتك, ان تأكله و تشربه و تشمه. باختصار ان تتذوقه و تحيط به.

القلب الذي يريد التوسع كذلك لا يغنيه الا ان يتذوق كلمات القرءان, و ان يحيط بها. و هذا هو معنى دراسته و قراءته و تحليله و فهمه. دراسة القرءان هي ان تأكله و تشربه و تحيط به و تجعله جزء من ذاتك. و المأكول المشروب هو كلمات القرءان.

و الان, في ضوء هذا الكشف, تأمل في هذه الاية "و لو ان ما في الارض من شجرة اقلام, و البحر يمده من بعده سبعة أبحر, ما نفدت كلمت الله". من اجل كتابة ظاهر القرءان, اي هذه الحروف, فاننا لا نحتاج الا الى كمية بسيطة من الاقلام و المداد (الحبر مثلا). و ظاهر هذا القرءان محدود, هو عدد كلمات معينة فقط لا غير و هي هذه الموجودة في الصحف عندك. فاذن ما هو المقصود بقوله "ما نفدت كلمت الله" ؟ المقصود هو : معاني و اسرار هذه الكلمة. ظاهر القرءان محدود, باطنه غير محدود. و هذا هو سر عظمته اللامتناهية. و هذا سر اشباعه العظيم للقلوب العارفة الدارسة.

فمثلا: الكتب التي يكتبها الناس باجتهادهم الشخصي, هي محدودة في ظاهر كلماتها و محدودة في باطن معانيها. اذ لا يستطيع الانسان ان يكتب كلمة الا بعد ان يستحضر معنى معين يقصده ثم يصوغ هذا المعنى في قالب الكلمات التي يكتبها. هو يستحضر هذا المعنى المعين شعوريا او لا شعوريا. و في اقصا الاحوال يكون يقصد ثلاث معاني من الجملة, نعم لعل هذا هو الاقصا. بالرغم من ان الغالب هو ان يقصد الانسان معنى واحد او اثنان. و لذلك عندما ندرس كتاب صدر باجتهاد انساني فقط فاننا بعد قراءته و تحليله و الوصول الى هذين المعنين او الثلاثة الذين قصدهم فاننا نشعر ان الكتاب اصبح مستهلكا و نشبع منه, ثم نسعى الى الحصول على كتاب اخر للتوسع المعرفي, أي للأكل و الشرب مرة اخرى. و هذا هو الفرق الأكبر بين كتاب الله العربي و باقي كتب الناس, الجملة في كتاب الله ليس لها معنى واحد تقصده, و لا اثنان, و لا ثلاثة, بل عدد لا محدود من المعاني. بل ان الحرف له الكثير من المعاني, بل ان الحرف الذي لم يكتب يمكن ان نستنبط منه الكثير من المعاني فقط لانه لم يكتب. و هذا هو سر كون القرءان "لا يخلق على كثرة الرد" و "لا تنقضي عجائبه" و "لا يشبع منه العلماء" و بقية اشباه هذه الافكار المتداولة في الميراث الاسلامي في وصف القرءان العظيم.

و لهذا القرءان العظيم هو المثل الأعلى لكل الكتب. هو القمة التي لا يعلى عليها. لان صفاته لا يعلى عليها. فهو المائدة الدائمة العامرة التي احاطت بكل شئ. و من هنا نعرف ان الرضا التام لا يكون الا بهذا القرءان العظيم. و هذا لا يعني انه لا يوجد رضا تام عند غير اهل هذا القرءان, المقصود ان المواصفات التي ذكرناها و غيرها مما ذكرناه في مواضع اخرى هي المواصفات التي تؤدي الى الرضا التام الحقيقي. و قد يوجد عند غير اهل هذا القرءان من يملكون كتبا لها نفس هذه المواصفات بالنسبة لهم, كما العبرانيين "اليهود" و توراتهم, فهم يرون فيها العظمة اللامتناهية ايضا. و أيضا كل من يقرأ كثيرا و عنده كتب كثيرة و يتابع الجديد من الاصدارات فهو من المتعرضين للرضا التام, و لكن الفرق انه في حالة القرءان اللانهاية مجموعة في كتاب واحد, و اما في حالة امثال هؤلاء تكون اللانهاية مشتتة في كتب مختلفة متنوعة. و هذا ليس امر سئ, نحن لا نتحدث عن سئ و حسن, او حق و باطل, نحن نتحدث عن حسن و أحسن, قيّم و أقوم, جميل و اجمل. و قد يوجد من يرى المتعة و الاشباع في تجميع الانوار

المتفرقة في الكتب المختلفة, و و قد يوجد من يحب ان يرى النور كله مجتمعا في كتاب واحد, فالمسألة ذوقية في أساسها. فالوصف الذي ذكرته انما هو تجربتي في هذه الامور ليس أكثر. و اني شخصيا احب هذا القرءان و في نفس الوقت لا أزهد في الكتب الاخرى التي تخرج من ثمار الاشجار التي يزرعها الزارعون, بل هذا الهدي هو هدي قراني محض. فانا احب المعرفة كلها, و أحب الكتب كلها, و لكن مقياس القبول و النخل (اي غربلة الكلمات و الافكار) هو الذي يمكن ان نختلف فيه مع اخواننا من اهل المعرفة في كل مكان و زمان. و هو اختلاف تلوين في الغالب و ليس اختلاف جذري الا في بعض الحالات و الاعتبارات.

اني لم أجد يوما انسان ليس له قرءان يدرسه الا ووجدته من اهل العذاب. الانسان يريد اللانهاية, و بدون ذلك هو في عذاب حتما, يخف و يشتد باختلاف الظروف و الانفس. و لكن في نهاية التحليل, الانسان يريد الزيادة و المزيد, و سيطلب ذلك سواء على المستوى الجسماني او المعرفي. العالم الجسماني و الاجتماعي محدودان دوما. اما عالم الاجسام فظاهر انه محدود, انت محدود في قدرتك الجسمانية و في مساحتك و في هيئتك و لا تملك التغيير و التوسع فيه الا قليلا. و في العالم الاجتماعي أنت أيضا محدود بالقوانين و الاعراف و الحياء و في حرية الاخرين و في طغيان الاخرين و في رغبات الاخرين و غير ذلك. فالمحدودية تحيط بك من الناحية الجسمانية و الاجتماعية, و هذا هو اكبر اسباب العذاب الذي يملأ الدنيا. و هو عذاب طبيعي جدا و متوقع, و النزاع الفردي في نفسه او في اسرته او نزاع البلدان مع بعضها و كل نزاع انما هو محاولة لانتزاع مساحة جديدة للتوسع. النزاع بمختلف صوره انما هو سعي لانتزاع شئ من اجل اللامحدودية التي هي جوهر القلب الانسان. و لكن حتى لو افترضنا جدلا انك ستنتصر في كل نزاعاتك الجسمانية والاجتماعية فانك مع ذلك ستظل في العذاب, لانك محدود بحدود لا يمكن الانفكاك منها بحال من الاحوال, فالمسألة ليست انتصار او خسارة في هذا النزاع او ذاك, هذا لن يفرق كثيرا, هذا يوهمك انك توسعت, و لعلك توسعت و لكن توسع بسيط جدا يشبه شرب العطشان لقطرة من ماء البحر. و سيعود شعورك بالعذاب بعد انتصاراتك الوهمية و لو بعد حين.و هذا هو سر العذاب الدائم الذي يحيط بأكثر الناس لانهم يظنون ان رغبتهم القلبية انما هي في الفوز في هذا النزاع الجسماني او ذاك الاجتماعي. أيها العزيز, المسألة أعمق من ذلك, و أبسط من ذلك. ان تحسب ان قلبك سيرضا اذا فزت بهذا المبلغ من المال او بتلك الزوجة او المنصب يساوي في سخافته ان تحسب ان جسمك سيشبع اذا نظرت الى مزبلة فيها طعام او اذا القيت على جسمك من الخارج الف كيلو من الفول.

لماذا تظن ان الانسان هو خليفة الله في الارض؟

هل لان اخلاقنا نحن الناس عالية جدا ؟ بالطبع لا, ان الغالب الاعم اننا انانيين لا نبالي لو يحترق العالم كله اذا سلمنا. و هذا طبيعي و متوقع, و هو ليس من باب جلد الذات الذي يقوم به من لا يدرك ابعاد الحياة جيدا. و البشر-في المتوسط- قد اقاموا حربا في كل سنه في الخمسه الاف سنه السابقه. هذا غير الجرائم في حدود المدن و القرى و المنازل، و غير سوء الخلق عموما.

هل لان اجسامنا قوية جدا ؟ بالطبع لا, فبعوضة واحدة تلدغك في لحظة يمكن ان تقتلك في ظرف دقائق.

هل لان نفوسنا و عزائمنا شديدة جدا ؟ بالطبع لا, فان كان ادم نفسه "لم نجد له عزما" و هو الخليفة الاول.

الانسان خليفة الله لان قلب الانسان غير محدود. و هذه هي خاصية الله تعالى نفسه, لان الله غير محدود, مطلق, عظيم. قلب الانسان ايضا غير محدود, مطلق , عظيم. هذا هو جوهر الاستخلاف. فما يسمى "الطمع" او "الانانية و حب التملك" هم اساس استخلافنا و عظمة مقامنا في العوالم. فهذه ليست صفات سيئة يجب التخلص منها- حاشا لله. انما هي مثل كل شئ اخر في هذه العوالم, يمكن ان تستعمله في موضع فيكون قبيح, و يمكن ان تستعمله في موضع اخر فيكون جميل. و الذي حصل ان اكثر الناس تستعمل هذه القوة العظيمة في القلب في امور جسمانية و اجتماعية, بدل ان تكون في امور معرفية و روحانية. و هذا الانقلاب في الموازين جعل عالي الامور سافلها, و اختل كل شئ, و ظهر الفساد في البر و البحر بما كسبت ايدي الناس. و بذلك لم نكسب لا الراحة الجسمانية و الاجتماعية, لان تدافع الناس و تنازعهم الدائم على كل المستويات جعل الحياة أشبه بساحة حرب بين ملوك كل واحد منهم يريد الارض, و حيث انه لن يكون في الغالب الا ملك واحد في كل ارض, فالنتيجة هي التطاحن المستمر, و الاقتتال المستمر. و ايضا لم نكسب الكبرياء المعرفي و الروحاني لأن معظم طاقتنا و همومنا تحولت الى الحرب الضروس التي تواجهنا كل يوم. و هذا الذي يمر فيه من يحيا بهذه الموازين المنكوسة على رأسها هو خير مصداق على قوله تعالى "خسر الدنيا و الاخرة الا ذلك هو الخسران المبين".

على المستوى الفردي و الاسري يوجد بعض الناس ممن يحيون بالقيمة السليمة القائمة على قدميها: فهؤلاء يوجهون رغبتهم في اللانهاية الى المعرفة و الروحانية, و يكتفون بالقدر الصحي الكريم في الحياة الجسمانية و الاجتماعية. و هؤلاء يشبهون اهل الكهف. و نحن لا نريد كهوفا, نريد الخروج من الكهف, نريد ثورة جماعية كبرى و انقلاب معنوي كبير يجعل الغالبية العظمى من الناس تحيا بالقيمة السليمة القائمة على قدميها, و هو ما يريدونه فعلا -و لو في اعماقهم- و لكنهم لا يهتدون الى سبيل الفوز به. و القرءان هو اعظم وسيلة الى ذلك في عالمنا العربي خصوصا.

الايمان هو المعرفة التي تعمل بها. اذا تشبعت من العلم بفكرة معينة الى درجة انك اصبحت تعمل بمقتضاها تلقائيا و براحة و بدون تكلف فان هذا يسمى في القرءان "ايمان". فقد يكون عندك العلم بشئ, و لكن ليس عندك ايمان به. مثال بسيط: الطبيب الذي يدخن. هذا الطبيب يمكن ان يلقي محاضرات في اضرار التدخين و يحلل لك كل ما له علاقة بالتدخين, و ينتهي الى نتيجة انه يجب ان يتخلى الانسان عن التدخين ليعيش الحياة الاسلم. و لكن يمكن بعد المحاضرة ان يجلس مع اصحابه من الاطباء و يشعل سيجارة و يسألهم "ها, ما رأيكم في المحاضرة؟". الايمان هو العلم العميق الجذري, و فهم الاسباب اللاشعورية في رفض العمل بعلم ما, و تحليل هذه الجذور, و التخلص منها, و بالتالي يجد العلم مكانا ءامنا ليسكن فيه و يثمر ثماره في حياة الفرد. ففي حالة صاحبنا الطبيب المدخن هذا فانه يملك "علم بأضرار الدخان". و لكن اذا اخضع نفسه للتحليل العميق, و رغب فعلا في التخلص من الدخان, و تعمق في الاسباب النفسية التي جعلته يملك الاستعداد لقبول الدخان في حياته, ثم بعد ان يشاهد هذه الاسباب, و يتحرر منها, و يترك التدخين, فعندها نقول ان هذا الطبيب "مؤمن بأضرار الدخان".

فالكلمة الاشمل و الاعظم لوصف تواصل الانسان المتكامل مع القرءان هي ان نقول: هو المؤمن بالقرءان. المؤمن بالمعنى الذي شرحناه قبل قليل, و ليس مؤمن بالمعنى الميت الذي اصبح كل من هب و دب يدعي انه داخل تحت قوله "قد افلح المؤمنون" و انه من الذين "يؤمنون" بالقرءان. يقال انه يوجد مليار و نصف انسان مؤمن بالقرءان, أقول: والحق لو وجد مليون فقط مؤمنين بالقرءان لقامت القيامة و لرأى الناس الله و الملائكة في وضح النهار! أي مليار ونصف سامحكم الله. لو وجد مليار و نصف مؤمن بالقرءان لانفجرت الارض من كمية النور المتنزل فيها. ان سوء التسمية هو من اساب سوء الحالة. يعتقد هؤلاء انهم مؤمنين بالقرءان, و لذلك اصبحوا لا يبالون بالقرءان الحقيقي في الاغلب. كالمريض الذي يسميه الناس "سليم و صحيح" فانه لن يطلب علاجا و لن يمارس حمية او رياضة. لماذا يمارس؟ اليس هو "سليم"! ان العلاج هو للمرضى فقط, و هو يعتقد نفسه صحيح و سليم و لله الحمد. و هنا مكمن المرض الحقيقي. يجب ان يعرف الناس انهم ليسوا مؤمنين بهذا القرءان, يجب ان يعرفوا انهم على الاغلب كفار (بالمعنى المعرفي), و من هنا لينطلقوا في رحلتهم الى الله. و هذا هو الاحسن و الاسلم في وضعنا الحالي. و اني لاعتبر نفسي كافرا كل يوم، و ابدا يومي على اساس اني كافر، فاسعى من جديد و بنيه جديده كل يوم. من لا يرتاح الى ان يعتبر نفسه كافرا، فالاغلب انه فعلا كافر.

يصف الله الفردوس فيقول "لا يبغون عنها حولا" اي لا يريد ان يتحولوا عنها و يتركوها الى شئ اخر احسن منها مهما طالت مدة سكنهم فيها. و كنت اقرا قول الله عن الملائكة "يسبحون له بالليل و النهار و هم لا يسئمون" و

تسائلت: لماذا لا تسأم الملائكة و يسأم الناس من دراسة كتب الله؟ و هذه الاية في سورة فصّلت. و بعد قليل جاءت اية "لا يسأم الانسان من دعاء الخير". ان سر السأم من دراسة الكتاب العزيز هي اعتقادنا- الخفي اللاشعوري غالبا- بان الكتاب سيسبب لنا شئ من الشر. انا اعرف ان هذا قد يفاجئ البعض, لانه فاجأني. و لكن لعل هذا الاعتقاد كامن في مكان ما في النفس و نحن لا نشعر به مباشرة. لو كان اعتقادنا ان القرءان خير محض, فان النتيجة بمقتضى هذه الاية "لا يسأم الانسان من دعاء الخير" هي ان الانسان لن يسأم من القرءان. و لكن حيث ان السأم موجود بدرجة او باخرى فان هذا يعني اننا نعتقد ان القرءان يمكن ان يسبب لنا شر. نعم قد يكون الشر هو انه يصرفنا و يشغلنا عن الاهتمام بامور أخرى , و ان هذه الامور الاخرى اذا لم نراعيها فان شر ما سيصيبنا, و بالتالي يكون الانشغال بالقرءان سبب غير مباشر للشر. و قد يكون اننا نخاف ان نكتشف شئ من القرءان يجرح ما نعتقده او يلقي على كواهلنا تكليفا شاقا او يأخذ منا حقا نريده لانفسنا. و قد يكون لان القرءان لا ينكشف لنا احيانا فنشعر بالضعف و العجز بسبب ذلك و هذه الامور تجرح كبرياؤنا و بالتالي نبتعد عن سببها- الذي هو القرءان. و هي الحجب التي جمعها الله عندما كتب "أفي قلوبهم مرض, ام ارتابوا, ام يخافون ان يحيف الله عليهم و رسوله". لا بأس بوجود هذا الخوف و المرض و الريبة, فان هذه المشاعر و الدوافع تتكون تلقائيا بدون ارادة واعية منا, اذ هي تأخذ في الغالب من محصلة ما نعرفه عن القرءان و رؤيتنا له. و الواقع ان القرءان بذاته لا يمكن ان يسبب اي شئ من هذا.

أما الانشغال بالقرءان عن الامور المعيشية المهمة و الاجتماعية فان الله يقول "فاذا فرغت فانصب" فافرغ من اعمالك كلها و ادخل الى القرءان بقلب صافي و همّة مستيقظة.

و أما ان نخاف من اكتشاف ما يجرح ما نعتقده سابقا, فان من اوائل أصول الدخول الى جنة الله هي الرغبة في التعلم الخالص من الله, فلا يوجد اعتقاد سابق لا يمكن ليس فقط جرحه, بل قتله أيضا, و ما المانع في ذلك. و هذا أمر يجب ان يتعامل معه كل فرد مع نفسه. و هو من أهم قواعد حياة المعرفة المستنيرة, حتى قبل هذا القرءان.

و أما عن الخوف من التكليف بالشاق, فانه لا حرج و لا مشقة في القرءان "ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى" و "ما جعل عليكم في الدين من حرج" و "لا يكلف الله نفسا الا وسعها" و "اتقوا الله ما استطعتم".

و أما عن ان يأخذ منا حقا نريده لانفسنا, ان الله لا يأخذ من أحد شيئا, و لا يظلم أحد شيئا, و لن يرشدك الا الى ما يزيدك خيرا و حقا, و ان وجدت غير هذا الذي ذكرته فلا تفعله ان شئت, اذ الله يقول "فافعلوا ما شئتم" و ستعرف عاجلا ام اجلا ان ما ارشد الله اليه هو الاحسن, قد تضطر الى الدخول في تجربة مؤلمة احيانا لتعرف, و لكن في نهاية المطاف ستعرف. " و لكل نبأ مستقر و سوف تعلمون".

و أما عن عدم الرغبة في الشعور بالضعف و العجز بسبب عدم الكشف, ففضلا عن ان الله يؤيد الدارس بملائكته و روحه, و فضلا عن ان تدبير شؤون المؤمن الدنيوية و الاخروية يشرف عليه الله و ملائكته ليضمن له السير الاسلم و الاحسن "قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا", ففضلا عن كل هذا فانه لن يفتح احد القرءان و يغلقه الا و يكون قد اكتسب شيئا من الخير و الحكمة في هذه الفتحة. و اما عن مقدار الحكمة التي تنكشف لك في كل مرة, فهذا يرجع الى اجتهادك و استعدادك و حسن تدبير الرحمن لك, و هل الدخول في الجنة بدون مجاهدة "أم حسبتم ان تدخلوا الجنة و لما يعلم الله الذين جهدوا منكم و يعلم الصابرين" فالجهاد الفكري و الصبر على نضج ثمرة الدراسة و خروجها هما من اهم اخلاق اهل المعرفة عموما, و اهل هذا القرءان خصوصا. أحيانا سترى ان المعاني تفيض عليك كالشلال المنهمر, و احيانا اخف من ذلك, و احيانا لحكمة ما يغلق الله عليك القرءان, فعليك انت ان لا ترسم نتيجة تجربتك اليومية مع القرءان مسبقا, بل ادخل في كل تجربة بروح جديدة و بدون فروض مسبقة عن الثمار و النتائج. و في كل مرة ستجد امور جديدة تنفعك و ترفعك حتما اذا تأملت بهدوء في كل ما يجري عليك. "فاذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم ان علينا بيانه" تأمل ان الله و ملائكته هم الذي يقرأون, و هم الذين يبينون, ففي هذا المقام العرفاني يكون القلب في مقام "و انك لتلّقى القرءان من لدن حكيم عليم" فكما ان للقمر منازل يمر بها كل شهر, كذلك للدارس لكتب الله مقامات و منازل متعددة يمر بها. الحياة المستنيرة ليست صخرة متحجرة, و لكنها فيض من الماء و اشراقات متعددة. فادخل في كل هذا بقلب منشرح, و عقل منفتح, و استمتع بنعم الله.

اكتب تجاربك المستمرة مع كتاب الله, و انشرها, فمن مجموع هذه التجارب و الدراسات يمكن ان ياتي لاحقا من يقارن بينها و يستنبط منها امور نحن لا نستطيع تصورها الان. اذ الواقع تجلي شديد لا نستطيع ان نشعر به و نميزه عن غيره الا بالافتراق عنه و ملاحظته من بعيد. فمثلا: قد تسافر الى دولة اخرى, و تشاهدها و تمر بتجارب كثيرة في سفرتك هذه, و تصوّر ذلك كله بالكاميرا ثم ترجع الى بلدك. فااذا شاهدت هذه الصور و انت في بيتك ففي كثير من الاحيان تشعر بالفرحة من السفرة و قيمتها الحقيقية اكثر مما كنت تشعر به حين كنت منغمسا و مستهلكا في واقع السفره نفسها. تذكر و تخيل ما وقع يعطينا نظرة من زاوية جديدة لم نكن ندركها عندما كان ما وقع هو الواقع. و لذلك نحن الان نعيش في التجربة القرءانية, فهي واقع بالنسبة لنا (و الحمد لله) و مهما كان شعورنا الحالي فاننا لن نرى ما يراه غيرنا, فنظرنا محدود بزاوية معينة فقط, و لذلك اذا كتبنا تجاربنا و دراساتنا,

فان هذا يسمح للاخرين بأن يحللوا ما نكتبه و يستنبطوا منه ما يستنبطون. و هذا بالطبع سيكون لخير الناس عامة و لأهل القرءان خاصة, و هو أيضا يلقي ضوءا على القرءان نفسه, اذ التأمل في حال من يمر في التجربة يكشف شيئا عن حقيقة الشئ الذي تتم فيه التجربة.

فخلاصة هذه التأملات هي: خذ الكتب و غص فيها فهذه هي الجنة الوحيدة في هذه الحياة. و هنا ستجد الوهيتك المستترة, و ربانيتك المبطنة, و عبوديتك الراقية. و الحمد لله على انه كتب هذه العوالم, و كتب هذا القرءان, و كتب في قلوب الناس العلم, الحمد لله على يده المباركة, و على قلمه المبارك, و على صحفه المطهرة المباركة. و سلام على الدارسين, و سلام على العارفين, و سلام على المرسلين, و الحمد لله رب العالمين المسالمين.

(رفض السنة: عن زندقة ام عن معرفة؟)

(المقدمة)

"يصاحبي السجن: أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها انتم و ءاباءكم, ما أنزل الله بها من سلطان, ان الحكم الا لله, أمر أن لا تعبدوا الا اياه, ذلك الدين القيم, و لكن أكثر الناس لا يعلمون"

سأقوم بعمل خرافي في هذا المقال: سأعتبر أن أهل السنة يطلبون الحق باخلاص و نزاهة تامة. سأعتبر أنهم يتبعون السنة و ملحقاتها بدافع ديني الهي قرءاني, كما يدعون, و سأصدق قولهم فعلا. و سأفترض أنهم اذا رأوا أن الله يرفض فكرة السنة و ملحقاتها التي عندهم و لا زالت معهم منذ قرون, سأفترض أنهم سيتخلوا عنها بكل طيبة خاطر و سيأخذون الكتاب بقوة كما يعلمنا الله, ربنا و ربهم. نعم لا يوجد أدلة حقيقdة تدفعني الى اعتبار هذه الأمور و افتراضها, بل كل الأدلة و القرائن تدل على وجوب الأخذ بعكس هذه الافتراضات الخرافية. و مع ذلك, فان احسان الظن في موضع مثل هذا لا بأس به, بل انه سيدفعنا الى البحث و الكتابة بروح جميلة و حليمة, بدل روح الغضب و الشتم و الاتهام بالمكر, اذ عامة المسلمين لا معرفة لهم بهذه الأمور و أنما يأخذونها أخذ تسليم. و هذا المقال موجه بصورة خاصة لعامة الناس, و ليس للسادة و الكبراء (الذين هم أصل المشكلة) اللهم الا بالعرض. و بهذه الروح الجميلة تعالوا نبحث سويا في الأمر, فانه بلا مبالغة من أهم الامور في الحياة الاسلاميه عامة و الحياة الدينية خاصة, بل أكاد أقول أنه أهم فكرة على الاطلاق و سيتبين لماذا لاحقا. و يكفي أن نعرف أن فكرة "السنة" و ملحقاتها تعني أن كتاب الله ناقص و فقير و تابع و سطحي. لعلك تفاجأت؟ لا تتفاجأ, فان فكرة السنة قامت بهذا, و أكثر من هذا في حق الله و المؤمنين بهذا الكتاب.و ان التحرر من السنة (على فرض أن البحث أثبت هذا) سيسبب تحول تام في حياة المؤمن خاصة و جماعة المؤمنين عامة. و سترجع علاقة الانسان بالله مباشرة بلا وسائط و تحريفات. و ستنفتح أبواب السماء ليرقى الدارس حتى يصل الى العرش و ما وراء العرش "هو الأول و الاخر و الظهر و الباطن".

قول يوسف الذي افتتحنا به المقال سيكون هو محور هذا المقال, اذ انه يحوي كل ما نحتاجه و زيادة. و لعل سائل يقول: و لكن ما علاقة قول يوسف هذا للمشركين و عباد الاصنام باتباع السنة النبوية الشريفة خاصة و أن القرءان

نفسه أمر باتباع الرسول؟ الجواب: و هل أخذ كتب دينية كمراجع مع كتاب الله هو شيء غير الشرك! بل ليس الشرك الا هذا. و أما الشرك بالمعنى الوجودي, و الاصنام بالمعنى المشهور بين الناس فانه لا علاقة له بالشرك المقصود في القرءان و العرفان. صناعة الحجارة التي تسمى "اوثان" كما يتعاطاها بعض أهل الديانات هو عمل رمزي فقط, مثل الكعبة في ثقافة الاسلام, هل الكعبة صنم؟ كذلك هؤلاء الاخرين لا يعملون احجارهم و رسوماتهم الا على أنها قبلة للاله المطلق. و أيضا كأمثال رمزية تحوي أسرارهم الدينية و أفكارهم الدينية. فمثلا, عندما يرسم أحدهم صورة ربه على أنه رجل له أربعة أيادي و أربعة رؤوس, فان هذا لا يعني (كما يتصور السذج) أنه يرى أن ربه فعلا هكذا شكله, لا, و لكن يقصد برمز الأيادي الأربعة: القدرة المطلقة, فالأربعة رمز الجهات الأربعة (شمال, جنوب , شرق ,غرب) و اليد رمز القوة و القدرة, فهذا يعني أنه يرى ربه "على كل شيء قدير". و كذلك الرؤوس الأربعة: الرأس رمز العقل و العلم, فهو يقصد أن ربه "بكل شيء عليم". و انما كانوا يصنعون هذه الرموز لأن أكثر الناس كانوا لا يقرأون الكتب, و الصورة تساوي ألف كلمة كما يقال. و كذلك عندما يصنعون تمثالا جسمانيا: هم يعتقدون أن الاله الواحد متعالي و مطلق الوجود لا يحده حد معين دون حد بل هو الأول و الاخر و الظاهر و الباطن, فاذا أرادوا أن يصلّوا, الى أين يتجهون؟ الاله في كل مكان على حد سواء, فأينما تولوا فثم وجه الاله, و لذلك و من باب جمع القلب و التركيز و من باب جمع الناس و توحيدهم يصنعون تمثالا في مكان معين. و سبب تعدد التماثيل ليس تعدد الالهة (أيضا كما يحسب السذج) و لكن هو لأن الاله المطلق له أسماء عديدة او "ملائكة" متعددين , مثلا العزيز و الرحيم. و حيث انه في كل مكان على حد سواء, فاذا أرادوا أن يركزوا في دعاءهم فانهم يصنعون تمثالا لاسم "العزيز" و يجعلونه هنا, و تمثالا اخر ليعبر عن صفة "الرحيم" و يجعلونه هناك. فاذا أراد أحدهم أن يدعوا الاله باسمه العزيز فانه يذهب الى التمثال الأول و يقف أمامه, و هكذا في الثاني اذا أراد أن يستنزل رحمة الاله عليه. و لا نريد أن نخوض في تفاصيل أكثر لهذه العقائد. المهم أن نعرف أنه لا يوجد أحد يعبد هذه الاحجار و يراها فعلا أنها الهة و ما شابه. هي مجرد قبلة للاله المطلق, و رموز لأسمائه و صفاته و قواه المختلفة.

لاحظ مثلا قول يوسف "أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار" لا يمكن أن يكون يقصد في هذا النص عباد الاصنام بالمعنى الذي يحسبه السذج, اذ ان الاستدلال على الأمور العقدية و الالهية لا يكون بميزان المنفعة "خير" . هذا كأن يأتي ملحد الى مسلم و يقول له: ان الاله غير موجود بدليل ان الحياة تكون أجمل و أحسن و فيها حرية اكثر من لو كان موجودا. و فعلا يوجد من يقوم بهذا, من كبار المفكرين الملاحدة من ينكر وجود الاله لان عدم وجوده "خير" للانسان في نظره, فتأمل. و ظاهر ان هذا غير مقبول في ميزان العقل. و كذلك كأن يقول مسلم لأحد عباد يسوع (الذين يقال لهم "نصارى" أو مسحيين, و هي تسمية غير صحيحة): ان يسوع لم يصلب و دليل ذلك أنه من الاحسن و "الخير" لو لم يكن قد صلب. الاستدلال على وجود الذات أو وقوع الحادثة لا يكون بمعيار المنفعة, أي كما قال يوسف "أأرباب متفرقون خير أم الله". فقد يقولون له, على فرض أنه يقصد ذلك: نعم ان الالهة

المتفرقين خير عندنا. و ان شاؤوا لا يحتاجوا الى أن يبرروا عقائدهم, اذ منذ متى يحتاج عامة الناس ان يبرروا و يعقلنوا عقائدهم الدينية أصلا. فهذا الاحتمال في فهم الاية ضعيف جدا, بل يظهر ضعف عقل و معرفة و أنانية في كلمة يوسف. و اكمال دراسة هذه الكلمة سيظهر معاني أخرى أقوى سنذكرها في محلها ان شاء الله.

و قد يقال: فماذا عن قول يوسف "ما تعبدون من دونه" ما علاقة عبادة الارباب باتباع السنة النبوية؟ الجواب: أولا هذه ليست سنة نبوية أصلا و سنذكر لماذا بعد قليل. ثانيا, ان كل العلماء و أرباع العلماء يعرفون أن العبادة في القرءان تعني الاتباع في أمور العقائد و التحليل و التحريم أي السلطة الالهية, و لذلك أدلة كثيرة من أكبرها قوله "اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله" و معلوم أنه ليس المقصوج العبادة حصرا في السجود الجسماني, انما هو أن الله أمر أمورا, و لكن الاحبار و الرهبان حرفوا هذه الأمور, أو اخترعوا أمور من عندهم و نسبوها الى الله فأطاعهم الناس. و كذلك عندما يقول الله أنه ما كان ليؤتي نبيا الكتاب و الحكمة ثم يقول هذا النبي للناس "كونوا عبادا لي من دون الله" و معنى ذلك ظاهر, فالله ينزل الكتاب حتى يحكم النبي بهذا الكتاب, و حتى يبني النبي و الناس الدين من هذا الكتاب "و أن احكم بينهم بما أنزل الله" و يدعوا الله النبي كثيرا أن يحذر من أن يفتنه الناس عن كتاب ربه او بعض ما في كتاب ربه. و من يطلع على أعمال الأحبار و الرهبان (من كل الأمم) فانه سيرى أن تحويلهم للناس عن اتباع الكتاب الأساسي هو دائما عن طريق ابتكار حيل و اعوجاجات في الدين حتى يحولوا "أطيعوا الله" لتصبح "أطيعونا نحن لأننا نطيع الله" هكذا يزعمون على الأقل. و دائما تكون لهم حجج من نفس كتاب الله (الكتاب الاساسي) لكي يقنعوا عامة أتباعهم أن هذا الكتاب لا يكفي و لكن يجب أن تأخذوا بكتب أخرى, و بهذا ينفتح الباب لتحويل الأحبار و الرهبان الى أرباب فعلا, و هذا مشهور في الماضي و مشاهد في الحاضر. و لذلك يقول بعدها "أسماء سميتموها أنتم و ءاباءكم".

فاذن الأرباب هم ناس لهم سلطة اصدار الأحكام الدينية باسم الله من غير كتاب الله. و سلطتهم دائما تكون مستمدة ولو ظاهرا من كتاب الله, عن طريق استدلالات معوجة و أنصاف براهين و كثير من الكتم و التعميات. و لذلك نقول " تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم: ألا نعبد الا الله, و لا نشرك به شيئا, و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله" لاحظ أن الثلاثة كلمات تظهر على أن لها معنى واحد, فكلها تدل على التوحيد. فلماذا يقولها ثلاث مرات؟ هذا لانه يتكلم عن التوحيد في مراتبه الثلاثة. يجب أن نعرف أولا أننا لا نعرف من امر الله الا ما أنزله في كتابه. و من هنا نقول دائما أن "الله و كتابه واحد" , فبدون هذا القرءان مثلنا مثل الملحدين أو الربوبيين في أحسن الأحوال. فنحن لا نعرف الله, و لا علاقة لنا بالله الا في هذا القرءان. و ما عدا ذلك من دعاوي عرفانية انما هو انعكاس نفسي لعقائد معينة و قد بينا في مقالات اخرى تفصيل أكثر لهذا الأمر. فاذن عندما يتكلم القرءان عن الله فانه يعني هذا القرءان ذاته في أهم الأبعاد المقصودة لكلمة الله. و بهذا نفهم معنى الكلمة السواء التي

نريد أن نعمل بها و ندعوا الأحزاب اليها "ألا نعبد الا الله" يعني أن نتبع كتاب الله فقط. "و لا نشرك به شيئا" تأمل في كلمة "به" و ليس "معه" فهنا يقصد الظاهرة المشهورة, فهذه الباء باء الوسيلة, أي لا تستعملوا الله لكي تشركوا معه شيئا, فلا تقولوا ان القرءان يدعونا الى الشرك, أي ان نجعل كتب أخرى مع كتاب الله. "و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله" و هنا ياتي الشق الثالث من الشرك و هو أن يكون الناس قسمين قسم رجال دين و قسم عوام مقلدين, لا عوام في دين الله, لا سادة و لا كبراء, لا أحبار و لا رهبان, كل أمرئ بما كسب رهين, و لا تقف ما ليس لك به علم. فلا سلطة لأحد أن يصدر أوامر باسم الله. انما يقدم دارسو الكتاب مشورتهم كما يقول "و أمرهم شورى بينهم" و "لا اكراه في الدين". اذ ركن هذا الدين الاول و قاعدته الكبرى هي "دراسة القرءان" فكل مؤمن هو دراس للقرءان. و يتداول المؤمنين دراساتهم و ثمرات اجتهاداتهم, و هي من التشاور. و لكن لا سلطة لأحد أن يخترع أمرا باسم الله, و لا سلطة لأحد أن يجبر الناس على اتباع عقائد على أنها دين الله. فقصارى الأمر هو عرض الرأي و المشورة و ثمرة الدراسة. و على المؤمنين أن يفهموا و يعقلوا و يأخذوا ما يعلمون و يريدون "و لا تقف ما ليس لك به علم". فاذن التوحيد الحقيقي بالنسبة لله هو : أخذ كتاب الله وحده, و أن يستقل كل انسان في دراسته و تداول العلم و تقديم النصح و المشورة.

و الان لندخل في صلب البحث حول ما يسمى بالسنة النبوية, فتعالوا ننظر...

(كم مرجع للدين؟)

"أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار"

كبداية, ما الذي يجعل الانسان يؤمن بالقرءان؟ الجواب في سورة الجن "انا سمعنا قرءانا عجبا, يهدي الى الرشد, فئامنا به" فالقرءان يدعوا الى الايمان به لذاته. لكونه "عجبا" و الانسان يحب و يعظم الأمور العجيبة الغريبة العظيمة المتعالية. و لكونه "يهدي الى الرشد" و هذا هو المطلوب من اي كتاب و علم بصورة عامة.

حسنا, الان نحن قد اءمنا بهذا القرءان, و كل ما سيأتي سيكون مبنيا على أننا نؤمن بهذا القرءان, أي أنا و القراء الأعزاء. فنحن الان مؤمنين و الحمد لله, و ندرس القرءان و نتعلم منه و نعمل به ما استطعنا.

فجأة ياتي الينا جماعة من الناس تقول لنا: ان هذا القرءان الذي معكم لا يكفي لتبيين دين الله تفصيليا, فالقرءان قد أجمل بعض الأمور فيه و لم يفصل كل شيء, و نحن عندنا كتب أخرى فيها تكملة لكتاب الله. ماذا سيكون ردنا على مثل هذه الدعوى؟

سنقول لهم: ان الله يقول أن كتابه "تبيانا لكل شيء" و يقول "و تفصيل كل شيء" و "كتاب فصلته على علم هدى و رحمة" و يقول "أفغير الله ابتغي حكما و هو الذي أنزل اليكم الكتب مفصلا" و يوجد نحو عشرين اية تبين بظاهرها المباشر أن الكتاب ليس فقط مفصل تفصيلا بل انه يفصل أفكار الناس الأخرى أيضا, و هو ليس فقط بين و نور و لكنه يبين أفكار الاخرين أيضا. و استقراءنا للقرءان و مدارستنا له تظهر ان القرءان كتاب عظيم بذاته و أنه شديد التفصيل لافكاره و رؤيته الى أبعد الحدود. فالقاعدة التي بنيتم عليها دعوتكم غير صحيحة عند الله. هذا بالاضافة أن الله يأمرنا بان نأخذ كتابه فقط و هو مقتضى التوحيد, و يقول "أولم يكفهم أنا انزلنا اليك الكتاب يتلى عليهم" أما نحن فيكفينا الكتاب. فلماذا لا يكفيكم أنتم؟ و الكفايه هنا تشمل المعنى الذي ذكرناه في احد مستوياتها التي تدل عليها قرائن الايات الاخر.

هنا سيقدمون لنا دعوى أخرى و هي أن الله أنزل وحي اخر هو السنة النبوية. فوجد وحيان و ليس وحي واحد.

سنقول: يقول القرءان "قل انما أنذركم بالوحي" و يقول "فذكر بالقرءان من يخاف وعيد" فلا يوجد الا وحي واحد و هو هذا القرءان.

يقولون: ان القرءان نفسه أمر بطاعة الرسول في قوله "أطيعوا الله و أطيعوا الرسول" فلو كانت طاعة الله هي عين طاعة الرسول فلا حاجة لهذا التفريق بالواو, و ذكر الطاعة مرتين. و السنة النبوية هي كلام الرسول, الذي يقول القرءان عنه "و ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى" و يقول " و ما ءاتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا". فالله نفسه قد احالنا على الرسول و أمرنا باتباعه.

نقول: من هو الرسول؟ "كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم ءاياتنا" و " و ما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم ءاياتنا". فرسول الله هو الذي يتلو ءايات الله. و هذا بديهي من الاسم الذي يطلقه الله عليه "أطيعوا الرسول". ان طاعة الرسول فعلا هي طاعة المرسل, و لذلك جعلها عين طاعته في قوله "و من يطع الرسول فقد اطاع الله" لان الرسول يتحدث بكلام الله, و يحكم بما أنزل الله, "و اتل ما أوحي اليك من كتاب ربك". فنحن لا نعترف برسول لا يتكلم بهذا القرءان و يتلو هذه الايات و ما فيها.

يقول" و اذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله و الى الرسول" ما انزل الله هو هذا الكتاب, و أي انسان يتلو اية من هذا الكتاب حق تلاوتها و يبلغها لاحد فهو في هذه اللحظة يعتبر رسول. و من الناس من يرجعون مباشرة الى الكتاب, مثل الرسل, و من الناس من يعرضون عن الكتاب أو لا يفهمون العربية أو واقعين تحت أسر أفكار تحرمهم من فهم الكتاب و غير ذلك من موانع الاتصال المباشر بالكتاب و لهؤلاء يقول "و الى الرسول" فاذا لم تكن تملك أن ترجع الى الكتاب مباشرة لأي سبب فأنت بداهة تحتاج الى انسان ليتلو عليك هذا الكتاب, و التلاوة قد تكون حقيقية "يتلونه حق تلاوته" و قد تكون تحريفية "يحرفونه من بعد ما عقلوه" و أصحاب التلاوة الأولى هم الرسل, و أصحاب التلاوة الثانية هم الأحزاب المجرمين. و لا بد لأي كتاب من انسان يقرأه بداهة, و هذا الانسان يعتبر رسول هذا الكتاب أيا كان في اللحظة التي يبلغ الاخرين فيها مضمون هذا الكتاب او شئ منه. كمثل من العالم بالطب يرجع مباشره الى المراجع الطبيه كالكتب و التقارير لانه يفهمها و يعرف كيف تعامل معها و يستقي منها المعاني و الامور لانه يملك الاستعداد و الاهليه لذلك، "اطيعوا الله"، و لكن يوجد الجهله بالطب ممن يريدون ان يتعلموا الطب فانهم لا يملكون و لو في البدء على الاقل الا ان يرجعلوا الى انسان معين ليفهمهم مبادئ الطب و التعاطي مع مراجعه و كتبه و كيفيه استنباط المعرفه منها، "اطيعوا الرسول". ففي كلا الحالين الرسول يبدأ في تعاطيه مع الناس من الرساله و الى الرساله. و لهذا جاء الامر مره يقول " ما على الرسول الا البلاغ" البلاغ فقط، و قد بلغنا الكتاب

و ها هو عندنا. و لكن في مره اخرى يقول " البلاغ المبين" و اضافه المبين لتدل على هذا المعنى الذي ذكرناه، و هو ان يبين كيفيه التعامل مع الكتاب بلسان الذي يسأله و بحسب ظروفه و احواله الخاصه.

فهل هذا الرسول الذي تتحدثون عنه يتكلم بأمور تخالف هذا الكتاب؟

يقولون: نعم, انه يقيد المطلق, و يخصص العام, و ينسخ بعض الاحكام أحيانا, و و يأتي بعقائد ليست في القرءان, و يفصل مجمل القرءان.

نقول: هل انتم مؤمنين فعلا! أنتم تعتقدون بأن هذا كتاب الله و مع ذلك تقبلون أن رسول الله يغير كلام الله و يزايد عليه, و تزيدون من اجرامكم بأن تنسبوا هذا التحريف و الاجرام الى أنه صادر باذن الله. أولا, ان المطلق الذي تتحدث عنه, الله أراده مطلق لحكمة, و ذلك حتى يستعمله كل انسان كما يناسبه فالقرءان ليس صخرة و لكنه ماء يتناسب مع مختلف طبائع الناس. و كذلك العام, فالله تركه عاما لحكمة. و أما أن يأتي بعقائد باسم الله ليست موجودة في كتاب الله فهذا ليس برسول, ان كان فعلا قد فعل ذلك فهو مجرم عند الله "و لو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين" و لو لم يكن قد فعل و لكن كذبتم عليه أنتم و اءباءكم ف "سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون". و أما تفصيل مجمل القرءان, فان القرءان ليس مجمل أصلا حتى يتفصل, و من باب أولى أن يفصله شيء من خارجه. القرءان كامل متكامل, يشهد بعضه لبعض, و يفصل بعضه بعضا, و ما يمكن أن يكون مجملا في موضع فقد تفصل و تشرح في مواضع اخرى.و أما عن نسخ الأحكام, فان النسخ يعني أن في الايات ما هو باطل لا يجوز العمل به , و هذا الكتاب عزيز "لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه". و أي تغيير أو الغاء لحكم في كتاب الله هو تحريف و صاحبه ملعون- مع الأسف الشديد. فهل عندكم شيء اخر غير هذه الدعاوى التي كلها كفر جهاله بالنسبة لنا؟

سيقولون: ان الرسول الذي نتحدث عنه هو محمد الذي نزل عليه هذا القرءان الذي تتحدث أنت به. و هو نفسه صاحب السنة التي نتحدث عنها.

نقول: ان محمد رسول الله في القرءان لا يعمل الأمور التي تدعيها أنت و جماعتك. محمد القرءان لا يلغي أحكام الله, لا يدعوا الى كتاب اخرى غير كتاب الله, لا يتحرك و لا ينطق الا بما هو من كتاب الله. و ما تدعيه أنت هو ليس عمل محمد و لكنه عمل الأحزاب الذين لعنهم الله في مواضع كثيرة. نحن نعرف مثل محمد مما هو في كتاب الله. و ما عدا ذلك فهو ليس محمد عندنا. و أما عن القرءان فهو رسالة الله لي "و لقد أنزلنا اليكم". و "لقد أرسلنا اليكم" و انا قد قبلت الرسالة من ربي. و لا أحد يملك أن يستعبدني لنفسه. و لا يمكن لنبي أن يدعي أن له سلطة اصدار أوامر غير موجودة في كتاب الله. ان الله أثبت الدين بهذا الكتاب, فهو الاية الدالة على الحق وحده, أو "المعجزة" كما تقولون, فاذا جاء رسول بعد ذلك و ادعى أمورا مخالفة بل قاتلة لحرف في هذا الكتاب فانه كاذب و هو ليس رسول في هذا النطاق. معيار الصدق عندنا هو متابعة هذا الكتاب.

يقولون: ان الله أنزل "الكتاب و الحكمة" و الكتاب هو هذا القرءان و الحكمة هي السنة النبوية.

نقول: أولا, الا تلاحظ أنك تدخل على القرءان بأفكار مسبقة و عقائد تريد اقحامها في القرءان و تجعل الله يقول ما لم يقل؟ ادخل بيت الله برغبة في التعلم منه و ليس بالتعالم عليه. من أين أتيت بهذه الكلمة "السنة النبوية"؟ السنة هي سنت الله. و محمد (كمثال قرءاني) مأمور بأن يقتدي بالأنبياء الذين قصهم الله في القرءان, كما جاء " أولئك الذين هداهم الله فبهديهم اقتده" فمحمد يقتدي بالأنبياء القرءانيين, فان كنتم فعلا تتبعون محمد حذو القذة بالقذة فعليكم أن تعملوا مثله تماما و اقتدوا بانبياء القرءان, و اتلوا كتاب الله حق تلاوته, و اعملوا به و احكموا به. فهل محمدكم كان يملك كتابا غير كتاب الله؟ لا. هل كان له قدوة غير أنبياء الله كما قال الله؟ لا. هذا ان كان محمد القرءان بالطبع.

ثانيا, يقول الله "رسولا من الله يتلو صحفا مطهرة, فيها كتب قيمة" تأمل في كلمة "كتب" فهذه الصحف المطهرة فيها كتب, فهي ليست كتاب واحد الا من ناحية المجموع . و لكن تفصيليا فانه يحوي كتب, صحف ابرهيم, التورية, الزبور, الانجيل, و القرءان و غير ذلك.

و ثالثا, ان الحكمة المذكورة موجودة في هذه الصحف المطهرة, و كمثال اقرأ قوله "حكمة بالغة فما تغن النذر" و اقرأ في سورة الاسراء بعد أن ذكر حكم عظيمة مثل "لا تجعل يدك مغلولة الى عنقك" و "و لا تقف ما ليس لك به علم" فانه ختم ذكر هذه الحكم بقوله "ذلك مما اوحي اليك ربك من الحكمة, و لا تجعل مع الله الها اخر" و أحسب أن الله

تنبأ بأن أناسا سيستعلمون دعوى الحكمة هذه ليشركوا به كما هو ظاهر من عملكم و لذلك أتبع هذه الاية بقوله "و لا تجعل مع الله الها اخر".

يقولون: فما أدراك أن هذا القرءان الموجود عندك لم يحرف؟

أقول: ان كنت تدعي انه محرف كأن يكون ناقص أو زائد فلتأتي ببرهانك. و البرهان الحقيقي هو أن تأتي لي بالنسخة الأصلية الغير محرفة و لنقارن. ثم ان كنت مؤمنا فكيف تقول بهذا, و لو قبلت بدعواك عن السنة النبوية فان السؤال سيبقى واردا, و بالتالي عليك أنت أن تجيب عنه ان كان هذا هو دينك. نعم اني لا أعلم يقينا أنه غير محرف, اذ ما أدراني, انا لم أشهد نزوله و لم أشهد تدوينه أول مرة و لم أشهد كيفية تكونه. و هذا لا يؤثر, لأن معيار قبولي للفكرة ليس لأني أثق في الشخص الذي جاء بها, نحن لا نعبد أباء, معيار صحة الفكرة هو برهانها الواقعي و مقدار نفعها للناس. و اني لموقن الى حد كبير أن هذا القرءان لم يحرف ألفاظه بشر, لأن القرءان يقتل كل الفرق التي كان موجودا بينها الى يومنا هذا؛ فأنتم مثلا, تبنون كل أفكاركم على أن القرءان مجمل غير مفصل, فلو كنتم ستغيرون القرءان ليوافق مصالحكم لكان الواجب ان تزيلوا الايات الكثيرة جدا التي تبين أنه مفصل تفصيلا. هذا على فرض استطاعتكم, اذ ان الفرق الأخرى كانت و لا تزال تبحث عن أسباب للطعن في بعضها البعض و لو غيرت فرقة فان البقية لن يغيروا. و هذا ما تنبأ به الكتاب عن أن الله سيفرقكم و يلبسكم شيعا و يذيق بعضكم بأس بعض, و بهذا سلم القرءان من العبث الظاهري فيه و الحمد لله. فلا تسب الله بغير علم.

دعني أضرب لك مثلا, تصور أن ملكا أرسل رسالة الى ابنه عن طريق رسول, فلما وصل الرسول قال للابن: ان جلالة الملك يأمرك بأن تحبني و تطيعني و تسكنّي في احسن البيوت و ان تجعلني وزيرك الخاص و رئيس الخزانة. ثم أعطى الابن الرسالة. فلما فتحها الامير الابن, وجد فيها " يا بني, هذا الذي أرسلته لك رجل حقير, ملعون, اياك أن تطيعه في شيء, بل احبسه و عذبه ثم اقتله". أليس هذا دليل حقيقي موضوعي أن الرسول لم يحرف الرسالة؟ لو كان سيحرف فانه سيحرف كل هذه الأوامر و يحولها لصالحه. كذلك هؤلاء الأحزاب الذين تواجد القرءان بينهم الى يومنا هذا, فانهم يقولون "هذا كتاب الله الكامل المحفوظ" ثم يقولون "الله يأمركم أن تتبعوا أفكارنا و أحكامنا" فلما تدرس كتاب الله ترى أنه ضدهم من البداية الى النهاية في الكثير من الأحيان, خاصة في ما يتعلق بأصل الدين. و بهذا أوقن عن طريق الاستنباط و المشاهدة و الدراسة و القرائن أن القرءان سليم تماما.

و كمثال اخر فان الشيعه مثلا لم يستطيعوا ان يضعوا اسماء ائمتهم في القرءان فزعم بعضهم ان القرءان تحرف و ازال هذه الاسماء، فلو كانوا يستطيعوا ان يضيفوا هذه الاسماء لفعلوا و هي عمده مذهبهم و طائفتهم. و قل مثل ذلك في البكريه في وضع اسماء خلفاءهم. و فوق كل هذا، فان تفاصيل الاحكام الشرعيه بدايه من الصلاه الى اخر باب في ما يسمونه بالفقه، انما هو في معظمه بل يكاد يكون كله ماخوذ من غير كتاب الله تعالى حصرا، فلو كان منهم من يستطيع ان يغير او يضيف لاضاف و خففوا عن نفسهم مشقه وضع المرويات و اختلاق السوابق النبويه.

و لي أدلة أخرى لا حاجة لذكرها هنا فقد ذكرتها في مواضع اخر.

سيقول: فكيف تصلي؟

أقول: هذه مسائل فرعية, الأصل أن نعرف أن كتاب الله هو المرجع الوحيد و الكامل المفصل للدين, فان وافقت على ذلك فان باقي المسائل تكون سهلة و جميلة. و أما في معرض الجدال حول أصل الدين لا تسألني عن فرعيات أنت لن تقبل بها و لو أخبرتك بها. "أصلها ثابت و فرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها" فلنحكم الأصل و نثبته أولا. ثم ان الله يعلمنا أن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دونه, فعليك أنت أن تدرس الكتاب و تستنبط منه, و لنتشاور و نتدارس بيننا حتى تتلاقح العقول و ينتفع بعضنا بتجارب البعض. و سلام على من اتبع الهدى.

(نقد داخلي مختصر لما يسمى بعلم الحديث)

"ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم و ءاباءكم, ما أنزل الله بها من سلطان, ان الحكم الا لله"

ما ذكرناه في الفصل السابق هو الجواب العلمي الحقيقي المفترض أن لا نحيد عنه, اذ هو الأصل و يعالج الأمر من القواعد. و أولو الألباب من الأحزاب سوف يفهمون و ينتهون عن هذه الفكرة و يرجعوا الى كتاب الله وحده. و لكن يوجد نوع اخر من الناس و هو الذي لا يكتفي بأن يعرف الفكرة الأقوى و لكن يريد أن يعرف أيضا أن فكرته الحالية ضعيفة بذاتها. فنقد الفكر يمكن أن يتم من الخارج و من الداخل. و ما سبق كان نقدا خارجيا, و هذا الفصل مخصص للنقد الداخلي لما يسمى بعلم الحديث.

حتى يتحول الناس من اتباع كتاب الله وحده الى اتباع هذه المرويات التي يتداولها الناس يجب عليههم أن يمروا بمراحل عدة و يتجاوزوا عقبات كثيرة و يجيبوا عن أسئلة عظيمة, و هو ما لم يقوم به علماء الحديث و لا يستطيعون. فهم يكتفون بأن يقولوا "القرءان كلام الله, و الله يقول "أطيعوا الرسول" تعالوا الى أحاديث الرسول" هذه القفزة لا يستطيع أن يقوم بها الانسان الا ان كان ممن يمارسون البهلوان الفكري بامتياز. لماذا ؟

أولا, عليهم أن يثبتوا أن القرءان ناقص بذاته و يحتاج الى كلام من خارجه ليكمله, و أن القرءان مجمل يحتاج الى تفصيل, و أن الرسول-من حيث هو رسول- هو شخص يتكلم بغير ءايات الله المنزلة في القرءان. و هذا لم يفعلوه و لن يستطيعوا أن يفعلوه, و هم يعلمون هذا و لذلك لا يذكرون أي شيء عن هذه المسائل في بحوثهم الحديثية. و هذا التجاهل هو قاعدة بناءهم و قد فرغنا منها في الفصل السابق و قد استقصينا الامر بما فيه الكافيه للراشد في كتابنا المسمى (علو القرءان و الناس على السنة و الاجماع و القياس) فليراجعه من يحب.

ثانيا, هم يقرون بأن كتاب الله هو المرجع الأول و الأعلى. و الان اذا أرادوا أن يخلقوا الها ثانيا أو مرجعا ثانيا للدين فان هذا المرجع الثاني لابد أن يستمد حجيته, من الألف الى الياء, جملة و تفصيلا, من كتاب الله حصرا. هذا مهم جدا, و هم يعلمون هذا, و لذلك لا يتطرقون له. يجب حتى يقوم علم الحديث أن يستمد مشروعيته و

حججه كلها من كتاب الله حصرا. فمثلا, في مسألة نقد رجال السند رواة الحديث, نأخذ أحاديث هذا الرسول (و سنتزل كثيرا في هذا الفصل و نذكر أمورا غير صحيحة حتى نستطيع التواصل مع علماء الحديث) عمن؟ نأخذ أحاديث الرسول عن من؟ يجب أن يعين لنا القرءان الرجال بالأسماء و يقول لنا أن هؤلاء أحاديثهم صحيحة فقط. و يجب أن يعين لنا رجال كل طبقة من الرواة. نعم لا تتعجب, يجب أن يعين لنا كل هؤلاء الرواة بالأسماء حتى يرتفع الخلاف و التنازع و التحزب. و الله لم يعين شيئ من ذلك. فكل شيخ يختار لنفسه شيوخ او رجال و نساء يقبل مروياتهم, بغض النظر عن أسبابه الخاصة هو و من وافقه و منهجهم. ما يهمنا هو أن الله نفسه لم يعين شيء من ذلك, لم يعين الرواة و لم يعين لنا من الشيوخ الذين تقبل مروياتهم و مجامعهم الحديثية. و هذا من تأويلات "ما تعبدون من دونه ان هي الا أسماء سميتموها انتم و ءاباءكم, ما انزل الله بها من سلطان" من قال أن فلان امام و فلان غير امام؟ من قال أن كتاب فلان أصح كتاب و كتاب علان أسوأ كتاب؟ من حدد معيار قبول الرواية؟ من حدد معيار قبول المتن؟ من حدد آليات نقد السند و المتن؟ الجواب المتيقن هو: رجال غير الله! الله لم يحدد و لا شيء من ذلك. و الذي يدرس ما يسمى بعلم الحديث يجد عجبا. هذا يرد الحديث و هذا يقبله, و هذا يعلل الراوي و هذا يأخذ به. المعيار الذي يحكمون به ليس معيار من الله. فمثلا مسألة عدالة الراوي, هذا يقول أن العدالة لها خمس شروط, و ذاك الشيخ يقول لا, بل ثلاث شروط, ثم يتنزل ثالثهم و يقول أن العدالة هي ظاهر الاسلام, ثم يقال أن العدالة في نهاية التحليل و ما عليه عمل الشيوخ عامة هو "مظنة الصدق" في الراوي, نعم نحن نتسائل ما الذي سيجعلنا نظن أنه صادق؟ بأي معيار؟ هل الله حدد شيء من كل ما فات؟ و لا شيء.

ثالثا, ان علم الحديث هذا يرتكز على السند. أي رواة الحديث. و من هنا جاءت الممارسة المسماة "الجرح و التعديل" فالشيخ يحكم على الرواة بالتزكية أو بالطعن فيه. و هنا بعثت الجاهلية الابائية مرة أخرى! أصبح الهم هو "من قال" و ليس "ما قيل" . أصبح الههم "هاتوا رجالكم" و ليس "هاتوا برهانكم". لا توجد حجة من كتاب الله على لزوم اتباع رجل دون رجل لذاته. يقال أن الصحابة عدول بتعديل الله لهم. أي صحابة؟ حسب تواريخكم أن عدد الصحابة كانوا نحو 120 ألف, لم يرو الأحاديث الا نحو 2000 بل أقل بكثير جدا في الواقع, ان الذين تروى عنهم أكثر الأحاديث المعمول بها هم نحو 20. أين بقية ال 118 ألف صحابي حتى نرى ما رأيهم في الدين. ثم ان هؤلاء الذين تروون عنهم قد خالف بعضهم بعضا, و قد قاتل بعضهم بعضا, و قد لعن بعضهم بعضا, و قد كفر بعضهم بعضا, فعن أي حجية تتكلم و هم أنفسهم لم يكونوا يرون أنفسهم حجة على بعض. يقال أن الحجة هم العلويين. أي علويين بالضبط؟ من أين أتيتم بفكرة العلويين أصلا؟ ان هذه الفكرة مأخودة من الأحاديث, و نحن نحاول أن نثبت حجية الأحاديث. أنتبه لهذا العمل الرقيع الذي يقوم به الاحزاب على مدى قرون. يستدلون بالشيء على نفسه. يعني أنه علينا أن نتبع أحاديث العلويين لأن الأحاديث التي رواها العلويين و شيعتهم تؤيد هذا. علينا أن نتبع أحاديث الصحابة لأن الصحابة رووا حديث يقول أن "أصحابي كالنجوم" ! علينا أن نتبع اجماع الأمة على

اتباع الأحاديث لأنه يوجد حديث يقول أنه علينا أن نتبع اجماع الأمة (على فرض وجود شيء خرافي اسمه "اجماع" أصلا) باختصار يجب أن نتبع بعض الأحاديث لأن رواة هذه الاحاديث يقولون ذلك. لا حجية لهذه الأحاديث الا من كتاب الله فقط. و هو ما ليس عندهم منه اي حجة تفصيلية.

من الكلام الدارج أن الذين يرفضون السنة هم يسعون لهدم القرءان و لكن بطريقة ملتوية. أقول: و هل هدم القرءان غير سنتكم هذه! أحاديثكم أقصت القرءان من الحياة الفكرية و العملية للمسلمين. أحاديثكم فيها أن القرءان محرف و ناقص و سقطت منه اشياء و أكلت الدواجن صحيفة فيها اية و لذلك لا نرى هذه الاية في القرءان الان, لا يهمنا ان تقولوا أن هذه أحاديث ضعيفة, هي مروية في كتبكم المعتبرة, سنتكم و شيعتكم, و اعداء القرءان عندما يطعنون في القرءان فانهم يستعملون أحاديثكم و سيركم للطعن في القرءان.و قد روي عن الكثير من "كبار الصحابة" أن القرءان ناقص (و الانقاص أحد أنواع التحريف كما لا يخفي) مثل :عمر بن الخطاب, عثمان بن عفان, ابن عباس, ابن عمر, عبدالرحمن بن عوف, ابي بن كعب, ابن مسعود, زيد بن ثابت, أبو موسى الأشعري, حذيفة اليماني, جابر الأنصاري, عائشة و غيرهم. فان أخذنا بالقول أنه اذا روى الشي خمسة من طبقة الصحابة فانه يعتبر متواتر, فان كون القرءان محرف منقوص ضعف متواتر و زيادة! يروى أن ابن مسعود كان يرى أن سورة الفلق و الناس وضعتا بعد موت النبي! ابي بن كعب يقترح وجود سورة الحفد, عمر بن الخطاب يقترح وجود اية الرجم و يرغب في اضافتها في القرءان و لكنه يخشى أن يقال أنه زاد في القرءان (عجيب فعلا, و أن يقال أن عمر أنقص القرءان مقبول عنده؟!- بالمناسبه هذه شهاده من كتبهم عليهم انه و لا حتى مثل عمر استطاع ان يزيد شئ في القران فالحمد لله) عائشة تدعي أن داجن دخل بيتها و أكل صحيفة عليها أية الرضاعة. و منهم من يدعي أن سورة الاحزاب كانت بحجم سورة البقرة. و غير ذلك من المرويات المخزية. لا يهمنا ما تبريراتكم لهذه الأحاديث, هي موجودة فعلا, و هي الان تستعمل ضد القرءان. و الاحاديث واضحة و معناها صريح, و اللف و الدوران قد يقنع المتعصب الأعمى و لكن لن يقنع عالم متحرر. و كثير من الأمور الموجودة في الأحاديث الصحيحة و المقبولة انما هي خزي على جبين هذه الأمة. أمور مخزية و أمور مضحكة , مخزية مثل التنظير للطغيان "اطع الأمير و لو جلد ظهرك و أخذ مالك" و مضحكة مثل أن من بني اسرئيل سبط اختفى و نبي الاسلام يقترح أنهم مسخوا الى "فئران"! من الذي يهدم الدين غيركم؟ الذي يقول للناس ارجعوا الى كتاب الله يريد هدم الدين و الذي يقول تعالوا الى البخاري و الكافي هو التقي المؤمن؟ "ما لكم كيف تحكمون".

من الأمور الغريبة التي تقال هي ان القرءان "معنى و لفظا" من الله, و لكن السنة وحي "المعنى من الله و اللفظ من النبي". و يقبل الناس عامة هذه المقولة و كأن لها معنى! هل يمكن فصل المعنى عن اللفظ؟ بالطبع لا. اذا تغير اللفظ تغير المعنى. ثم كيف يوحى بالمعنى هكذا مجردا؟ هذا مستحيل واقعا. و من الذي أوحى بالسنة؟ هل هو الله

نفسه, ان الله نفسه لم يوح بالقرءان مباشرة و لكنه أرسل روح القدس. هل هو جبريل؟ القرءان لم يذكر ذلك, و هل كان ينزل عليه و يقول له "الان قرءان" و "الان سنة"؟ و اذا قام بذلك فعلا فان اللفظ أيضا سيكون منه اذ المعنى لا يعطى هكذا مجردا. التفريق بين اللفظ و المعنى هو كالتفريق بين ظاهر العملة و باطنها. لا يمكن التفريق بينهما الا بتحريف أحدهما بدرجة أو بأخرى. ولو كان يمكن أن نغير اللفظ و يبقى المعنى كما هو حرفيا فان تلاوة القرءان بالمعنى جائزة, و من المعلوم أن تغيير حرف من القرءان يعني تذكرة درجة الأولى الى جهنم. نحن نعلم جيدا لماذا أرادوا أن يصبغوا أحاديثهم بالوحي: حتى يجعلوه مستقلا عن القرءان فيشرعوا ما يشاؤون باسم الله. و هذا كما رأينا في المقدمة هو ما يفعله الأحبار و الرهبان ليخلقوا لأنفسهم سلطة الهية مطلقة. ان الناس لم تعبد الأحبار و الرهبان حبا فيهم, و لكن لأنهم أوهموا الناس أن عبادتهم هي عين عبادة الله, و لا يكون ذلك الا باستعمال كلام الله, بعوج طبعا.

يقال أن "و ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى" هي دليل أن مروياتهم وحي من الله لأن النبي لا ينطق الا بوحي. لقد فرط هذا النبي- و اصحابه من بعده- في حفظ الوحي اذن! لماذا لم يكتب و يجعل لنفسه كتبة السنة كما يوجد كتبة الوحي. ثم اذا كان كل ما ينطق به وحي الهي مقدس, فهذا يعني أن في القرءان باطل و العياذ بالله، اذ يقول "يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك" فهذا يعني ان النبي "نطق" و حرم على نفسه شيء- و هذا يعتبر وحي اذ هو لا ينطق عن الهوي- ثم جاء الوحي ليقول "لم تحرم" كان يجب عليه أن يقول "يا رب حرمت لانك أنت أوحيت لي"! و كذلك في قوله "عفا الله عنك لم أذنت لهم" أيضا يجب أن يقول "يا رب عفوت لأنك أنت أوحيت لي اذ انا لا أنطق عن الهوى-كما يقول عني ارباب المرويات". ظاهر أن المعنى هو القرءان, و لذلك حدث الله بعدها عن قصة نزول القرءان "علمه شديد القوى".و لكن هذا ما يحدث عندما يدخل المفكر بعقائد يبحث لها عن ايات, و ليس ايات ليستنبط منها العقائد. و بالمناسبة هذا من تحريفهم الذي يعترفون هم أنه تحريف, فافتح أي كتاب يتحدث عن تحريف القرءان و ستراه يذكر ان من انواع التحريف و القول في القرءان بالرأي المؤدي الى جهنم هو أن يدخل الانسان بعقائد خارجية, ليست من القرءان, ليبررها و يلوي عنق الايات حتى يحول القرءان الى شاهد له. الكل يعترف بهذا النوع, و ما أقل من يتبعونه. استحالة أن يتبعه مفكر مسجون في مذهب أو دين أو طائفة. هم يدخلون القرءان كأرباب و ليسوا كعباد. و من أقبح ما قالوا و عملوا هو كلمة مشؤومة خبيثة أستحي من الله و من عقلي أن أذكرها حتى, و لكن للضرورة أحكام, يقول الشقي ابن الشقي "السنة قاضية على الكتاب, و الكتاب لا يقضي على السنة. الكتاب أحوج الى السنة من حاجة السنة الى الكتاب" . نعم نحن الذين نتزعم مؤامرة لهدم القرءان و أنتم حماة القرءان أليس كذلك! سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

يروون أن النبي بعث قاضيا فقال له "بماذا تحكم؟ قال بكتاب الله. قال النبي: فان لم تجد؟ قال فبسنة رسول الله" هذا حسن, فلماذا تلومونا على عدم التحول الى الدرجة الثانية اذا كنا قد وجدنا في كتاب الله؟ نحن و الحمد لله نجد كل شيء في كتاب الله. فخذوا سننكم هذه و ابتعدوا من طريقنا. و كفوا عن التصرف كالمحاربين قطّاع الطرق و السبيل.

يروي اهل السنة و الشيعة أحاديث مفادها أن الحديث الذي يخالف القرءان يجب أن يضرب به عرض الحائط أي يلقى في المزابل و لا يؤبه به. هذا حسن جدا, و هل قلنا بغير ذلك أصلا.

يا ليتكم تتبعون هذين الحديثين فقط, فانهم كفيلان بأن يهدما ما تسميانه بالسنة و ملحقاتها. و لكن هل تحسب ان زبانية السنة تركوا هذا, بالطبع لا. ادعى بعضهم أن الحديث الأول خاطئ لأنه يجعل السنة في مرتبة ثانية بعد القران, و الحق عنده أنهما في مرتبة واحدة, فكلام الله و كلام "النبي محمد" في درجة واحدة! ثم ينبحون و يزمجرون عندما نقول عنهم مشركين (شرك معرفي بالطبع-اذ لا يقرن المسلم الضال بالذي يكفر بالقرءان اصلا و فرعا و العياذ بالله). و رد بعضهم الحديث الثاني بحجة انه من اختراع الزنادقة, اذ السنة "مصدر مستقل" للتشريع. لم أعرف يوما أن العلويين "أهل البيت" عند الفريقين يعتبروا "زنادقة", و الأغرب أن السنة بعد أن كانت تابعة للقرءان أصبحت الها مستقلا بذاته. ثم يغضبون عندما نقول انهم ابتكروا الها جديدا أعلى من الله اذ كتب سنتهم تحكم و تقضي و تفسر و تفصل و تقيد و تخصص كتاب الله, و كتاب الله المسكين ليس له الا أن يحفظ عن ظهر قلب و أن يقرأ على الموتى في الجنائز. مسكين أنت أيها القرءان , كأن ربك يخاطبك في قوله"و تراهم ينظرون اليك و هم لا يبصرون". ان احاديثهم الجيدة قتلوها و سجنوها, و احاديثهم الملعونة رفعوها و قدسوها. جعلوا عالي الأمور سافلها. و بئس الناس الذين يرفعون الوضيع و يضعون الرفيع. الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين.

اذا صح سند الحديث و كان متنه باطلا لأي سبب فان الحديث كله يبطل. و اذا كان السند معلولا و لكن متنه صحيحا فانه يقبل و كثير من أمثال هذه الأحاديث يقبلها علماء الحديث و يعملون بها. فاذن العبرة دائما بصحة المتن و له الأولوية. و هذا ما نقول به. يجب أن ننقد المتن و لا يهمنا السند أصلا صح أو لم يصح (على فرض امكان ايجاد علم حقيقي للسند و هو مستحيل, و لو أنفق أرباب الجرح و التعديل نصف بل ربع ما أنفقوه في هذا العلم الذي لا يسمن و لا يغني من جوع , لو أنفقوا الربع فقط في دراسة القرءان بالحق لكان للدين و الحياة في المجتمع الاسلامي طعم اخر, و لكن ياحسرتاه على ما فرطنا في جنب الله, و لعلهم سيعضون أياديهم و يقولون "ياليتني لم

أتخذ فلانا خليلا. لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني") . الطريقة الوحيدة لتطهير علم هذه المرويات من الوثنية و الجاهلية و الرقاعة الفكرية هي بهذا: أن تحذف كل الأسانيد, و تجمع كل المرويات في موسوعة واحدة, كل مرويات العالم الاسلامي سنة و شيعة و كل الفرق. ثم يطلق على هذه الموسوعة اسم جامع مثل "التراث" أو "الموروث" أو ما شابه. ثم يحكم على المرويات بمعايير قرءانية و عقلية و واقعية. و هذا هو أحسن حل , بل هو الوحيد لهذا التراث. وهذا اقتراح لمن يهمه هذا اصلا, و الا فان اضاعة العمر في هذا و ترك دراسة القرءان هو كمثل ترك الحياة في بستان السماء للحياة في جحر ضب! و يكفي ما أضعنا من وقتنا الى الان في التغافل عن علم الله و يكفي تحريفا و استعبادا و تجاهلا. فلنرجع الى جنة الله, القرءان "ان الحكم الا لله أمر أن لا تعبدوا الا أياه. ذلك الدين القيم" بهذا سيكون ديننا هو الدين القيم على كل الأديان و الأفكار و الطوائف. و يتحقق الوعد "ليظهره على الدين كله" فهل لا يزال أكثر الناس لا يعلمون؟

لعل سائل يقول: اذا كان كتاب الله يكفي جملة و تفصيلا كما تزعم فلماذا تكتب أنت كتب أخرى و مقالات و تنشرها؟ الجواب: أولا لست أنا الذي أزعم أن كتاب الله يكفي جملة و تفصيلا, الله هو الذي "يزعم" ذلك. و ثانيا, فرق كبير بين ما أكتبه أنا و امثالي و بين كتب المرويات التي تنشرونها أنتم. أنا لا أدعي أن كتاباتي الهية معصومة لا يجوز نقدها و لا التساؤل حولها. انا لا أدعي ان الله أعطاني سلطة لتحريف كتابه بأي شكل من أشكال التحريف. انا اذا كتبت كدارس للقرءان فاني أذكر سلسلة أفكاري و انتقاداتي و تساؤلاتي و اجوبتي كاملة مفصلة و يستطيع أي ناقد أن يتأكد من قوة استدلالاتي أو ضعفها, و له الحق في أن يصححني و يشير علي بالأحسن كما يراه هو و سأقبله بكل صدر رحب أو سأجادله في الأمر. و الأهم من كل ما فات فاني ادعو دائما و أنظر لعظمة و أهمية و ضرورة "دراسة القرءان" و الرجوع اليه و دراسته باستقلال. و أما أحاديثكم فليس فيها شيء مما فات الا قليلا لا وزن له اذا قورن بالكفة الأخرى. أحاديثكم تدعي أنها "وحي اخر" بل أهم من القرءان و قاضية عليه و محرفة له (ما تسمونه تخصيص و تقييد) و هذه الأمور تعتبر مسلمات عندكم, خذ مثلا الصلوة التي جعلتوها طقوسا ما أنزل الله بها من سلطان. أحاديثكم تذكر في الغالب الأعم النتيجة النهائية بدون أن تظهر لنا سلسلة أفكار الشخص, فمثلا اذا قيل لهم "ما مقدار زكاة المال؟" فالجواب يكون "كذا" فورا بدون أن يظهر لنا كيف توصل الى هذه النتيجة و المفترض أننا يجب أن نسلم على عمى. أحاديثكم لا يجوز نقدها أو التشكيك في صحتها أو التساؤل حولها بل اذا ثبتت حسب المعايير التي سماها اباء هذا العلم فيجب أن يسلّم الناس بها و لا تعرض على القرءان (الا قليلا جدا و في حالات نادرة جدا جدا) حتى لا نكون زنادقة, و لا تعرض على مقتصيات العقل لأن العقل نسبي و ضعيف و محدود و مرذول في الغالب. و لا تعرض على مقتضيات الواقع المعروف و العلمي الحديث لأن الدين مسألة ايمان و لأن العلم يتطور و يخطئ و يصيب و غير ذلك من أعذار كل واحد منها أوهى من صاحبه عند التحقيق. و أخيرا فان أحاديثكم حلت محل القرءان في كل شيء تقريبا, و دارس الشريعة و العقائد يعرف هذا جيدا اذ أن القرءان لم يصبح له من سلطة و مكانة اللهم الا بشكل ثانوي و جل الافكار الدينية و

الاحكام و القصص و غير ذلك أصبحت تؤخذ من السنة و المرويات و ملاحقها كأساس و ما القرءان الا تابع ثانوي لا يجوز أن يقال فيه بالرأي حتى لا يهوي الانسان سبعين خريفا في جهنم و العياذ بالله. فلا تقارن كتاباتي و كتابات غيري من الناس بهذه الأحاديث. و بالطبع من يرفض ما اكتبه و يلقيه في المزابل لا يعتبر "مرتد" تجب استتابته او قتله او السخرية منه. فأرجوا ان لا تقارن المختلفين جذريا. و ان الكتابة و الابحاث هي من صلب اوامر القرءان , و الدراسة و الكلام ايضا.

و ثالثا, ان المشكلة ليست في الكلام و الحديث بحد ذاته. لا تسيؤوا الفهم و تستعجلوا. المشكلة هي في اسباغ القداسة على الحديث و الجمود عليه و تحريف القرءان باسم الله و ابعاد الناس عن دراسة القرءان باستقلال و تعويدهم على ذلك. لولا هذه الأربعة أمور لما نطقنا بحرف على حجية الاحاديث أو مكانتها, بل لعلنا نكون من الداعين الى دراستها و الانتفاع بما يمكن الانتفاع به منها. و لهذا اقترحت أن نجمع كل الاحاديث و المرويات في موسوعة واحدة و حذف كل الاسانيد منها و حتى اسم النبي يجب أن يزال منها. و ما وافق القرءان و العقل و العلم فهو من مقام النبوة قطعا و لو نسب الى ابليس. و ما خالف الهدى و العلم و الكتاب المنير فهو من الشيطان و لو نسب الى الرحمن. نحن ضد أن تجعل الحصانة على الافكار. ان الله نفسه قد امرنا بنقد كتابه "فأتوا بسورة من مثله" " فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه" و "ان هذا القرءان يهدي للتي هي أقوم" و ما أدرانا أنه يهدي للتي هي أقوم الا لو نقدناه و قارناه بغيره. و الأدهي من ذلك هو أن تنسب أحاديث معارضة للقرءان باسم الله و الرسول. هذا هو السبب الاساسي لرفضنا لهذه الأحاديث. و اني أعلم أن البعض من المستعجلين المسلّمين على عمى لكل ما يقال لهم سيقوم و يصيح في وجهي: لا! ان الحديث الصحيح لا يخالف القرءان أبدا! أقول: اذهب و تعلم دينك جيدا قبل أن تعترض. و كمثال سريع و مشهور "حكم الردة" فالقرءان يقول للمرتد "اذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس" و أما أحاديثكم تقول "من بدل دينه فاقتلوه". الصلوة هي في القرءان الدراسة و الدعوة كأساس, و هي في أحاديثكم طقوس و توهمات ما انزل الله بها من سلطان.القرءان يجعل قدوة المؤمنين هم الأنبياء كما هو في قصصه, و أما أحاديثكم فتحيل على صحابة و تحيل على علويين و تحيل على متسلطين. و غير ذلك كثير مما لا يزال السبب الأكبر الذي يحول دون اتصال الناس بالقرءان مباشرة و بحرية فكرية و استقلال نفسي. و لذلك يا عزيزي المعترض ابتكر اباء دينك فكرة أن "السنة مستقلة بالتشريع" و لولا أن السنة تحوي أحكاما معارضة للقرءان لما احتاجوا الى ابتكار مثل هذا المصطلح أصلا. و لقد قال أحد اباءك أن "كل ما حكم به النبي فهو مما فهمه من القرءان" و هذه كلمة رائعة في ظاهرها و تدل على ما يقوله القرءان "فاحكم بينهم بما أنزل الله" و لكن نسأل هذا الأب المحترم: من أين فهم النبي أن الصلوات خمسة و ان لها أعداد و طقوس معينة لا تجوز بغيرها؟ من أين فهم النبي أنه يحق له أن يغير أحكام الله و يلغي بعضها و يزيد في بعضها الاخر؟ قد يقال: هذا من سلطة التبيان التي اعطاها له الله. أقول: يظهر أنكم تتغافلون عن معنى التبيان. عندما يقول الله مثلا "فاذا قرأت القرءان فاستعذ بالله" فاذا جاء انسان الى رسول و قال له: كيف استعيذ بالله, بين لي من فضلك هذه الاية؟

فجواب الرسول سيكون على أحد الاعتبارات هو: يقول الله في اية أخرى " وقل رب أعوذ بك من همزت الشياطين و أعوذ بك رب أن يحضرون" هذا اسمه تبيين. و لكن اذا قال الله "ان الله و ملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين ءامنوا صلوا عليه" فاذا جاء أحد و قال لرسول هذا الكتاب: كيف أصلي على النبي؟ فاذا قال هذا الشخص: قل اللهم صل على محمد و ال محمد. فان هذا ليس تبيين و لا علاقة له به. بل رائحة السياسة و التعصب ظاهرة عليه لمن لا تزال حاسة الشم سليمة لديه. عندما يقول الله "أقيموا الصلوة" فانه لا علاقة له بالتبيين أن تبتكر طقوسا ليست موجودة و لا يمكن استنباطها من كتاب الله, ان الله شرح الطلاق و ماذا سيوضع في جيد امراة أبو لهب, و ما نوع الحيوان الذي أمر موسى بني اسرئيل أن يذبحوه, و لكن لم يفصل- حسب زعمكم و زعم اباءكم- أهم ما في هذا الدين و عماده المتين! فالله يفصل الأمور "التافهة" و لكن لا يفصل الأمور"المهمة" هذا هو ما تقولونه أنتم و ءاباءكم, بلسان اللزوم و الحال الضروري النابع من تعاليمكم. تبيان القرءان هو تبيان "القرءان", و أما ما تفعلونه أنتم و اباءكم هو تحريف القرءان تحت ستار تبيينه. و مثال الصلوات مثال مهم جدا و رائع لاظهار هذا العمل.

و من زاوية ثالثة, فان الله أمرنا أن نظهر العلم و لا نكتمه, أن نتداول علمنا و ثمرات فهمنا لكتابه و لا نكنزه. و أحسن طريقة لفعل هذا هو الكتابة. و بالكتابة تتقوى دراستنا كما بينا في كتب أخرى. و بهذا نستطيع أن نتبادل الكتابات مع اخواننا الدارسين, و ينتفع بعضنا بعلم بعض و فكره. فكرة غير مكتوبة هي جوهرة منبوذة. فكرة غير مكتوبة و منشورة هي اهدار لمال الله و اسراف و تبذير. من الناس من يفكر فقط لكي يهدر طاقته النفسية, و انفاق الطاقة النفسية ضروري و يتم طوعا أو كرها. و لكن اذا وضع الانسان طاقته في التفكير فان أحسن وسيلة لحفظ هذه الطاقة و تنميتها هي عن طريق كتابتها و نشرها و تداولها. و لا يجوز أن يكون مال الله (علم القرءان) دولة بين الأغنياء منا فقط, بل يجب أن نوصله لكل الناس, أغنياء و فقراء, للسائل و المحروم. و لهذا يجب أن نبتكر طرق متعددة لنشر القرءان و علمه و دراساتنا حوله و أساليب تقديمها للناس كافة, بل و بكل الألسنة أيضا (و بحث ترجمة القرءان بحث مهم لعلنا نخصص له مقال أخر) و الكتابة هي من أكبر الوسائل و أهمها لأسباب عديدة. و يكفي أن الله اختار و فضّل الكتابة ليتواصل معنا. و في هذا اية لقوم يعقلون.

كأني بانسان يسأل: ان السنة النبوية تحوي اعجازا علميا, و هذا دليل أنها وحي من الله. اقول: فماذا لو أخرجت لك عشرات الاحاديث الصحيحة عندكم و فيها انتكاسا علميا فهل تقبل هذا كدليل على أنها ليست من الله؟ مسألة الاعجاز العلمي, بل مسألة "اعجاز" القرءان هي مسألة مهمة جدا بحد ذاتها و لا أريد أن أبخسها حقها بكلمتين في هذا المقام و سنخصص لها بحث خاص ان شاء الله و لا أستطيع أن أخوض فيه الان لأني لا زلت أدرس هذه المسألة و أرى ما قيل فيها و أتفكر فيها. و لكن ما يمكن قوله هو التالي: اذا كان وجود حقيقة علمية في السنة يدل على أنها من الله فان وجود نكسة علمية يدل على أنها ليست من الله, و حيث ان كلا الأمرين موجودين في السنة فان اثبات حجيتها من هذا الطريق غير صالح. هذا على فرض وجود اعجاز علمي فعلي في السنة. و مما

اطلعت عليه مما ينسب الى الاعجاز العلمي فيه كثير من السذاجة. فمثلا يقال أن "اقد ثبت علميا أن الوضوء مفيد" بالطبع أنه مفيد, غسل الجسم موجود في كل الحضارات و هو ليس ابتكارا "سنيا" و لا قرءانيا. أو أن "غمس الذبابة في الطعام يجوز لأن في أحد أجنحتها داء و في الاخر دواء" حسنا فليأتني من يدعي أنه يصدق بهذا الحديث و سأجلب له ذبابة سامة تجعله يفرفر في الأرض اذا غمسها في طعامه و أكل.و هكذا في كثير مما يقال أنه اعجاز هو اما أمر موجود و معروف من قبل أو أنه مما لا يترتب عليه شيء. الجن عندما سمعوا القرءان لم يقولوا "فلننتظر لنرى هل سيثبت أنه "معجز" أم لا" و لكنهم رأوا حقيقته و فهموا أنه يهدي الى الرشد بأفكاره و كفى. أني شخصيا لا أرغب في أن أبني حياتي و عقلي على دعاوي الاعجاز هذه, و التحديات الطفولية. العلم علم, أي فكرة راقية هي معجزة كافية لي. و من المناسب أن نذكر أن القرءان لم يذكر كلمة "معجزة" و لكن كلمة "اية" , و القرءان امثال, و لم يأتي حتى يكون كتابا في الطب و الفيزياء. و من اكبر الماخذ على فكرة البحث عن الحقائق العلمية الطبيعية في السنة و حتى القرءان هو أنها مبنية على اسقاط الفكرة على النص و هذا عمل سهل. و لذلك يجعلون من شروط المنهج السليم في نسبة الحقيقة العلمية الى النص المقدس هي أن تكون الحقيقة العلمية "ثاتبة بشكل نهائي" يعني اذا كانت مجرد نظرية فيجب أن لا نبحث عنها في النص. و هذا بحد ذاته يكشف عن ما قلته من أن اسقاط الفكرة على النص هو أمر ميسور و نستطيع ان نقوم به في أي نص تقريبا. و أرباب الاعجاز العلمي يعترفون ضمنيا بهذا, و لذلك يحذرون من نسبة "النظرية العلمية" الى القرءان و السنة. و هذا اقرار ضمني بأنه يمكن فعلا أن ننسب و "نظهر" أن النص قد سبق هؤلاء المكتشفين بأربعة عشر قرنا. و لذلك مثلا وجدنا من ينسب الى القرءان السبق العلمي باكتشاف نظرية التطور لداروين و يقول: ها هو القرءان يذكر أننا خلقنا "أطوارا" كما في سورة نوح. و لكن لأسباب سياسية-دينية- مصلحية فان المؤسسة الدينية رفضت هذا "التفسير المغلوط" للاية. و لعلهم لو كانوا يرغبون في جعل القرءان "يسبق" الى اكتشاف هذه الحقيقة العلمية أو النظرية العلمية فانهم كانوا سيعطون جائزة نوبل لهذا المفسر العظيم الذي أظهر ان القرءان سبق داروين بأكثر من عشرة قرون. اذا كانت النصوص فعلا تحوي اكتشافات علمية كما يقولون فليظهروها لنا من قبل أن يكتشفها العلماء أصحاب المنهج العلمي التجريبي او النظري و الرياضي المعروف.

على أية حال, فان هذه أفكار متناثرة و تحتاج الى بحث خاص كما ذكرنا. المهم أن نعرف أن وجود أفكار علمية أو أخلاقية أو غير ذلك لا يعني أن السنة بكل ما فيها حجة و "مستقلة" في التشريع بالنسبة لدين الله الممثل في كتاب الله. هذه الأفكار العلمية و الاخلاقية يمكن أن توجد في اي كتاب قديم و حديث. العبرة في اثبات حجية السنة هو كما ذكرنا في هذا الفصل في بدايته. و اذا وجدت فكرة جيدة في كتب المرويات و غير المرويات فان قبولها أمر حتمي ليس لأنها في كتب المرويات و أنها تنسب الى أبطال المؤسسة الدينية, و لكن لأنها فكرة جيدة بحد ذاتها. فمثلا يوجد حديث أطلعت عليه في كتاب "الموضوعات"(اي المروايات التي حكموا عليها بانها مكذوبه) يقول "اذا اردتم ان يبارك الله لكم في طعامكم فاصنعوه صغيرا" ان هذه الكلمة المذكورة في حديث حكم

عليه الشيخ الألباني بأنه "ضعيف أو موضوع اذ قد ذكره في سلسلته المشهورة بذلك" هذا الحديث يساوي ألف كتاب من كتب التغذية. بل و فيه أدب و حكمة اقتصادية و سياسية و دينية و عرفانية و غير ذلك. لعل هذا الحديث من أحسن ما يمكن أن يتعلمه و يعمل به الانسان. فهو بذاته يدل على حسنه و قوته. و لا يهمنا هل هو "صحيح" أو "موضوع" أو منسوب الى الشيطان أم الى رسول. و لكن من الناحية الأخرى يوجد حديث "صحيح" يبين ان فصيلة الفئران أصل وجودها هو ان الله مسخ سبط من اسباط بني اسرئيل.لعل على أهل الاعجاز العلمي أن ينظروا في هذا الحديث الصحيح و يخرجوا لنا الاعجاز الذي فيه. خاصة و أننا نعلم يقينا أن الفئران وجدت قبل أن يوجد الانسان. و لولا هذا الاكتشاف العلمي لظل المسلمين ينظرون الى الفئران على أنهم من بني اسرئيل. ألا يكفي هذا ليأتي لنا عالم و يقول: نبيكم الذي لا ينطق الا عن وحي الهي متعالي يقول ان الفئران هم بشر مسخهم الله؟! شكرا و لكن لا احتاج لهذا الدين. ان مشكلة المقدس هو أن خطأ واحد يحوله الى أبشع مدنس. فاذا كان نبي الله الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى قد صدر منه فعلا هذا التصريح البيولوجي, فان الدين كله لا يساوي فلس! خطأ واحد من مدعي النبوة يجعله دجالا حقيرا الى أبعد دركات الحقارة اذ هو يكذب على الله.. و بالمناسبة هذا دليل اخر على أننا نحن الذين لا نرغب الا في كتاب الله انما نرفض السنة لأننا زنادقة نريد هدم الدين, و أن أهل السنة- رفع الله شأنهم- يريدون الحفاظ على الدين! و حسبنا الله و نعم الوكيل.

يقال أننا لا نستطيع أن نفهم حديث الله الا بأحاديث النبي و صحابته و أهل بيته. أقول: و كيف سنفهم أحاديث هؤلاء؟ حديث الله لا يفهم بذاته, و لا يبين بذاته, و لا يفصل بذاته, و لكن أحاديث هؤلاء (على فرض صحتها) تفهم بذاتها, و تبين بذاتها, و تفصل بذاتها! كلام الله ليس نور, و لكن كلام هؤلاء هو النور. هذا ما تقولونه. يقال أن اختلاف المفسرين في القرءان دليل على ضرورة وجود هؤلاء. أقول: و هل اختلفوا فعلا الا لأنهم يريدون اقحام عقائدهم و احكامهم على القرءان؟! ان الله نفسه يقول "ان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد" و يقول " و ما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم". و لو كان القرءان لا يكفي لتوحيد الناس و تأليف القلوب, فحديث من سيكفي يا ترى؟ ألم تدرسوا قوله "فأصبحتم بنعمته اخوانا" و نعمته هي القرءان "ما أنت بنعمت ربك بمجنون" "يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون". اذا كان من الاستحالة- كما يصور الأحزاب- أن يجتمع المسلمون بكتاب الله فان الله يكون قد قال كلمة غير صادقة في قوله "و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا" اذ لو كان الاعتصام مستحيل فكيف يأمر به الله الحكيم؟ و اذا كان الاعتصام ممكنا فلم تجعلون الأمور عوجا؟ كل الأحزاب تروي في كتبها مقالات عن القرءان تجعله حقا في أعظم المراتب في الامكان, هو الهادي و الشفاء و النور و المصباح و الماء و الدواء و العلم الذي لا ينضب, و الحاكم العادل, و فيه تفصيل و تحقيق و تبيين, لا يشبع منه العلماء, أهل القرءان أهل الله و خاصته, من لم يهده القرءان فلا هداه الله, من طلب الهدى في غير القرءان أضله الله, و أن المخرج من الفتن و الظلمات و الفرقة هو بالتمسك بكتاب الله الذي فيه نبأ ما قبلنا و ما بعدنا و حكم ما بيننا, و هو الفصل ليس بالهزل, من تركه قصمه الله, و لا تنقضي عجائبه, و لا تفنى غرائبه, لا يخلق على كثرة القراءة, جديد في كل زمان, لا ينقطع فيضه, تجلى الله لخلقه فيه, دراسة القرءان خير الأعمال و أعظم العبادات

على الاطلاق, عدد درجات الجنة على قدر ايات القرءان, من أراد عيش السعداء و موت الشهداء و ثواب الأنبياء فعليه بالقرءان. و يروي العلويين أن كل حديث يخالف القرءان فالنبي و هم بريئون منه, و أن كل علمهم من القرءان, و أن القرءان فيه كل شيء حتى أنه لا يستطيع أحد أن يقول "يا ليت كذا كان في القرءان" الا و قد جعله الله فيه. و أكثر من ذلك. و بعد كل هذا يقولون: القرءان لا يكفي يجب أن نأخذ بكتب أحاديث اخرى. جعلوا القرءان الها ثم قتلوه. جعلوه الها حتى يتمسك الناس بقوله "أطيعوا الرسول" فيحرفوها و يحولوا الناس الى كتبهم. ها هم الناس أتباعهم, ما مدى علاقتهم بالقرءان و روح القرءان؟ كم مرة وجدت المجالس و السهرات يتداول فيها القرءان و يتدارس؟ كم مرة سمعت أحد أئمة الأحزاب يتكلم بالقرءان بدون أن يقحم عقائده الخارجية عليه و يحرفه؟ كم مرة وجدتهم يلفون و يدورون حتى يجعلوا القرءان يقول كما يريدون هم؟ فاذن, اذا كان حديث الله لا يكفيكم فانه يكفينا. "فبأي حديث بعد الله و ءايته يؤمنون" سيقولون يا رب حديث فلان و فلان, و هنا يأتي الجواب في الاية التالية "ويل لكل أفاك أثيم! يسمع ءايت الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم" وواضح انه "كان لم يسمعها" لان افكار اخرى محشوة في رأسه تمنعه من فهم كتاب الله و حديثه.

و اما الاختلاف في نفس فهم القرءان و بسبب معطياته الذاتيه فانه من اختلاف الالوان و الثمار والالسنه و المشارب التي تسقى بماء واحد ، و هذه قد اقرها الحق تعالى بنفسه في القرءان. فيوجد فرق بين من يكفر من لا يصلي مثله بتفاصيل غير قرءانيه- مثلا- و يستحل دمه و مقاطعته و اخراجه من معنى الايمان بالله و رسوله و كتابه، و بين من يختلف في معنى مثل من الامثال القرءانيه كعصا موسى، او شروط تطبيق القصاص.

من تناقضات هذا الدين العجيبة, و الأديان الخرافية عامة, أنها تقدس العقل و تحتقره في ان واحد, فانها تقول عن الذي لا يتبع عقائدهم و أحكامهم أنه من الذين "لا يعقلون و لا يبصرون و لا يسمعون و لا يفهمون و لا يبحثون و لا يتفكرون" , و في نفس الوقت اذا فكر أحد و نقد عقائدهم و أحكامهم فانهم يزجرونه بحجة أن "العقل البشري قاصر محدود لا يحق له أن ينقد الدين بل يقبله كما هو و بحسب مدلولاته اللغوية فقط". فالعقل مبارك اذا أذعن لهم و ملعون اذا أخرج رأسه من التراب لينظر في حقيقة أفكارهم. و هذا ما يقال في نقد هذه الأحاديث أيضا. يقال أن عقولنا قاصرة عن ادراك كل معاني الوحي (على فرض أنها وحي مقدس) و لذلك يجب أن نسلم على عمى بكل ما تأتي به هذه الأحاديث, و اذا عارض الحديث امر واقعي أو علمي او قرءاني فان المشكلة ليست في الحديث و لكن في عقولنا. حسنا, فحديث مثل حديث البشر الذين تحولوا الى فئران هذا, أي صعوبة في ادراك أنه زائف؟ أحاديث الطقوس التي ما أنزل الله بها من سلطان أي صعوبة في ادراك أنها معارضة للقرءان؟ حديث أن سليمان ضاجع مئة امرأة في ليلة واحدة هل يحتاج الى عبقرية لادراك سخافته؟ و كثير كثير غير ذلك و في امور اهم بكثير جدا من الفئران و هوس المضاجعه عند نبي رفيع كسليمان(سليمانهم هم بالطبع). ان العقل هو الذي جاء القرءان

ليخاطبه. كتاب الله نزل من أجل القلب السليم الفقيه العليم. من عظمة العقل أن الله أنزل كتابه له و لم يأمره بأن يصعد من أجل كتابه! ألا تبصرون سر هذا العمل. اذا كان الملك يرسل الكنز الى رجل و لا يأمر هذا الرجل بأن يأتي الى قصره ليأخذ الكنز, أليس هذا الرجل عظيم عند هذا الملك؟ و كذلك, الله كتب كتابا تجلى فيه بذاته المقدسة العليمة, و أنزل هذا الكتاب لقوم يعلمون و يتفكرون و يعقلون, أرسله ليدرسه أولو الألباب. دين السنة في الغرب, و دين القرءان في الشرق. "و أشرقت الأرض بنور ربها و وضع الكتاب" .

أسمح لي بأن أعالج المسألة من زاوية أخرى: أني أضع تحديا أمام كل أهل المرويات الذين يشركونها مع كتاب الله و يدعون أن الله احال اليها و أنه تعالى اتخذ "ولدا" و العياذ بالله, و هذا هو التحدي: أتونا بفكرة واحدة من غير كتاب الله, من مروياتكم هذه, و تكون هذه الفكرة غير مستوحاة من كتاب الله و تكون أفضل و أقوم مما هو في كتاب الله او تكون غير موجودة فيه بذاتها أصلا. يعني, أتونا بفكرة ليست في الكتاب و هي خير مما في الكتاب بشرط أن لا تستشهدوا عليها بالكتاب, بل تكون "مستقلة" عنه تماما. فان لم تفعلوا و لن تفعلوا, فاعلموا ان الكتاب العزيز هو الوحيد المستقل الكامل المفصل تفصيلا. و ان استطعتم فنحن من اتباعكم من بعد اليوم. "و لكل نبأ مستقر, و سوف تعلمون".

(الأركان من القرءان)

(تمهيد)

"أفغير الله أبتغي حكما و هو الذي أنزل اليكم الكتب مفصلا"

من أجمل أوقاتي هو عندما أرى ماذا يقول القرءان في مسألة ما. و من أشد اوقاتي غضبا عندما أرى الأحزاب (أو الفرق الاسلامية كما يحبون أن يتسموا) و قد زعموا على مدى قرون أن حكم الله في مسألة ما هو كذا فاذا بنا بعد الرجوع الى كتاب الله نرى الأمر غير ما زعموا. و نحن نعلم لماذا ابعدوا الناس عن الكتاب, لأنهم يعلمون أن الكتاب لا يقف في صفهم, فمن الأحسن أن يقتلوه أو يسجنوه أو يخرجوه من سلطانه في حياة المؤمنين به. الأحزاب و القرءان مثل الحوت الذي بلع يونس, كتبهم و عقائدهم و هاماناتهم قد أحاطوا القرءان بكمية هائلة من اللغو حتى ان الفرد المؤمن أصبح لا يعرف من القرءان الا التغني أو ترديده في مجالس العزاء أو حفظه عن ظهر قلب, و اذا ارتقى قليلا و كان من المفكرين و الدعاة المتحريين نسبيا من سلطان المؤسسة الهامانية فانه يستعمل القرءان متى أعجبه و يترك القرءان متى خالف معتقدات مذهبه. و الى الان لم نرى أحدا يأخذ بكتاب الله وحده في "كل شيء" من البداية الى النهاية. أي أن يصوغوا منهجا لدراسته و يصوغوا اجتهادهم على أساس ما في الكتاب فقط. هذا لم يحصل منذ وجد القرءان على الأرض الى يومنا هذا. لا بد و أن يصدر معتقد سخيف أو حكم طغياني أو فكرة قرءانية مأخوذة على نهج "ويل للمصلين" . فلا أمل في معرفة شيء حقيقي من القرءان أو دراسة نقدية فعلية له عند هؤلاء الأحزاب. و تسمية الأحزاب هي تسمية مأخوذة من الكتاب, و بالنسبة للكتاب فان كل من يأخذ ببعض الكتاب فقط و ينكر بعضه الاخر فانه من الاحزاب, و كل من يضيف كتبا جديدة يدعي أنها تزيد على ما في الكتاب و ينسبها الى الله فهو من الأحزاب. و ليس هنا محل تفصيل هذا الأمر فقد استقصيناه في كتب اخرى.

و الان أمامنا مسألة من أهم المسائل على الاطلاق, مسألة يهتم بها ليس المسلم فقط بل و غير المسلم أيضا. الكل يتساءل عن أركان هذا الدين. و ما أكثر الحروب التي وقعت و لا تزال تقع بسبب اختلافنا في تحديد ماهي أركان الدين. اذ الخارج على ركن من هذه الأركان يعتبر خارج عن الدين, و من ثم يعامله الناس معاملة شائنة أو يقتلوه جسمانيا في بعض الأحيان. و حتى الغرب يريد أن يعرف ما هي أركان دين الاسلام (و أتحفظ على كلمة "الاسلام" لأنها مرفوضة قرءانيا الى حد ما كما نرى) . و بدأنا نرى الاسلاميين (الأحزاب) يعرّفون أركان دين الله ليس بحسب ما يجدونه في كتاب الله, و لكن بحسب ما يجدونه في كتب أحاديثهم و مروياتهم و كلام فقهائهم, و لا يرجعون الى كتاب الله الا قليلا, و هذا القليل لا يسمن و لا يغني من جوع بحسب السياق الذي يضعونه فيه, و انما يرجعون الى الكتاب لأنهم يريدون أن يجعلوه شاهدا على صحة ادعاءات مذاهبهم. فكتاب الله تابع و ليس امام. شاهد (في أحسن الأحوال) و ليس معلم. و لذلك نريد في هذا الكتاب أن نبحث في مسألة الأركان هذه من كتاب الله فقط و نرى الى أين يذهب بنا البحث.

و قبل أن نبدأ البحث أريد أن أجيب عن تساؤل اني على يقين أنه يدور في خلد السامع او القارئ: أنت رجل ملحد, و مقالاتك تظهر أنك لا تؤمن بالله و لا بالرسل و ترى أنهم طغاة يجب أن نقف في وجههم مثل ما فعل ابليس, فبأي حق تأتي الان و تزعم أنك من اهل القرءان المخلصين الذين يرجعون الى كتاب الله فقط في معرفة شؤونهم؟ و هو سؤال فيه وجاهة, و لكن مع ذلك فيه عدم فهم حقيقي لمقالاتي و لا لطريقة عرضي لأفكاري. اني لست ملحدا, و لا قرءانيا, و لا ابليسيا. اني رجل يبحث عن العلم فقط و لا يبالي على من يدوس في أثناء سيره لطلب العلم. مسألة "من هو الله" مسألة كبيرة جدا و لها فروع كثيرة. نعم أني أرفض بعض تعريفات الله- كما بينت في مقالات سابقة- لأنها تتعارض مع أمور معينة أرى أنها من أساسيات الحياة الطيبة. و نعم اني أرفض وجود "رسل" محتكرين للعلم و رعاة غنم يجب أن يتحول الناس الى بهائم يسلمون لهم تسليما أعمى. و نعم اني أقدّر ما فعله ابليس و لكن هذا لأني نظرت الى القصة من زاوية أن الاله طاغي و ادم منافق, و لكن يوجد زاوية أخرى يمكن النظر منها الى نفس القصة تظهر عكس ذلك تماما أي أن الله هو الحق و أن ادم هو الأحسن و أن ابليس هو الملعون الذي يجب أن نصلحه. فما فعلته في تلك الدراسة (محامي ابليس) هو لأسباب كثيرة من أهمها اظهار كيفية كون القرءان حقل ضخم للدراسة , و كيف أن كلمات القرءان ليست الا "وحيا" اي توحي بالمعاني المختلفة و التي تسمح لعقولنا بأن تتفجر بالأفكار و الجدل و التوسع المعرفي. و هذا لأن الناس عامة و على مدى قرون قد أهملوا هذا النوع الأساسي من النظر في القرءان. ان كل المقالات التي ذكرتها و التي فيها نقد شديد للقرءان انما هي نقد لنظرة الأحزاب للقرءان و ليست للقرءان بحد ذاته. القرءان ذاته يحتمل كل هذه النظرات- على احد الاعتبارات. نحن لا ننقد الكتاب و لكن ننقد القارىء. و لكون الناس اعتادوا أن يكون القارئ "مرآة صافية" تعكس حقيقة الكتاب بالبداهة, فاننا اضطررنا الى أن نبين زيف هذه الدعوى, و التي هي من مخلفات العصور القديمة التي كانت تعتقد أن القلب مراة الحقيقة و ليس كما نعرف اليوم أي ان القلب يخلق الحقيقة أو بمعنى أخر أن القلب وعاء الحقيقة, فلون الماء و شكله (الحقيقة) كلون الوعاء و شكله(القلب). اني أعترف بأن كتاباتي ليست سهلة دوما, بالرغم من أن الشاب العادي يستطيع أن يقرأ أي مقال و يفهم ما فيه. و لكن القراءة العميقة التي تتجاوز السطور لا يملك الكل أن يفعلها لأسباب ليس هنا محل ذكرها. و بسبب كونهم لا يتجاوزون السطور تنشأ أمثال هذه الدعاوي التي تقول بأني ملحد ابليسي و ما شابه (و ان ابليس نفسه لم يكن "ملحدا" بالمناسبة فتأمل!) انى ارى القرءان كتاب وحي يوحي. يوحي لنا بالأفكار و علينا نحن أن نناقش هذه الأفكار و نرى قوتها من ضعفها. و هذا كما قلت للمرة الألف لا يعني أن القرءان ضعيف أو قوي, و لكن يعني أن ما استوحيناه نحن من القرءان هو الضعيف أو القوي. القرءان كلام عربي مكتوب في الصحف. و ليس الواقع هو الذي يجب أن يطابق الكتاب, الكتاب هو الذي يجب أن يطابق الواقع. "سنريهم ءايتنا في الافاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق".

و من ناحية أخرى, فانه يجب أن نعطي كل كتاب, أي كتاب, الفرصة في أن نراه كما يريدنا هو أن نراه. يعني اذا أراد كتاب ما أن نراه على أنه كتاب رموز, فعلينا أن نقرأه على أنه كتاب رموز. و لكن اذا رفضنا هذه الرؤية, و اعتبرناه كتاب مباشر حرفي جسماني ثم بدأنا نرى أنه كتاب سخيف باطل فهذا الخطأ لا يتحمل وزره الكتاب و انما يتحمل وزره هذا الذي رفض أن يرى الكتاب كما أراد الكتاب أن يرى. فمثلا مبسطا, كتاب مثل "كليلة و دمنة" الذي يصور الحيوانات على أنها تكلم بعضها البعض, هذا الكتاب يريدنا أن نراه كتاب رموز و قصص لا عبرة بواقعها الجسماني و انما العبرة بالأفكار العلمية و الاخلاقية المرموز لها بالحيوانات و غير ذلك. فهل من العدل أن نأتي و نقول: انظروا الى هذا الكتاب الخرافي الذي يصور الحيوانات تتكلم مثل البشر! و كذلك مثلا اذا جاء كتاب و قال: اني أفصل أفكاري بنفسي و لا أحتاج الى غيري, فاذا استغلق عليكم معنى كلمة في موضع فارجعوا الى كلمات اخرى في الكتاب فانها تفصله. مثل ما يفعل القرءان فعلا. فعندما يقول القرءان ذلك, ثم نرى كلمة "أقيموا الصلوة" و نريد أن نعرف ما هي "الصلوة" بالنسبة للقرءان, فان أبسط العدل هو أن ننظر في الايات الاخرى التي تفصل هذا الأمر. و لكن أن نذهب الى كتب أخرى فيها معاني لا علاقة للقرءان بها و ليست منه او حتى لو كانت من الممكن ات يتحملها القرءان, ثم نزعم أن تلك تفصيل للقرءان المجمل, فهذا هو الظلم بعينه, ظلم القرءان و حقه في شرح نفسه. هذا النوع من الظلم هو الذي اجتمع الأحزاب على القيام به, ويكاد يكون من الأمور القليلة جدا التي يتفقون عليها "باجماع"! فانهم كمثل اخوة يوسف الذين أجمعوا على أن يجعلوه في غيبت الجب, حتى يخلو لهم دين الله ليفعلوا باسمه ما يشاؤون. و لكن الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون.

و حتى على فرض أني ملحد و ابليسي و معادي للرسل, فان هذا لا يمنعني من حق دراسة القرءان, القرءان ميراث الناس أجمعين. ففي أقل تقدير القرءان كتاب مثله مثل كل الكتب, لا يحق لأحد احتكارها لنفسه. العلم الانساني ميراث كل الناس. فكما أنه يجوز للمسلمين أن يدرسوا كتب الفلاسفة و الكفار, فانه يجوز للفلاسفة والكفار أن يدرسوا كتب المسلمين, و للأسف فانهم يدرسون القرءان فعلا خير من اكثر المسلمين في بعض الاحيان. ان المعيار الذي يحكم به على دراسة ليس اعتقاد الدارس, و لكن برهان أفكاره. و حتى الله يقر ذلك "هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين" و لم يقل يوما "هاتوا اعتقاداتكم حتى نسمع لكم!" بل ان من الصفات السيئة التي تنسب الى اليهود هي أنهم يقولون "لا تسمعوا الا لمن تبع دينكم" أليس من العجيب فعلا أن الكثير من "المسلمين" يرددون نفس هذه الكلمة! و كذلك رجال الجاهلية الابائيين يحكمون على قوة الفكرة ليس عن طريق برهانها و نفعها للناس, ولكن كما قالوا "ما سمعنا بهذا في الملة الاخرة ان هذا الا اختلاق" فلاحظ العلاقة السببية بين "ما سمعنا" و "هذا اختلاق", و من الأعجب أن "المسلمين" يرددون هذه الكلمة عينها! و من أمثال هذه الملاحظات و غيرها أصبح من المستيقن عندي أن اطلاق لفظة المسلمين القرءانيين على هؤلاء غير صحيح بالمرة من الناحية القرانية. لكي تنتفع بالمصباح الكهربائي هل يجب أن تكون على نفس عقيدة توماس اديسون الذي اخترع و اكتشف المصباح الكهربائي؟

بالطبع لا. و كذلك لكي تنتفع بالقرءان لا تحتاج الى ان تنتمي الى عقائد المسلمين, على فرض أنهم فعلا "مسلمين" بالمعنى القرءاني للكلمة. و الادق ان نسميهم "اسلاميين".

فحقي في دراسة الكتاب و نشر اجتهاداتي حوله هو أمر ثابت سواء صح اعتراض السائل أم لم يصح. و حيث ان عقائدي هي أمر خاص بي و لست مضطرا الى أن أنشرها بكاملها ان شئت, و انما للسائل أن يطالب بتفصيل الأفكار التي أعرضها, و ليس له غير ذلك. و أما أسلوب محاكم التفتيش فغير مقبول بالمرة. و قارنوا ما يعرض عليكم هنا بغيره ثم انظر أيهما أكثر احتراما و تقديرا لذاتك و عقلك و رغبة في الارتقاء بك أو توسيع أفق نظرك. فلنكتفي بهذا القدر من المحاكمة العقدية و لندخل في صلب دراسة مسألة الأركان من القرءان. فتعالوا ننظر...

(تحليل فكرة "الأركان")

لقد ذكرنا لماذا نريد ان نعرف ماذا يقول القرءان في مسألة الأركان, و لكننا افترضنا مسبقا بأن القرءان يقر بوجود فكرة الأركان و افتراضنا هذا قد اطلقناه بناء على ما نسمعه حولنا من وجود أركان للدين. و حيث ان أي دراسة

يجب أن لا تضع افتراضا الا بعد تحليله و نقده و البرهنة عليه, اذ الدراسة مثل البناء يجب أن نتأكد من قوة كل قاعدة أو حجرة فيه حتى نسكن في بناء قوي راسخ متماسك. والفرضية المسلم بها على عمى هي مطعن في الدراسة-خصوصا ان لم يتم اثباتها بدرجه كافيه منطقيا الى حد ما بعد الفراغ من الدراسه بناءا على الفرضيه المسبقه المسلم بها. فما معنى "ركن" قرءانيا (و لنستغن عن ذكر "قرءانيا" دائما لأن الدراسة كلها قرءانية, ولنستغن عن ذكر "هذا ما نراه في المسألة او من وجهة نظري" لأن الدراسة هي كلها وجهة نظر الدارس) ؟ و هل يقر الله بوجود شيء اسمه اركان و غير أركان في دينه؟

أما عن معنى "ركن" فقد ذكرت هذه الكلمة بمختلف تصريفاتها 4 مرات: "و لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا" و "و لا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار" و "قال (لوط) لو أن لي بكم قوة او ءاوي الى ركن شديد" و "فتولى بركنه (فرعون) و قال ساحر أو مجنون". فالركن هو الشي الذي يستند عليه. فعندما نقول "أركان الدين" فهذا يعني الأشياء التي يستند عليها الدين. و بدون هذه الأشياء يسقط الدين. فيوجد أركان "الدين" و يوجد أركان "التدين" و الفرق بينهما كبير. فالدين كمجموعة أفكار تدعي صدقها في الواقع له أركان بمعني الأدلة و البراهين التي تقوم عليها هذه الأفكار. فمثلا ان كان الدين يرى أن "وجود الله" حق, فان لهذه الدعوى أركان تقوم عليها, مثلا أن العالم مخلوق فلابد أن يكون له خالق. و ظاهر أن الناس عندما تتحدث عن "أركان الدين" فانها لا تقصد هذا المعنى, بالرغم من أنه المعنى الذي تدل عليه التسمية بذاتها أي "أركان الدين". فتسميتهم غير فصيحة و لا دقيقة. و لكن "أركان التدين" نعم هنا يكون المعنى أن الدين وضع امور معينة يجب أن تتوفر في الانسان حتى تصح نسبته الى هذا الدين. مثل شروط الانتماء الى حزب معين او كسب عضوية في نادي معين.

فهل وضع القرءان مثل هذه الأركان للتدين به و لصحة الانتماء اليه؟ ان هذا يقتضي أن القرءان يفرق بين الاركان الضروية و غير ذلك. و لكن الكتاب يقول "أتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض", فالكتاب يرى أن كل أفكاره وحدة واحدة, لا يمكن التفريق بينها. فالارشاد القائل "كلوا و اشربوا و لا تسرفوا" يساوي في قوته و فرضيته و أهميته الارشاد القائل "فاعلم انه لا اله الا الله" او "أقيموا الصلوة و اتوا الزكوة". و هذا يعني أن فكرة الاركان- من هذه الحيثية- مرفوضة قرءانيا. المتدين الذي يؤمن ان هذا الكتاب كله حق لا يمكن -حسب رأي القرءان- ان يأخذ بعض الكتاب و يكفر ببعضه الاخر أو لا يعمل به. و الكتاب كله لم يذكر و لا مرة واحدة وجود أركان معينة للمتدين, بل ان الكلمة ذاتها لم تذكر و لا مرة. و أحسب أن القارئ ينتمي على الأغلب الى احدى الفرق الاسلامية, و التي تحوي أركانا معينة يقال أنها أركان الاسلام. فحتى تظهر الأمور بطريقة أوضح و أسهل فلنجعل الدراسة فيها شيء من المقارنة, و لنأخذ النسخة السنية عن اركان الاسلام الخمسة و الايمان الستة و الاحسان الواحد بحسب روايتهم المشهورة المقبولة عندهم.

فالتساؤل الان هو هذا: ما هي الصفات التي يعتبرها القرءان أساسية في الانسان حتى تصح نسبة هذا الانسان اليه؟ اذا وافقنا على صيغة هذا التساؤل, فعندها نستطيع أن نجعل هذه "الصفات" هي "اركان" التدين. و هذا ما نستطيع أن نقوم به. لان القرءان يشدد كثيرا على بعض الصفات و التي لا يمكن ان يقبل انسانا في بيته الا اذا كانت فيه هذه الصفات, و أي مخالفة لواحدة من هذه الصفات تجعل الانسان خارج بيت القرءان فورا حتى يرجع عنها و يتوب.

و بعد طول دراسة لهذه المسألة وجدت سبعة صفات , لا يمكن بحال من الأحوال أن يعتبر الانسان قرءانيا الا اذا توفرت فيه. و كما يقال فانها "فرض عين" فيجب أن يأخذ بها كل فرد. و لم يعفي القرءان أحدا الا اذا كان مضطرا اضطرار شديدا لا حيلة له على الاطلاق و عندها يعمل حكم "لا يكلف الله نفسا الا وسعها" .

و سنعقد مقارنة بين هذه الأركان السبعة و بين النسخة السنية و الشيعية للأركان لاحقا ان شاء الله.

(الركن الأول: حب العلم)

ان كان لهذا التدين ركن واحد فقط فهذا الركن لن يكون الا "حب العلم" .

نلاحظ أن كلمة "علم" بكل تصريفاتها, قد ذكرت أكثر من 800 مرة. بقية مفردات العلم مثل:البحث, الجدل, العقل, النظر, البصر, التفكير, البرهان, البينات, السفر, الجهاد, الصبر, التدبر, القراءة, الكتابة, الكتب, العزلة, الصدق و عدم النفاق, النشر و عدم الكتم, الدعوة, المناظرة, اذا جمعنا كم مرة ذكر كل ذلك و غيره مما يرتبط مباشرة بحب العلم فان عدد مرات ذكرهم قد يجاوز 5000 مرة. و هذا في كتاب مكون من 114 سورة فقط. يعني بمعدل 40 مرة في السورة. أو معدل 8 مرات في الصفحة. فكتاب يذكر العلم و أعضاءه 5000 مرة لا بد أن يكون حب العلم أهم أركانه خصوصا انه يرتب بقيه الامور عليه و يجعله الاساس.

قد يقال: ان اسم الله ذكر أكثر من ذلك, فلماذا لا يكون "البحث عن الله" هو أهم أركانه؟ الجواب كامن في السؤال نفسه: لأن "البحث" لا يكون الا من شخص يحب "العلم". و حتى فكرة الله قائمة على العلم "فاعلم أنه لا اله الا الله". و اثبات الله قائم على مفردات علمية مثل العقل و الشك و الجدل و البرهان و غير ذلك.

و كل ما يسمى بالتكاليف الشرعية انما هو قائم على وجود "العقل" في الانسان المكلف, و كما قيل :اذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب. و هل قبول الدين حقا الا نوع من العلم.

و أقول ان "حب العلم" هو أول و أهم الاركان على الاطلاق و ليس "طلب العلم" لأن الحب أمر نفسي جوهري, و الطلب أمر فرعي. الأمر يبدأ من الباطن الى الظاهر. و كذلك, لأن الذي يحب العلم قد لا يطلبه و لكن اذا جاءه فانه سيقبله. و هذا مهم جدا. اذ كم من طالب للعلم و هو جاهل متعصب لا يقبل الا ما يعتقده مسبقا أو يرغب فيه بسبب عقدة نفسية لاشعورية او مصلحة ما. و هل ترى رؤوس التعصب و التحزب الا من طلاب العلم و كبار المفكرين. و قد يحول حائل بين الانسان و طلب العلم, و لكن حب العلم لا حائل حقيقي بين الانسان وبينه. و هو أول صفة مهمة لا يمكن الاستغناء عنها بحال في القرءاني.

و كذلك العلم هو السلاح الأمضى في وجه كل طغيان نفسي و افاقي. و هل يستطيع الجاهل أن يتحرر من عقده النفسية, و هل وجدنا راحة في العالم الطبيعي الافاقي الا بالعلم. و لذلك نرى لكل فكرة قرءانية قرين من العلم, مثل "أفلا يعقلون" أو "لأولي الالباب" أو "فسوف يعلمون" او "ليتفكروا ما بصاحبهم من جنة" . و لما أراد الله أن يصف حكمه عرفه عن طريق ضده الذي هو الجاهلية في قول "أفحكم الجاهلية يبغون و من أحسن من الله حكما لقوم يوقنون". فالله هو حكم العلم. و كذلك فيما اذا أراد أن ينقض فكرة غيره فانه يقول "هاتوا برهانكم ان كنتم

صادقين" و بالتالي فأفكاره هو من باب أولى يجب أن يقال لها "هاتوا برهانكم" فالله لا يقول ما لا يفعل. فان كان يطالب الاخرين بالبرهان و يشكك فيها بل ينقضها فهذا يعني أنه هونفسه لا يجعل أفكاره في حصانة الامتياز حيث لا يجوز لأحد أن يشكك فيها. و لذلك من أسمائه "العليم" و "الحق". و لذلك فانه لا يلوم المشرك أو الكافر الا في حالة واحدة فقط و هي التي ذكرها في نهاية سورة المؤمنون "و من يدع مع الله الها اخر لا برهان له به" فاللوم لانهم اتبعوا على عمى. و لكن اذا أشرك الانسان بعلم فعلي فلا بأس عليه عند ربه, اذا. و كذلك لما وصف النبي و الذين معه قال "قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة" فالدعوة على بصيرة و الاتباع على بصيرة. و في الحقيقة فان الاتباع ان كان على بصيرة فهو ليس "اتباع" بالمعنى المشهور. و انما هو من قبيل توافق الافكار و السلوك الاختياري.

و يكفي ان القرءان يحوي تعليما يقول "و لا تقف ما ليس لك به علم" و هذا بحد ذاته كافي لجعل حب العلم هو اول و اهم اركان الانتساب الى القرءان, حتى و لو كانت نتيجة هذا العلم هي مخالفة القرءان. تابع العلم مع الله حتى لو كان عدو الله. و الجاهل عدو الله و لو كان مع الله.

فاذن هذا هو الركن الأول و الأكبر لهذا التدين "حب العلم" , و لاحظ أن الانسان الذي يحب العلم و يقبله و يرفض القرءان بسبب العلم فان القرءان يعتبره من أهله. أي اذا كان له برهان فعلي. فأينما وجد العلم, فثم دين الله, و لو خالف دين الله المذكور في الكتاب. و تزداد قوة هذا الركن اذا تصورنا وجود ضده في الانسان و هو "حب الجهل و الحياة في الظلمة" و مثل هذا لا علاقة له بالقرءان كما هو ظاهر.

(الركن الثاني: دراسة القرءان)

كان من الأدق أن نعرّف الركن الأول ليس على أنه من أركان القرءاني و لكن على أنه "ركن الانسانية". اذ سواء وجد هذا القرءان ام لم يوجد فان حب العلم الحقيقي هو ركن الانسانية. و لذلك ترى أن القرءان يوجه نفسه على أنه رسالة "لقوم يعلمون" و "لقوم يعقلون" و "لقوم يتفكرون" و "لأولي الاباب". فالقرءان جاء للناس المحبين للعلم. و

ليس له علاقة بغيرهم من الأنعام و الوحوش "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعم بل هم أضل سبيلا". فالعبرة ليست للانسانية الظاهرة في هيئة الجسم, و لكن العبرة بالهيئة النفسية الظاهرة في الرغبة في العلم.

فان كان "حب العلم" هو ركن الانسانية, فاذا كان للقرءان ركن واحد فقط فهذا الركن ليس الا "دراسة القرءان". و هو قبل كل شيء, اذ منه ينبع كل شيء. فهو الأصل و الباقي فروع. و لذلك كان مقدما حتى على التوحيد, كما في سورة الجن "انا سمعنا قرءانا عجبا يهدي الى الرشد فئامنا به و لن نشرك بربنا أحدا" فالتوحيد (أيا كان المعنى) هو من ثمار دراسة القرءان.

و لعل سائل يقول: و لكن هذه الاية لم تذكر شيء عن "دراسة" القرءان؟ أقول: وصف القرءان بأنه "عجبا" و "يهدي الى الرشد" لا يكون الا من ثمار دراسته, بل ليس فقط دراسته و لكن دراسته دراسة عميقة جدا جدا. التعجب يعني رؤية العظمة و الغرابة, و هذه ليست في ظاهر نص القرءان أو من نتائج سماعه سماعا مجردا. ها هو نص القرءان بين أيدي كل العرب و الناس, فهل وجدتهم كلهم يتعجبون منه و يعظمونه, بل ان أكثر الاسلاميين (من عامتهم) قد يعتبرون أنفسهم من الأولياء اذا فتحوا الكتاب مرة في السنة, و غالبا لأسباب لا علاقة لها بالدراسة أصلا, بل لكسب الحسنات او لمغفرة الذنوب (بالمعنى الطفولي للكلمة). و كذلك قولهم "يهدي الى الرشد" فان هذا يقتضي أن لهم تصورا مسبقا عن ماهية "الرشد", اذ أنت لا تستطيع أن تعرف أن هذا كتاب عن "الطب" الا اذا كان لك تصورا عاما عن ماهية الطب, أليس كذلك. فهذا يعني أن الذي سينتفع بالقرءان هو باحث عن الرشد و له تصور اجمالي عنه, فيأتي القرءان و يأتيه برؤيته التفصيلية عن نظريته في الرشد. (و ليتأمل هذا جيدا الذين يزعمون ان القرءان مجمل) و الهداية الى الرشد لا تكون الا من ثمار الدراسة كما هو ظاهر. فالاية تقرر ببيان فصيح عليم أن أول التدين هو دراسة عميقة ايجابية نقدية جدا للقرءان.

و اذا نظرنا الى أسوأ الصفات التي نسبت الى النبي سنرى انها متعلقة بالغفلة عن القرءان, كما في قوله "نحن نقص عليك احسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرءان و ان كنت من قبله لمن الغافلين" , و من اسوأ الصفات كذلك هم الذين يجعلون كتاب الله وراء ظهورهم, او يهجروه, او لا يتلونه حق تلاوته. و عندما يذكر النبي ماذا أمره ربه يقول "و أن أتلو القرءان". و عندما يرغب الله في تثبيت النبي فانه يرشده الى " اتل ما اوحي اليك من كتاب ربك". و عندما يحدد الله كيف نعرف المؤمنين و نلزم صحبتهم يجعل مجالس ذكر و تدارس القرءان هي اية المؤمنين "و اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغدوة و العشي يريدون وجهه" .

و نهي الله عن اتخاذ الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله, و نهي الانسان عن اتباع السادة و الكبراء,و نهي الانسان عن اتخاذ وسائط و اصنام بينه و بين الله, فان هذا يلزم منه أن كل مؤمن يجب أن تكون علاقته بالقرءان مباشرة و أن يكون مستقلا في دراسته و مشاورا للساعين للعلم من اخوانه. فأي مؤمن يجعل بينه و بين القرءان وسيطا دائما مطلقا فقد خرج من بيت الله. المؤمن ليس الذي يحرك لسانه و لا الذي يزعم و يدعي الدعاوي و يجعل الرسوم على وجهه و ملابسه, انما هو الطالب للعلم المكنون في القرءان باستقلال عقلي روحاني, و تشاور مع المفكرين الاخرين.

و قد يعترض علي احد باية "و يسلموا تسليما" .الجواب: ان هذه الاية من اكثر الايات التي تعرضت لسوء الفهم في احسن الظنون, وسوء التحريف ان حكمنا بالواقع. ان القرءان يؤخذ كلا واحدا. و ما يقومون به هو على اسلوب "ويل للمصلين" الذي أدنّاه و يدينوه هم أيضا بأقوالهم. يوجد ايات كالتي ذكرناها من قبل تؤكد وجوب الاتباع على علم و بصيرة و استقلال نفسي. و يوجد ايات تقول بضرورة التسليم التام. فهل هذا تعارض؟ لا. هل هذا يقتضي منا أن نأخذ ببعض و نكفر ببعض؟ أيضا لا. بل ان هذه الازدواجية تحوي أكبر أدب من أداب العلم على مستوى العالم كله. وهذا هو الحل: عليك أن تكون مستقلا في تفكيرك و قبولك, و لكن اذا عرض عليك أحدهم فكرة حق أو أحسن من فكرتك فانه عليك أن تسلم بها و تأخذ بها و ان عارضت كبرياءك النفسي و مصالحك الدنيوية او اي معرض اخر للعلم الذي ثبت لك احقيته. و هذا مثل ما حصل مع ال فرعون لما "جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوا" فالاستقلال العقلي ضروري كما توضح بعض الايات, و التسليم بالحقيقة ضروري مهما عارض الهوى النفسي كما توضح ايات اخرى. فلا تعارض على الطلاق, بل هو مقتضى أرقى الاداب العلمية. و هل نواجه التعاسة في هذه الحياة و الفرقة الا بسبب أن بعضنا لا يريد أن يسلم بمقتضى العلم بسبب أهوائه النفسية و مزاجه الشخصي و مصالح الحزب في كثير من الاحيان.

ان الرسل يأتون بالبينات, فان كانت بينات الطرف الاخر أقوى, فأي حجة تكون للرسل اذن؟! و حتى النبي المجدد لما يأتي ليصلح في قومه فانه يقول "أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه أبائكم" و تأمل جيدا في كلمة "أهدى" هذا يعني أنهم قد يكونون فعلا على هدى و لكن الذي عندي هو "أهدى" و الحق الذي ينفع الناس يقتضي أن نتبع الأهدى و الأقوى و الأصدق. و لقد حرف الاحزاب ايات التسليم و قطعوها من سياقها الكامل في الكتاب حتى يخلقوا ما نراه اليوم فعلا, أي تسليم "أعمى" و خوف من النقد و تبعية بهائمية و تواكل و كره للعلم و الفكر الحر. ان قوة القرءان هي في أن فهم حرف واحد منه قد يغير كل حياتك, و خطورته تكمن في أن تحريف حرف واحد منه قد يدمر كل حياتك و حياة غيرك. كمثل التفاعل التسلسلي في القنبلة الذرية.

بدون دراسة القرءان, ما الفرق بين المؤمن و غير المؤمن؟! ليس للدين معنى أصلا بدون القرءان. ان العلاقة الحقيقية بين الانسان و الله هي في دراسة كتاب الله, و كل ما عدى ذلك أوهام و تخييلات نفسية و تكهنات-في الغالب الاعم. بدون القرءان لا يوجد الله. الله و كتابه واحد. عباد الله هم الذين عبّدوا قلوبهم أي جعلوها مستعدة لتقبل علم كتاب الله. الرسل هم الذي ينشرون علم كتاب الله. النبي هو الذي يعلم ما في كتاب الله. و المخلص هو الذي يأخذ بكتاب الله وحده لفهمه و لا يفعل مثل ما يفعل الأحزاب و أحاديثهم و قصصهم. ينسب الى مقام النبوة أنه أصدر تصريحا يقول "الفرق بين المؤمن و الكافر, الصلاة" و هذا صحيح ان كان معنى الصلاة هو "دراسة كتاب الله" و ان كان المعنى هو هز الرأس و تثنية الجسم و التمتمة و التغني فهذا لغو او تصريح ضعيف في احسن الاحوال.

لم يضرب التدين في شيء مثل ما ضرب في هذا الركن. لقد أوهموا اتباعهم بأن دراسة القرءان هي من "فروض الكفاية" أو أن "من قال برأيه في القرءان فأصاب فقد أخطأ"و غير ذلك من أسلحة استعملوها ليقتلوا النبي الكامن في قلب كل مؤمن. باعدوا بين الناس و بين دراسة كتاب ربهم وحده, فباعد الله بينهم و بين الجنة, و ألبسهم شيعا و أذاق بعضهم بأس بعض. ان الكتاب قد حصر صدق الشهادة بالوحدة و العدل الالهي في ثلاثة "شهد الله أنه لا اله الا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط" فان لم تكون الله و لا من الملائكة و لا من أولو العلم, فكيف تزعمون انكم موحدين؟ وان كنتم من أولي العلم فكيف سمحتم بأن يحال بينكم و بين الدراسة الحرة لكتاب الله؟ ألا تلاحظوا كيف أن "دراسة كتاب الله" ليست من أركان دين اهل السنة, و لا الشيعة و لا غيرهم؟ بل الأدهى من ذلك, ألا تلاحظوا كيف أن مجرد "تلاوة الكتاب" ليست من أركان اسلامهم و لا ايمانهم و لا احسانهم؟ هل تحسبون ان هذه مصادفة؟ لا والله,انها مكر مكروه في مدينة الله و عند الله مكرهم, و ان كان سبب مكرهم هو لتزول عقول المؤمنين فيحيلوهم الى بهائم من الأتباع, و ها هو مصداق هذا الوعد أمام أعينكم و و قد تكون أنت منهم و من حولك. ضربوا باب بيت الله و سدوه و وضعوا الأقفال على هذا الباب, ثم يتعجب الناس ما سر تخلفهم, أو غباءهم, أو خوفهم, او تفرقهم, أو تعاستهم. هؤلاء مشردين, لا مأوى لهم. لأنهم ءامنوا بالله و لكن لم يدخلوا بيته, و هل باب بيت الله الا دراسة كتابه. لقد حولوا الدين الى طقوس و عقائد و تخيلات. بدل أن يكون كما هو دراسة و تطور و ترقي و واقع.

الذي لا يدرس كتاب الله لا علاقة له بحقيقة الله. نعم , قد يتمتم بكلمات, و يهز رأسه بدعاوي العشق الالهي, و قد يفعل الكثير من السخافات, و لكن كل هذا لن يغني من حقيقة أنه منفصل عن الله, لأنه انفصل عن الكتاب, وبدون الكتاب لا يوجد اله. يوجد اصنام خلقناها داخل قلوبنا و نتصور أن هذا الصنم هو الله, فنذهب و نظل عليه

عاكفين, و نتمتم بكلمات, و نثني أجسامنا, و نهلوس و نتخيل أنفسنا أننا نراه فان لم نكن نراه فانه يرانا, و ما الى ذلك. أما دراسة الكتاب فلنتركها كما ترك عباد العجل أمر موسى. فاذن هذا هو الركن الثاني في دين الله. أي دراسة القرءان باستقلال و تعمق ,و تشاور ان شئت التوسع و اقتنعت

.

(الركن الثالث: القيام بالقسط و العدل)

يقول الله في اية من أكبر و أجمع أيات الكتاب " لقد أرسلنا رسلنا بالبينت و أنزلنا معهم الكتب و الميزان ليقوم الناس بالقسط" اللام في "ليقوم" هي لام التعليل, أي التي تظهر العلة من الارسال و الانزال, ما هي هذه العلة؟ "ليقوم الناس بالقسط". فيكف لا تكون العلة من وجود الدين كله موجودة في أركان التدين؟!

سبب وجود هذا الدين هو تحقيق القسط و العدل في المجتمع. و لولا أن حب العلم و دراسة القرءان هم الذين يخلقون الرغبة في تحقيق العدل الاجتماعي لما قدمتهم. و لكان الواجب ان يكون القيام بالقسط هو الركن الأول. و الحق أن الأركان كلها متصلة بحيث لا يمكن فصلها عن بعضها. فنستطيع ان نقول عن اي ركن منها انه هو الركن الاول و الاهم.

و اذا نظرنا في أركان دين السنة و الشيعة على سبيل المقارنة, فاننا لن نرى أي ذكر للقيام بالقسط. لا نرى الا طقوس, و اعتقادات لا تقدم و لا تؤخر في الواقع شيئا اذ حتى الطاغية "المسلم" يعتقد في الله و ملائكته, و حتى هذا الطاغية قد يغشى عليه ثلاث مرات في اليوم من خشية الله و قوة موعظة الوعاظ. و نرى كذلك عند البعض فكرة "الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر" و هذه ليست عين القيام بالقسط, اذ الأمر و النهي لا يكون الا لمن هم دوننا في المرتبة مثل الأب لابنه اذ هذا يملك أن يأمر و ينهى ابنه الصغير الذي لا يعرف شيئا عن الحياة بعد, و لكن العلاقة بين الراشدين هي علاقة دعوة, و تشاور. و لذلك قال في أول الاية –و هو الجزء الذي يغفلونه- "و لتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر". و كذلك نرى أفكار سياسية مثل "الولاية" و التي هي سبيل هؤلاء لجذب الناس الى صفهم. و غير ذلك من أمور لا علاقة لها بجوهر الحياة الاجتماعية و العمل الايجابي. أفكارهم هذه ردود فعل سلبية لظروف وقتهم. و اما القرءان فانه ايجابي فاعل متفاءل في قوله "ليقوم الناس بالقسط". و لاحظ أنه لم يقل "ليقوم بعض الناس" او "ليقوم من الناس" بل "ليقوم الناس" كل الناس. فهو فرض عين ان أردنا أن نستعير هذا التعبير السائد.

كيف يتجرأ الأحزاب أن يسموا الحكومة الظالمة الفاسدة حكومة "مسلمة و ولاة أمر" هو أمر من شدة غرابته لا أجد وسيلة للتعبير عنه. كم مرة يقول الله "و الظالمون هم الكافرون" ثم يأتي هامان ليستدرك على الله و يقول "لا, بل الظالمون هم المسلمون". و بالطبع فان الأنعام لا يملكون وقتها الا أن يقولوا "آمين". ان القيام بالطقوس هو واجب على كل فرد مسلم في دين الاحزاب, بالرغم من ان كتاب الله برئ من هذه الطقوس باعترافهم هم أنها لا توجد بتفصيلها في الكتاب, و لكن القيام بالقسط الذي ذكره الله مرات و مرات و جعله واجب على كل فرد عاقل فان هذا يحولونه الى فرض كفاية, هذا ان قاموا به أصلا على حقيقته.

بدل أن يكون سعي الناس هو الى اقامة القسط في مجتمعاتهم فان الأحزاب حولوا هذا السعي الى السعي الى تبرير كون الله عادلا في خلقه. ما شأنكم أنتم و عمل الله؟ في مثل هذه المواضع ينفع قول القراءن عن الله "لا يسأل عما يفعل و هم يسألون". سواء توصلتم الى ان الله-بالمعنى الغيبي الوهمي- عادلا أم ظالما فان هذا لن يغير من الحياة و سننها شيئا, و "لن تجد لسنت الله تبديلا و لن تجد لسنت الله تحويلا" فالمنطق يقضي مع القرءان, اي أن لا يكون همنا اظهار عدل الله في خلقه, و لكن تحقيق العدل بين الناس في أنظمتهم و مجتمعاتهم. عندما خشي الذين ائتمنهم الله على هذا العلم من ان ينقضوا الظلم الاجتماعي راحوا لينقضوا الظلم الالهي. ما أكثر الأحيان التي لا يملك الانسان أن يغير في الواقع فيلجأ الى الوهم. ان هذه ظاهرة نفسية معروفة على مستوى العالم, ومنها تنشأ ظواهر كالأحلام.

لقد تكررت قصة موسى و فرعون الظالم اكثر من سبعين مرة, و ما استطاع هامان بأن يقنع الناس بأن فرعون مسلما, و لكن و يا لفرحة فرعون فان فقهاء الأحزاب استطاعوا أن يجعلوه مسلما و أميرا للمؤمنين, ووليا لأمر المسلمين-رضي الله عنه وأرضاه. لا يهم ما هو جنس الحكومة و لا دينها و لا لونها و لا لسانها و لا شيء الا شيئ واحد فقط لا ثاني له: أن يقوم الناس بالقسط. فطالما أنهم يقومون بالقسط فهذا هو الدين. و اذا لم يقوموا بالقسط و فعلوا ألف ألف خير فلا قيمة لهم على الاطلاق و ملعون من بيت الله من عبدهم او رضي بهم او سلم لهم. أينما وجد القسط فهو حكم الله. و أينما وجد الظلم و الامتيازات و التحزب السيء فثم الجاهلية. و هذا أهم ركن للتدين من الناحية الاجتماعية و تحته الباقي.

(الركن الرابع: لا اكراه في الدين)

يقول الله "لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" ما المقصود بالدين هنا؟

الدين من ناحية أنه احكام اجتماعية يمس فيها عمل البعض حياة البعض الاخر فان هذا يلزم منه أن الساكنين في المجتمع متفقين على الاحكام السائدة فيه. و لكن هل هذا يعني أنه لا يملك أن يدعوا الى تغيير هذه الأحكام؟ لا, انه بالنسبة للقرءان يملك ذلك. الرسل يسكنون في مجتمع و يدعون الى خلاف ما فيه, و عندما قال لهم الحكام "لتعودن في ملتنا أو لنخرجنكم من قريتنا" رد الرسل "أولو كنا كارهين" فلو كان الحق في البقاء في المجتمع يعني أن يكون الانسان بهيمة عمياء فان المفترض كان أن يأمر الله الرسل بأن يخرجوا و لا يشعلوا نار الفتنة و الفرقة في المجتمع بسبب دعوتهم التي تهدم عقائد الناس و عاداتهم و أحكامهم و تسفه اباءهم. و هذا ما لم يحصل. فالله اذن يقر بحق الفرد في أن يسكن في مجتمع و مع ذلك يدعوا الى تغيير ما فيه. بشرط واحد و هو أن "يدعوا" الى تغيير ما فيه, و ليس بأن يقوم بأفعال تخالف ما فيه. فعليه أن يلزم القوانين من الناحية الجسمانية (و سنرى لاحقا ما هي هذه القوانين الأساسية التي يجب أن يتمسك بها الرسل دائما أينما كانوا) فالدعوة بالكلام لا حد لها على الاطلاق. و هذا ما يفعله الرسل. فان كان الله يلوم المجتمعات التي قيدت من حرية الكلام فان الله اذن يقف في صف هذه الحرية على الاطلاق مهما كانت الدعوة ولو كانت الى هدم العقائد و العادات و الاحكام السائدة. فالنوع الأول من الاكراه المرفوض هو : تقييد حرية الكلام بأي قيد على الاطلاق. فلا شيء يحد الكلام بمختلف صوره أبدا في مجتمع مؤمن. بل حتى اذا وصلت الى الشتم و السب و اذكروا قوله تعالى "تبّت يدا ابي لهب و تب" و "عتل بعد ذلك زنيم".

و لا يقال: ان تلك مجتمعات جاهلية و نحن مجتمع مؤمن و عندنا الحقيقة الكاملة فأي دعوة غير ما عندنا فهي دعوة شيطانية يجب قتلها في مهدها. لأنكم أولا لستم بالكمال الذي تحلمون به بل و لم تقتربوا, بل كل الوقائع و القرائن تدل على أنكم من أقرب الناس للجاهلية ان لم تكونوا متحدين بها. و ثانيا, ان كان المجتمع الجاهلي الذي تذمونه كان يعطي هذه الحرية, فكيف تكونوا أنتم "المؤمنين أصحاب الحقيقة المطلقة التي لا يختلف عليها اثنان" أقل منهم انسانية و رقي؟ في مجتمعاتكم "المؤمنة بالله و رسوله" اذا خرج انسان و كفر بالهتكم و كتبكم و تعاليم اباءكم فانكم تقتلونه فورا او تعاقبونه و بدون أي تورع بل بشغف و حماس. فان كان المجتمع "الجاهلي" مثلكم لقتلوا محمد فورا من أول يوم خروجه و لما زلتم اليوم تعبدون اللات و العزى! الجاهليون أكثر انسانية و رقي منكم في بعض الاحيان, فبأي حق تتعالون عليهم؟ ثم ان حرية الكلام هي من أوامر الله الذي تدّعون أنكم تعبدونه. و المجتمع الجاهلي كان يعتقد في الهته و اباءه و كمال دينهم مثل ما تعتقدون أنتم اليوم. و مع ذلك ثار الرسل بالكلام عليهم. و لما أخرجوهم ذمهم الله و قال "لنهلكن الظالمين". فهل الله يأمر الجاهليين بان يكون عندهم حرية الكلام المطلقة و يأمر المسلمين بأن يكونوا متعصبين مهسترين سفاحين! ان الله لا يأمر بالفحشاء و لا يأمر بالخوف و النفاق. و لولا أن كبراءكم و أسيادكم يعلمون أن دينهم و نظامهم متهافت و أنكم أنتم نائمون أو منومون

مغناطيسيا, لما خافوا من كلام المخالفين لهم. الخوف من حرية الكلام المطلقة دليل قاطع على أنك في مجتمع جاهلي يحيا على ظلم طبقة متعالية و استغلالها لطبقات بهيمية هالكة.

ثاني صور الاكراه: الحكم على المخالف بالعقوبة الجسمانية كالسجن أو القتل او المقاطعة الاقتصادية. المخالفة كموقف فكري و دعوة بالكلام ان كانت مجرمه و موضوع لها عقوبة جنائية فهذا اكراه بل و من أبشع صور الاكراه. و هو ما يسميه أحيانا الاحزاب بحكم "الردة". ان التخويف بالعقوبة يعني الاكراه النفسي على التحيز الى النتيجة قبل البحث, و في أقل تقدير سيكون التحيز لاشعوري, اذ من الطبيعه المتوقعه غالبا أن يبتعد الانسان عن الألم في الأصل. و الاخلاص لا يكون الا عن طريق التحرر من الخوف النفسي و الجسماني. و الله يريد الاخلاص و لا يعتد بغيره. و لذلك نستطيع أن نستنبط أن الله لا يمكن أن يشرع عقوبة جسمانية على موقف فكري. فاذا نظرنا في الكتاب المفصل كله لن نجد فعلا أي ذكر لعقوبة على ما يسمى الردة. و الأحزاب يعرفون هذا جيدا و لذلك خلقوا الحكم في كتب أخرى تنسب الى الله زورا. ان الرسل هم أول المرتدين أيها السفهاء لا بارك الله فيكم! الجاهليون هم الذين يشرعون العقوبة الجسمانية على المواقف الفكرية و الكلامية, فرعون يقول لموسى "لئن لم تنته لاجعلنك من المسجونين", الملأ الطاغي يهدد دوما "لتعودن في ملتنا أو لنخرجنكم من قريتنا" النفي. محمد نفسه يقول الله عن الطغاة أنهم يريدون أن: يثبتوه (أي يمنعوه من الحركة و الدعوة و ذلك بطرق شتى منها الاغراء بالمال أو السجن و غير ذلك) أو يقتلوه أو يخرجوه من بلدتهم. و فرعون قطع أيدي "المرتدين" و أرجلهم و صلبهم على جذوع النخل. ألا يكفي أنكم تركتم كتاب الله, ولكن جعلتم قدوتكم هم الأقوام الطاغية و المعاندة الكافرة! ها هو موسى عندما "ارتد" السامري, بل أكثر من مجرد ارتد, وانما صنع صنما للناس و جعل أكثرهم يرتد فعلا, و كادوا يقتلون هارون النبي, فماذا فعل موسى معه (و حسب عقائدهم أن موسى صاحب الشريعة المتشددة) ؟ هل قتله؟ لا. هل سجنه؟ لا. هل استتابه ثلاثة أيام حتى يراجع نفسه؟ لا. ماذا فعل موسى؟ قال له "اذهب". لعن الله من جعل الأحزاب منسوبين الى الانبياء و القرءان, اني لم أشتعل غضبا في حياتي مثل ما اشتعل في هذه المرة و سامحوني اني لم أتمالك نفسي. فان موسى نفسه لما غضب من سفاهة الناس كسر ألواح ربه. تأملوا جيدا في عمل موسى هذا, هذه القصص القرءانية التي هي أحسن القصص و أحسن الحديث و لكن مع ذلك استبدلها الأحزاب بغيرها ليتسلطوا على الناس كما فعل الذين من قبلهم. السامري ارتد و جعل الناس ترتد, أذكرها مرة أخرى للذين لا يسمعون و لا يبصرون, السامري ارتد و جعل الناس ترتد فعلا, و ما كان لموسى الا أن يقول له "اذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس" . هذه هي عقوبة الردة في القرءان للذي لا يتوب: هي أن نتركه و شأنه. "لا مساس" فجسمانيا لن يمسه أحد طول حياته. و لكن هذا لا يعني أننا لن ننقض أفكاره التي يعرضها على الناس, فموسى بعد ذلك قال "و انظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا. انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما". و لولا ان السامري نسب العجل الى موسى في قوله "هذا الهكم و اله موسى" فان موسى لم يكن لينسف صنم السامري, بل كان اعطاه اياه و قال له: خذ عجلك و اذهب فان لك في الحياة ان تقول لا

مساس. نعم نقارع الحجة بالحجة, و الكلمة بالكلمة أيا كانت. و أما الأجسام ف "لا مساس" . عندما يسأل الناس عن حكم الله في المرتد فالجواب هو أن يقال له "اذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس". وهذا لأن الحياة في المجتمع (كما يبنا في كتاب المجتمع) قائمة على : تيسير المعيشة الجسمانية للافراد. و أما في عالم الافكار فلا محل لأي حكم جسماني. اذا ضرب جسم جسما فالعقوبة هي القصاص أو العفو. ولكن اذا ضرب كلام كلاما أو فكرة فكرة فلا عقوبة جسمانية أبدا ولكن من شاء أن يجادل و يبحث و يناظر فله ذلك. و من شاء ان يعرض فله ذلك. لا تطغوا. لعالم الاجسام احكامه و لعالم الافكار احكامه. و هذا هو العدل في هذه المسألة لمن أراده من الله و ما ينفع الناس.

فالاكراه هو ان يجبر الانسان على القيام بما لا يرغب في القيام به و أن يظهر الاعتقاد فيما لا يؤمن به. فحتى لو أمر الله بأمر فانه لا يملك أحد أن يجبر الناس عليه. و اذا لم يعمل الناس بالعلم و العدل و الخير فان ذلك لن يضر الله شيئا, و لذلك نادى الله أولئك الذين يحسبون أن الدين جاء من أجل الله كذات ليقول " يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم" فاذا لم يرغب الناس بنشر العلم و القيام بالقسط فان عاقبة هذا البغي هي على الناس أنفسهم. كمثل أكل الطعام الصحي, اذا لم تأكل الطعام الصحي فان هذا لن يضر خبير التعذية الذي نصحك, و لكن أنت الذي ستصبح سمينا و قبيحا و مريضا و مفلسا و وحيدا و ستموت متألما و ستعيش متألما لرؤيتك أمور مسلية لا تستطيع أن تقوم بها. بغي الانسان لا يصيب الرحمن, بغي الانسان على رأس الانسان. و لذلك يجب أن يفهم الناس أن الاكراه لن يحسن شيئا. الطبقة المتسلطة تفضل اكراه الغنم على العمل حتى يسكنوا هم في سعة و راحة و لا يؤرقهم أحد أو عمل. و الدين لابد أن يتحول الى أداة لدعم هذه الرغبة. فيأتي هامان و جنوده لكي ينظّروا لهذا الطغيان و الاكراه, ولن يعدموا لف و دوران و سفسطة يحولون بها "اذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس" لتصبح "خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه". لأنهم يعلمون أن السيطرة على الشعب لا تكون الا بالأفكار أولا, اذ هم لا يملكون القدرة و لا الرغبة في أن يقفوا بالسلاح الجسماني فوق رؤوس الناس, فأسهل طريقة هي ان نخلق سلاحا متسلطا داخلهم, هنا يأتي دور الأفكار و العقائد. ولكن هنا تواجههم مشكلة: ماذا سنفعل بالذين يخرجون على هذا الطغيان و هذه الافكار؟ نعم, علينا أن نشرع أن المرتد يقتل. و من هنا بدأت سلسلة الاكراه المشؤومة. الكلام هو سلاح العلماء. و ذلك لأن الأفكار هي جند الطغيان الأكبر. لا تستطيع أن تستعبد جسما له عقل ثائر. عاجلا أم اجلا سينفجر و يفجر الطغيان معه. و هذا تفجير بالمعنى العلمي و ليس الوحشي. و لعل التفجير الوحشي هو سبيل أولئك الذين لم يتحملوا الطغيان لدرجة أنهم لا يملكون الصبر و الرؤية البعيدة او الامكانية العلمية و المالية للتوعية الفكرية فيقدمون على عمل يجذب انتباه الناس جبرا. هذا ان أحسنّا الظن, و في الكثير من الحالات هو رجل عنده نزعة انتحارية أصلا و وجد متنفسا له في الانتماء لمذهب فكري يدعوه للانتحار. على أية حال, ان سد المجتمع لنوافذ التنفيس عن الرغبات و الافكار باطلاق هو من أكبر أسباب ولادة أمثال هذه الأعمال الوحشيه. انزع انسانيه الانسان-اي حريه روحه و عقله- و سترى امامك مسخا ووحشا لا يبالي بغيره.

فاذن الركن الثالث هو صمام أمان المجتمع من الانحراف و التخلف, أي الحرية الفكرية و الكلامية التامة التي لا تعرف أي قيد على الاطلاق و لو كان ما كان, ولو كانت الدعوة تدعوا الى أسوأ الأمور في نظر الناس, و لو كانت أسفه دعوة ظهرت على وجه الارض, و لو كانت تدعوا الى حرق القرءان و الكفر بالله و صناعة الأصنام و تسفيه الرسل و الانقلاب على النظام و التحلل من كل الاخلاق. أيا كانت و مهما كانت, فطالما أنها كلام و نشر سلمي و دعوي فانها محترمة و مقبولة. و كما أن هذا قد يخلق دعاة للشيطان فانها كذلك ستخلق دعاة حقيقة "غير منافقين" للرحمن. و كما أنها ستخلق دعاة للتخلف و الفوضوية و العدمية, فانها ستخلق دعاة للتقدم و النظام و الوجودية. و عندما يتقابل الطرفان أو الاطراف, سيظهر الحق و يبطل ما يعمل الساحرون. و هل الميزان الا مقارنة بين الكفوف المختلفة؟ فأي ميزان هذا ان لم يكن في المجتمع الا كفّة واحدة! و من هنا ندرك أن مجتمع الكفة الواحدة لا ميزان فيه و بالتالي لا عدل و لا علم و كرامة. عدم الاكراه في الدين هي من أعظم مساهمات القرءان في هذه الحياة و تطور الناس, و لكن للأسف لم يعمل المسلمون بها كما ينبغي العمل فعلا. و تزداد قوة هذا الركن عند تصور ضده و هو: الاكراه في و على الدين, النفاق و التصنع, تعمد الجهل و التجاهل, الخوف من البحث الحر, الخوف من النقد, ازدواجية النفس, تسلط الطغيان بمختلف اشكاله, الكره اللاشعوري لله و دينه و احيانا كره شعوري سافر, الحط من شأن القرءان و الدين عموما, قرن الدين بالتخلف والبدائية, خلق مجتمع ممسوخ عقليا و نفسيا, وهذا يكفي لاثبات خبث شجرة الاكراه الملعونة في القرءان.

(الركن الخامس: حفظ الحرمات الأحد عشر)

يقول الكتاب " قل تعالوا اتل ما حرم ربكم: عليكم أن 1لا تشركوا به شيئا, و2 بالولدين احسنا, و3 لا تقتلوا اولدكم من املق (نحن نرزقكم و اياهم), و4 لا تقربوا الفوحش ما ظهر منها و ما بطن, و5 لا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق... و6 لا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده, و7 اوفوا الكيل و الميزان بالقسط (لا نكلف نفسا الا وسعها) و8 اذا قلتم فاعدلوا (و لو كان ذا قربى), و9 بعهد الله اوفوا... و10 ان هذا صرطي مستقيما فاتبعوه و11 لا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله..."

لكل واحدة من هذه الحرمات و الوصايا الربانية تفصيلات و مباحث و ليس هذا ما نرغب في الاقدام عليه هنا. ذكرنا في ركن الاكراه وجود قوانين معينة يجب على الرسل اتباعها جسمانيا و اجتماعيا حتى لا "يكون للناس عليكم حجة" أي حتى لا نتهم بأننا نريد الافساد في الأرض, و اذا اتبعنا هذه القوانين الاحد عشر فانه لن يستطيع أحد بأن يلومنا على دعوتنا بالكلام الى أي شيء. و تستطيع أن تتأمل في الحرمات الأحد عشر السابقة بهذا المنظور حتى تدرك ذلك أكثر.

و هذه الحرمات الأحد عشر هي الطريق المستقيم للسلوك الفردي و الاسري و الاجتماعي و الدولي. و بالرغم من وجود تأويلات روحانية لهذه الوصايا و أنها تنطبق أيضا على المستوى العقلي العلمي, و هذا ككل القرءان الذي هو درجات و مستويات و طبقات, و لكن الصيغة الأساسية التي نريد التشديد عليها هي الصيغة السلوكية الاجتماعية. و الذي لا يتبع الطريق المستقيم او يقبله كاصل و الكل يخطئ و يتوب لا يمكن أن يقال أنه من أتباع القرءان. و هذا الطريق ليس صعبا على الفهم, و لا بتلك الصعوبة في التطبيق فعلا في الأغلب. و لا يوجد مجتمع عامه و محترم خصوصا لا يحترم هذه الحرمات الاحد عشر بصورة عامة , و حتى ان لم يكن يحترمها بتفصيلاتها القرءانية كاملة فانه على الاقل لا يجبر أحد على مخالفتها.

مثلا, الحرمة الأولى "ان لا تشركوا به شيئا". اذا نظرنا في مجتمع غربي يرى الالحاد كأساس له. فانه مع ذلك لا يجبر الناس على "الشرك" و حتى تعريفهم للالحاد يكون في جوهره تعريف ربوبي احيانا, أي الاعتقاد برب او بسنن طبيعية و نفسية تسير الحياة على أساسها. و اذا وجد مجتمع يرى تعدد الالهة فانه في جوهره لا يقول الا بالوحدة الالهية و لكن يرى أن هذه الوحدة تظهر في صور كثيرة, و ليس كما يحسب الناس عادة من أن هؤلاء يؤمنون فعلا بالهة كثيرة. و حتى الملحد الصرف فانه قد يميل الى الربوبية, فما يرفضونه هو اله شخصي- شبيه بالانسان- كما تصوره الأديان عامة. و لكن من ناحية الاعتقاد بسنن تسير عليها الحياة, فهذا لا ينكره عالم, بل العكس فان العلماء هم الذين يكشفون عن هذه السنن و الاحكام الافاقية و النفسية. فمهما نظرنا, فاننا لن نرى أحدا اليوم

يجبر الناس على الشرك من الناحية الروحانية على الأقل. اللهم الا بعض الاحزاب الذين يجبرون و يكرهون الناس على اشراك كتب مع كتاب الله, مع الاسف.

و مثلا الحرمة الرابعة "لا تقربوا الفوحش ما ظهر منها و ما بطن" اذا اعتبرنا أن الشذوذ الجنسي يعتبر من الفوحش أي المثلية الجنسية, فاننا لا نرى مجتمعا متحضرا يجبر الناس على أن يكونوا مثليين. فهو يفتح المجال للمثليين و لكن لا يجبر الناس على ممارسة ذلك. فالرسول الذي يسكن في مجتمع يسمح بالشذوذ فانه اذا كان يرى أنه من الفوحش فعليه أن لا يقوم بها. و اني أعلم أني أبسط الأمور, و هذا لأني لا أرغب في أكثر من تبيين معنى حفظ الحرمات في كل المجتمعات.

و على الرسل و العلماء بالقرءان ان يحفظوا هذه الحرمات أينما كانوا, فهذه الحرمات هي المسجد الحرام الذي قيل فيه "فول وجهك شطر المسجد الحرام و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم و اخشون و لأتم نعمتي عليكم و لعلكم تهتدون" و لا حظ قوله "لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم" فان الطغاة سيؤلبون عبيدهم و وحوشهم على الرسل بدعوى أنه يريد أن "يظهر في الأرض الفساد" كما يقع مع موسى . و لكن اذا حفظ الرسل هذه الحرمات فان هذه الدعوى ستكون باطلة حتى عند عبيدهم اي عامة الشعب الذين يريدون أن يثيروهم. ولذلك قال بعدها "الا الذين ظلموا منهم" نعم, لأن الظالم قد يحاول في البداية أن يجد تبريرا فلسفيا و دينيا ليدعم طغيانه, و لكن اذا لم يفلح فانه سيظلم و لن يبالي. و عندما أقول "الظالم" ليس المعنى بالضرورة "شخص" واحد, و لكن أيضا "حكومة" واحدة أو "نظام واحد". فهذه الحرمات أساس السلوك للانسان العاقل و الذاكر و التقي. و لذلك ختم بهم في نهاية ذكر كل زمرة من الحرمات. فهذه الحرمات شديدة الاهمية لان الله قد جمع فيها تعريف صراطه المستقيم. فعندما ندعوا و نقول "اهدنا الصرط المستقيم" فان الاجابة هي "قل تعالوا اتل ما حرم ربكم.... و ان هذا صرطي مستقيما فاتبعوه". فالحمد لله.

(الركن السادس: حكم الاجسام بالصحة)

يقول الكتاب "اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الأمول و الأولد" و "و الاخرة خير و أبقى".

هذه الحياة التي نحن فيها الان ليس اسمها الحياة الدنيا. و لكن "الحياة" فقط. و "الدنيا" و "الاخرة" هما وصف لكيفية حياة الناس في هذه الحياة. أسلوب في الحياة ان شئت. فالذي يبني حياته على "اللعب و اللهو و الزينة و التفاخر و التكاثر" الجسماني الظاهري فهو من اهل "الحيوة الدنيا" و لكن اذا رفض هذه الأمور كأساس لحياته و أخذ بحياة العلم كأساس و جعل الأمور الظاهرية محكومة بقواعد الصحة للجسم فانه يكون من أهل الأخرة. فالاخرة ليست شيء سيأتي كأساس, و لكنها اسلوب في الحياة الان.

فلنفصل أكثر اذ هذا من أهم الأمور التي ينبغي أن يلاحظها و يتخذ القرار بشأنها كل الناس بغض النظر عن دينهم اذ هو من أكبر الأمور في الحياة النفسية و الاجتماعية.

للانسان رغبتين فقط: الرغبة في الكبرياء, و الرغبة في الراحة. و هذا هو جوهر النفس. و من هذا الجوهر تنطلق كل العمليات النفسية و الاجتماعية. و اني أعلم بأن البعض من المفكرين لا يرى التفرقة بين الجسم و القلب أو الروح أو العقل على اختلاف الزاوية التي ينظر منها الى الحياة الباطنية. و لكن هذا التفريق ضروري لأسباب: نلاحظ مثلا في المملكة الحيوانية أن الحيوانات تتفرق و تتحزب الى فصائل فقط بسبب أجسامها, فالأسود مع الأسود , و الثيران مع الثيران و هكذا. و لكن نلاحظ أننا نحن الناس من فصيلة واحدة, و لكن مع ذلك نرى الرجال يتحزبون ضد النساء, و النساء يتحزبن ضد الرجال, و بعض الرجال يتحزب ضد البعض الاخر, و بعض النساء يتحزبن ضد البعض الاخر, ثم نرى بعض الرجال والنساء يتحزبوا ضد رجال و نساء اخرين وهكذا. و ما سبب تحزباتنا؟ هو ليس الجسم الحيواني, و لكن بسبب "الأفكار و القيم". و هذا من أكبر الأدلة على أننا لسنا مجرد حيوانات (و لا أقول هذا من باب التعالي على الحيوانات, ولكن من باب وصف الواقع) بل يوجد شيء أكثر من ذلك و هو الحياة العقلية و الروحية و الباطنية و الفكرية. باختصار "الدين" أيا كان هذا الدين و لو كان الحادا. أقصد الدين بمعنى مجموعة أفكار وتصورات عن الوجود تنبع منها اعمال و سلوكيات و انفعالات تلقائيه غالبا. و من ناحية أخرى, فاننا نرى أن أفكارنا و عقولنا تؤثر بدرجة عظيمة على أجسامنا, و كل يوم يزداد علمنا بالأمور الطبيعية والنفسية نرى هذه القوة تتكشف و تزداد أهميتها. فالحياة العقلية فيها نوع من الانفصال عن الحياة الجسمانية, و هذا لا يعني "تمام"

الانفصال, و لكن نوع او درجة من الانفصال, بالمعنى المشاهد أننا نرى الجسم واحد بين الناس, فكلية الهندي مثل كلية العربي, و لكن روح الهندي ليست كروح و عقلية العربي عموما- بل قد ترى الرجل المسلم العربي يختلف عن الرجل المسلم الهندي.

و نلاحظ أيضا أن السعي للكبرياء يمكن أن يأخذ صورا كثيرة, فمنها مثلا "التكاثر في الأمول" و منها "التكاثر في الافكار". الامول بالمعني الجسماني الظاهري, و الأفكار بالمعنى العلمي الباطني. و الرسل لا يأخذون بالنوع الأول و لكن بالنوع الثاني. و ذلك لأن الاخرة فعلا "خير و أبقى" من الحيوة الدنيا. خير و أبقى للفرد, و خير و أبقي للمجتمع. و هل الطغيان و الفساد في المجتمع يتكون الا عندما يكون الناس عامة ترغب في الكبرياء بالمعنى الدنيوي؟ الكبرياء حالة نفسية, و ما الأشياء الظاهرية الا مثيرات لهذه الحالة, و هذه الحالة يمكن ان تثار أيضا بالافكار العقلية. و لذلك ترى العلماء لا يبالون عامة بالأمور الظاهرية و الاجتماعية الدنيوية. و هذا ليس زهدا بالمعنى الصوفي و ما أشبه, و لكنه ملاحظة واقعية و اختيار للاحسن والأسهل و الأنفع للناس. و قد خصصنا مقالات كثيرة لتبيين مسألة الدنيا و الاخرة, فلا نكرر هنا هذه التفصيلات و التي يمكن أن يستنبطها القارئ بنفسه من ملاحظة حياته و حالة مجتمعه.

و اذا كان السعي للكبرياء عند الرسل هو عن طريق العلم والتوسع النفسي الناشئ من هذا السعي الدائم للعلم و التنوير و الأفكار الأعمق و الأقوى, فان السعي للراحة يكون مخصصا للأمور الجسمانية المعيشية. و من أكبر الأضرار الواقعة على الافراد و المجتمعات هو أنهم يحولون الموارد المعيشية الى وسائل للكبرياء بدل الراحة. و بهذا تخلق الأثرة و النهب, ويخلق مصاصو الدماء, و يخلق الضرر الصحي و العقلي بعد ذلك. الأمور المعيشية لكي تقوم بدورها الحقيقي و تكفي الناس يجب أن يكون هدفها هو تقديم الصحة على الزينة و التفاخر و باختصار أن لا نحولها الى وسيلة للشعور بالكبرياء على بقية الناس و الاشياء. و اما الكبرياء الفكري فلا أثرة فيه اذ يمكن أن يسع الناس أجمعين.

و لنضرب مثالا واحدا على أمر معيشي جسماني و كيفية استعماله للراحة (الصحة) و للكبرياء لنرى الفرق: السيارة. مهمة السيارة الواقعية هي أن تكون مريحة للراكب و تعمل جيدا لتوصله من مكان الى اخر فقط. هذا هو استعمالها للراحة و يجب أن يكون هذا هو الهم الوحيد في صنع السيارات لا غير. أي أن يجتمع كل خبراء السيارات ليصنعوا سيارات بحسب استعمالاتها المختلفة لنقل الركاب أو لنقل البضائع وما شابه, و يكون الهدف الأوحد هو توفير سيارات لكل الناس مريحة الى أبعد الحدود, لا تتعطل بسهولة, و لا تضر البيئة. و لكن عندما

يتحول المجتمع الى مجتمع دنيوي يرغب في الشعور بالكبرياء عن طريق أمور المعيشة الجسمانية ماذا يحصل؟ يصبح همّ صناع السيارات هو الشكل الظاهري, و غلاء الأسعار, و صنع سيارات نادرة, أو لا يملك شراءها الا أهل طبقة معينة, و يكون من الضروري أن يصنعوا سيارات تتعطل بعد حين حتى يرجع الزبائن اليهم, و يجب أن لا يكشفوا عن كل ما عندهم من علم بأمور السيارات حتى لا يزهد الناس فيهم بل هكذا يأسرون الناس اليهم عن طريق اخراج نوع جديد كل فترة, و يصبح عامة الناس يركبون سيارات سيئة غير مريحة متعطلة باستمرار و مضادة للبيئة و غير ذلك مما هو معروف. و هكذا في بقية أمور المعيشة عندما تتحول الى وسيلة للكبرياء بدل الراحة تنحرف عن مقصدها و تفسد مساهمتها في الحياة.

و لنضرب مثالا واحدا على أمر فكري روحاني و كيفية استعماله للراحة و للكبرياء لنرى الفرق: النقد. مهمة النقد الفكري هي دوما هدم الضعيف لبناء القوي, و الناقد متشكك او متسائل في منهجه, و يجب أن لا يحده حد و يمنعه من نقد أي فكرة مهما كانت, اذ بذلك تتطهر الافكار من الخرافة و العبث و السحر و التلاعب و المغالطات و التشويهات. فهذا هو استعمال النقد العقلي للأمور الفكرية. و لكن عندما نرغب في الراحة الفكرية فان النقد يصبح كفرا! و تعطى الحصانة و الامتيازات لبعض الافكار و التصورات, و يقال "يجب أن نفعل هذا حتى "نريح" الناس من الشكوك الفكرية و التذبذبات" و بذلك ينتج لنا أفراد و مجتمعات جاهلة, خائفة, محشوة بالرقاعة. فالأمور الفكرية يجب أن تكون دائما مدفوعة بالسعي للكبرياء و التوسع و التحقق, فعندما تتحول الى وسيلة للراحة فانها تنحرف و تخلق الجهل و الضرر الذي لا يبقي و لا يذر.

رسل الانسانية و القرءان هم أهل العدل و الواقع الأنفع للناس. أي الذين يجعلون السعي للكبرياء في محله السليم و هو العقل الروحاني, و السعي للراحة في محله النافع و هو الجسم. و أيما مجتمع يقيم كل أموره على هذه القاعدة فانهم سيتحولوا الى أرقى مجتمع في ظرف مده قياسيه نسبيا. و أهل القرءان هم من هؤلاء. و كما أن الحرمات الاحد عشر تدل على السلوك الظاهري, فان هذا الركن هو جوهر السلوك الظاهري و الدافع اليه. و خير الناس من جرب بنفسه ليرى أو اعتبر بغيره قبل أن يعتبر فيه. و هذا هو الرقي بعينه.

(الركن السابع: مناصرة رسل التنوير)

يقول الكتاب " و اذ أخذ الله ميثق النبينّ: لما ءاتيتكم من كتب و حكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به و لتنصرنه .قال ءأقررتم و أخذتم على ذلكم اصري؟ قالوا أقررنا. قال فاشهدوا و انا معكم من الشهدين"

نصر الرسل, أي رسل تنوير, هو من أعظم الجهاد و الأعمال في هذه الحياة. ان أقل عبادة لفرعون هي أن يجلس الناس و لا يعملوا شيئا و يسلموا تسليما. مناصرة أهل القرءان هو عمل الفاهمين من المؤمنين. فاذا أظهر كل عالم علمه, فيجب على أهل القرءان أن ينصروا من يروا أن معه حق, "ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم" تأمل في "مصدق لما معكم" . و هذا يعني أن النبيون و هم دارسي القرءان و الفاهمين, عندهم علم معين, و عندهم رؤية استنبطوها من كتاب الله. و التساؤل الان: لماذا ينتظر هؤلاء ظهور "رسول مصدق"؟ هذا يدل على أنهم مشتتين. أي أنهم متفرقين في الأرض, كل واحد منهم يملك علم من القرءان و لكنهم لا يجدون وسيلة للتواصل فيما بينهم و الاجتماع حول محور. و معلوم ان الدائرة لا تتكون الا بوجود محور, و بدون المحور يوجد نقاط كثيرة و لكنها مشتتة, و عند ظهور المحور يستطيع الناس أن يجتمعوا حوله فتتركز القوى. مثل ما قال الله في سورة القارعة "يوم ترى الناس كالفراش المبثوث" نعم, اذا وجد فراش كثير ستراه مشتتا, و لكن اذا أتينا بمصباح على سبيل المثال, فان الفراش سيجتمع حول هذا المصباح. و مصباح الفاهمين من العرب هو القرءان. و مصباح أهل القرءان هو الرسول أو الرسل. فقد يوجد أكثر من رسول, كما قال في سورة يس "فأرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث" . و في الحقيقة ان كل دارس للقرءان بحق هو رسول, و لذلك جاء في الكتاب " كتب الله لأغلبن أنا و رسلي ان الله لقوي عزيز" لماذا ذكر "الله" و "رسلي" فقط , أين جماعة المؤمنين أليسوا هم أيضا من الذي سينتصرون؟ الجواب: هم داخلين في قوله "و رسلي". اذ كل دارس حامل لكتاب الله هو من رسل الله. اذ مهمة الرسول هي "رسولا يتلو عليهم ءياتنا". فالذي يدعوا الى الرسالة بعمله و كلامه هو رسول, و هذا هو تعريف الرسول قرءانيا و لسانيا و عرفيا و على مستوى العالم أجمع.

ماذا سيحصل اذا سكت الناس و كتموا علمهم و أعرضوا عن رسل الله؟ الجواب: هو الدمار و الاستعباد النفسي و الاجتماعي. اذا لم ينصر الناس أصحاب المصابيح أليس معنى هذا أنهم سيعيشون في الظلمات؟ النبي حالة نفسية عقلية علمية, و لكن الرسول هو عمل اجتماعي تنويري خارجي. قد تكون نبيا بمجرد دراسة كتاب الأنباء (القرءان) و لكن الرسول هو الذي "يبلغ" بالعمل بما في القرءان و الدعوة اليه بالأفعال و الأقوال. فالرسول تواصل مع الناس بالقرءان, و النبي هو تواصل مع العلم الالهي بالقرءان. و لذلك أخذ الله ميثق "النبين" و ليس "المرسلين". اذ النبيون

هم الذين يحتاجون الى محور يجمعهم أو مركز يهاجرون اليه و يكونوا جماعة للدراسة الجماعية للكتاب العظيم. و من الدراسة ينبع كل شيء اخر.

و لكن كيف نعرف من هو الرسول؟ يقول الله كما في سورة يس و غيرها "اتبعوا من لا يسألكم أجرا و هم مهتدون". ما أعظم هذه الاية! شرطين, ايتين, علامتين تكشفان عن رسول حقيقي و رسل كاذبين- و ما اكثر انتشار الرسل الكاذبين و ما أسرع الناس الى اتباعهم!: العلامة الاولى " لا يسألكم أجرا" ما هو الأجر؟ يقول " لا أسألكم عليه أجرا" و "لا أسألكم عليه مالا" و "انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لا شكورا" فاذن الأجر الذي لا يطلبه الرسل هو ثلاث أشياء: المال, و الشكر, و التقدير. فالرسول يعطي لأنه يريد "وجه الله" أي أنه يريد أن يكون وجهه مثل وجه الله, يريد أن يكون روحه مثل روح الله, و الله يعطي بغير حساب, فكذلك الرسول يعطي بغير حساب, فالعلم يفيض من الرسول و يحب مشاركته مع الاخرين ليس لأهداف مالية أو مدحهم له و شكرهم و لا لكي يضعوا له الالقاب التشريفية و التعظيمية. فاذا رأينا حامل للدين يأخذ المال, أو يرغب في الشكر, أو يسمح للناس بوضع ألقاب تعظيمية عليه, فهذا دليل أنه ليس رسول الله الذي أخذ الله منا الميثق على مناصرته. و اذا رأينا شخصا يعطي علم القرءان بدون أن يسأل مالا و لا شكرا و لا جزاء من تقدير و تعظيم, فهذا يعني أن الاية الأولى تحققت و عندها ننظر في العلامة الثانية. أي "و هم مهتدون", ما معنى ذلك, مهتدون الى ماذا أو بماذا؟ الجواب: الذي يتبع كتاب الله وحده جملة و تفصيلا, في كل كبير و صغير, في كل مسألة و كل أمر. لأن رسول الله يعني الذي يرسل كلام الله. و هذا بديهي. فهو يتعمق في كلام الله, و يفهمه, و يعمل به, و يتواصل مع الاخرين به, و يدعوا اليه, و يكسر الاصنام التي وضعت عليه "طهرا بيتي". فاذا رأينا شخصا يقول أن "القرءان مجمل غير مفصل كله أو بعضه" أو "القرءان مفتقر الى كتب أخرى لانه ناقص" أو "اهتموا بكتب غير القرءان أكثر من القرءان" أو غير ذلك, فهذا تلقائيا يعني انه ليس برسول الله و لكن رسول الهة اخرين أيضا. و الهداية هي كل دعوة واقعية و انفع للناس.

فاذن خلاصة الأمر أن الرسل هم الذين يعملون بكتاب الله وحده و يتدارسونه مع الناس بدون أن يطلبوا من الناس أي مقابل مالي أو شكر أو جزاء تقديري لذواتهم. و كذلك الذين يظهرون دعوتهم و ينشرون فكرهم, و يصبرون على الأذى الذي قد يقع عليهم من الاخرين "و لنصبرن على ما اذيتمونا".

و عندما تقرأ قصص القرءان اعلم أنك تقرأ سيرة و أسرار الرسل الذين قد تكون أنت منهم و قد تراهم حولك و في زمنك. فانظر بعمق و نقد و لتسمح لقلبك بأن يتخيل ما يشاء أثناء دراستك فان هذه التخيلات سيكون الكثير منها حق و أمثال و تراءي للمستقبل اذا كنت من المتأملين و الدارسين بعمق. اسمح لقوة روح القرءان بان تؤثر فيك,

فاترك لها ان توجهك. نعم فكر و انقد و لكن كذلك اسمح لقوى اللاشعور الباطنية بأن تتكشف فيك. فكن حاضرا و كن غائبا. كن ملكا و كن عبدا. كن متكلما و كن سامعا. كن متبصرا و كن متخيلا. اسمح لكل طاقتك القلبية و الروحية بأن تبلغ أعلى درجات قوتها. و تأمل تأملا طويلا. و سترى الغرائب و ستنكشف لك الأسرار و ستتعلم ما لم تكن تعلم, و ستطور ما كنت تعلم, و الحياة تطور و سعي الى أعلى درجات عرش الله.

و لعلك تتسا ءل: كيف نصعد الى أعلى درجات عرش الله؟ الجواب: بركن هذا الدين الأول و الاخر و الظهر و الباطن. ما هو هذا الركن العظيم؟ ...هو دراسة القرءان العظيم.

(هل محمد خاتم النبيين؟)

(فيض الكريم المطلق)

"الله نور السموت و الارض" و "يريدون ليطفئوا نور الله بافوههم و يابى الله الا ان يتم نوره و لو كره الكفرون"

ما هي النبوة؟ ما هو مصدرها؟ ما هي غايتها؟ و هل الاولوية في اعتبارها هي لظاهر الفاظها ام لجوهر لبابها؟ و ما هي لوازم دعوى ختم النبوة؟ و ما الفرق بين النبوة في السياق القرءاني و في السياق العالمي؟ و ما هو دور النبي في صياغة الوحي؟ هذه تساؤلات مهمة جدا و لها ابعاد كثيرة, فتعالوا ننظر في بعضها...

النبوة معلومة متصلة بالواقع و صادقة في مضمونها, فهي ضد الوهم و الخرافة و الكذب. هذا هو جوهرها. سواء كان الواقع المتحدث عنه هو الافاقي (الطبيعي) ام النفسي ام ما وراء ذلك ان ثبت تحققه. فكل فكرة يعبر عنها انسان و تكون صادقة في مضمونها و منطبقة على الواقع فهي مما يندرج تحت لفظ النبوة.

و القرءان يسمي مصدر كل نور و ضياء في العوالم "الله" كما في قوله "الله نور السموت و الأرض". فلا يوجد نور الا منه, "و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور". و كذلك يسمي الله "الحق المبين". و كذلك يسمي الحق "ما ينفع الناس". و ضد النبي هو المجرم "و كذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين", و المجرم يعني المقطوع المبتور من الحق. و من هنا يقال ان اعداء الانبياء هم السحرة مثلا و هم الذين يوهمون الناس لتصديق ما هو مجرد وهم تخيلي على انه حقيقة واقعية. و كذلك الشعراء الغاوون الذين يتكلمون بما لا يفقهون, و لا يعملون بما يزعمون انهم يعتقدون, و اذا ظلموا يخنعون و لا ينتصرون, فالنبي انسان ضد هذا كله, فهو لا يتكلم الا بما يعلم "و لا تقف ما ليس لك به علم" , و اذا اعتقد شيئا عمل به قدر استطاعته و بحسب ظروفه "فاصدع بما تؤمر", و ينتصر على الظلم و الظلمات "كتب الله لاغلبن انا و رسلي ان الله لقوي عزيز".

و نور الله و عطاءه في العوالم ليس حكرا على احد دون احد, بل "كل نمد هؤلاء و هؤلاء من عطاء ربك و ما كان عطاء ربك محظورا". فكل فكرة صحيحة حقيقية تنير النفس و الافاق فهي من الله, ايا كان الشخص الذي يتلقاها , و ايا كان اعتقاده و زمانه و مكانه. فمنبع كل نور انما هو الله. و انما نعرف ان هذه الفكره او هذا الالهام او هذا

العمل مستمد من الله اذا كان واقعيا ليس خرافة و اذا كان نافعا ليس مضرا (بالميزان). فالغاية من نور الله انما هو كشف المجهول و نفع الناس. و بالتالي كل ما وافق هذه الغاية فهو من الله. و كل ما خالفها فهو من شيطان. فهذه الاسماء انما هي رموز على امور قد لا ندرك كنهها, و لكننا نعرفها من اثرها فينا و ما حولنا. و هي من باب تسهيل التخاطب فيما بيننا. و من باب صبغ الوجود بصبغة الهية روحانية تفرح النفس المتشوقة الى اللانهائي دوما.

و ايا كانت اللغة او الاسلوب الذي يعبر به القلب عن معقولاته و مشاعره و تصوراته, فهذا لا يهم, بل هو ثانوي, و العبرة فيه هو ايصال الفكرة الى الاخرين. أي العبرة في البيان. "و ما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم". فليست العبرة للزخرفات اللفظية, و لا لسجع الكهان, و لا لتزويقات الشعراء. العبرة للسان العلم. فان تم البيان فهو قرءان.

فعندما يقال ان النبوة ختمت بمعنى انتهت, فهذا يعني ان نور الله قد انطفأ. فهل هذا هو الواقع؟ بالطبع لا و كلنا يعلم ذلك. لم يزل الناس يكتشفون, و يبدعون, و يكتبون, و يرسمون, و يمثلون, و يغنون, و يتواصلون, و يتجادلون, و يفسرون. بل ان الذين يزعمون ان النبوة انتهت يقولون ما لا يفعلون, اليسوا يفسرون كتبهم, و يأخذون باكتشافات عقول الاخرين, و يعملون بنصائح "الكفار" و يقبلون نظرياتهم في الامور الافاقية و النفسية و الاجتماعية بل و الدينية احيانا كثيرة؟ معنى انتهاء النبوة هو ان العلم كله قد انكشف, اي كل علم في الوجود, و قد انكشف بكل اجمالاته و تفصيلاته. فاذا تم هذا فعلا, فنحن لا نحتاج الى اي نور بعد ذلك, اذ لماذا نحتاجه اصلا و قد علمنا كل شئ. من الاحزاب من يقول ان النبوة قد انتهت قبل نحو اربعة عشر قرنا, ويلكم, فمن الذي ينير الناس منذ ذلك الحين الى يومنا هذا!! اذا كان نور الله قد انطفأ قبل اربعة عشر قرنا, فهذا يعني وجود نور اخر هو الذي انار مليارات الناس على مر القرون, و كل هذه الثورات العلمية و الفكرية و الروحية و الابداعية. ان كان هذا هو الواقع, فهذا الاله الثاني اعظم من الله! من اثاره نعرفه, فاذا كان الله هو مصدر نور الناس الى ان نزل هذا القرءان, ثم تولى كائن اخر التنوير بعد ذلك, فان مقارنة ثمار الناس بعد القرءان أعظم بما لا يقارن من ثمارهم قبل القرءان, فالنتيجة الحتمية هي ان هذا الكائن الثاني (او الكائنات!) أعظم من الله. من يقول هذا ليس له حظ جيد من روح القرءان.

انما قالوا ذلك بسبب اطماع معينة ستروها بحجاب قوله "و ما كان محمدا ابا احد من رجالكم و لكن رسول الله و خاتم النبيين". فهل هذه الاية فعلا تؤيد هذا القول؟ الجواب: من كل ما سبق يتبين ان الاجابة لا. و للتفصيل نقول: هذا الاستدلال هو من نفس جنس الاستدلال على ان القرءان يمنع الصلاة بحجة "ويل للمصلين". هذا البتر و الاسقاط

العجيب الذي ما فتئ الاحزاب يمطروننا به هو سبب امثال هذه الحجج المزجاة. قبل ان تستنبط اي معلومة من القرءان يجب ان تقارنها بما في باقي القرءان, و يجب ايضا ان تحاكمها الى لوازم الحقيقة الواقعية "سنريهم ءايتنا في الافاق و في انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق"فانما يتبين لنا ان الاية حق عندما نرى مصداقها في الافاق و الانفس. الافاق و الانفس هما من كتب الله التي لا يمكن لانسان ان يبدل او يحرف كلماته. فاذا قيل ان النبوة انتهت فهذا يعني ان مصدر التنوير قد انطفأ او "باب السماء اغلق" كما يزعم الاحزاب, و هذا ليس بدعا من القول فقد وافقوا سنت من قال قبلهم "يد الله مغلولة" و لن تجد لسنت الله تبديلا.

انتهاء النبوة يعني احد هذه الامور: 1 اما ان الله قد فرغ و اعطى كل ما عنده للناس قبل اربعة عشر قرنا. و2 اما ان الله لا يزال يملك امورا اخرى ليعطيها و لكن يوجد شئ او احد يمنعه من هذا العطاء كمثل الملك الذي سجنه وزيره و منعه من العطاء من خزانة الدولة. او3 انه يملك امورا ليعطيها و لكنه تعب من العطاء سابقا فقرر ان يرتاح من عناء العطاء. او4 ان الناس لم تعد ترغب في الاستمداد من نور الله مطلقا. او٥ عنده عطاء و لكنه بخل به.

اما الاحتمال الاول فظاهر بطلانه اذا اعتبرنا ان الله هو مصدر النور الوحيد في الوجود, و اعتبار وجود مصدر اخر مع الله او من دونه يعتبر شركا في القرءان فلا نلتفت اليه في هذا المقام حيث ان خطابنا موجه لاهل هذا القرءان بل ان فيضان النور على الناس اشتد بعد نزول القرءان كما لم يشتد من قبل و ها نحن نعيش في ظل هذه الفيضانات و لا تزال مستمرة. و اما الاحتمال الثاني و الخامس فهو عين القول بان يد الله مغلولة فليتقدم مشكورا من يعتقد بهذا و يصرح علنا بذلك. و اما الاحتمال الثالث فأشد كفرا من سابقه. و اما الاحتمال الرابع فأيضا ظاهر البطلان اذ في كل زمان و مكان يوجد اناس ترغب في النور و الفهم و الادراك, و على التحقيق فان كل انسان يرغب في النور بدرجة من الدرجات حتى لو كان اجهل و افسق خلق الله. فاذن فكرة انتهاء النبوة هذه لا قيمة لها في ميزان القرءان و من يحترم نفسه من الناس.

قد يقال: ان النبوة التي انتهت هي ان ينزل الله كتابا و يشرع امورا جديدة و ان يكون النبي مؤيدا بمعجزة. اقول: اذا تنزلنا و سلمنا ان مثل هذه النبوة وجدت فعلا (بالرغم من عشرات الانتقادات الموجهه نحو جزء منها اي المعجزة-على الاقل), فمع ذلك , ما هو لب هذه النبوة؟ اي فلنفرض ان نبيا من هذا الطراز جاء بكتاب جديد فيه شرائع و احكام و كانت معه معجزة فما هي الخلاصة التي سنقوم بها اذا ءامنا بهذا النبي؟ خلاصة تعليماته ستكون امور تنفع الناس و رؤى مبرهن عليها و مطابقة للواقع "قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين". فحتى لو فرضنا انه قبل اربعة عشر قرنا جاء مثل هذا النبي, فان الواقع يدل على انه لم يأت بكل ما يحتاجه الناس, و لم يكشف كل

الحقائق الافاقية و النفسية و الوجودية بكل تفصيل ممكن و ما تطور الناس الفكري و العملي و الانساني منذ ذلك الحين الى يومنا , و ما تطور فقهاء المذاهب و علماءهم انفسهم الا دليل اقوى من باب "و شهد شاهد من اهلها". القرءان لم يكفيهم فذهبوا الى السنة, السنة لم تكفيهم فذهبوا الى الاجماع, الاجماع لم يكفيهم فذهبوا الى القياس, ثم الى المصالح المرسلة, ثم الى الاستصحاب, ثم ثم ثم ... الى اخر القائمة المعروفة. فاي انتهاء هذا!! و لا يلتفت الى الهروب وراء مقولات مثل ان الدين جاء بالكليات و نحن نفصل, او الدين ترك مساحة للفكر و ظروف الواقع المتجدد, كل هذا يصب في ما نقول, اي ان النور لم يكتمل ظهوره. و ما كشوفات العلماء و المفكرين على مر العصور هذه الى يومنا هذا الا من تجليات هذا النور. كم من خرافات الماضي سحقها ظهور النور في هذا القرن و بضع قرون قبله؟ كم من مبهمات الماضي (و مما يوجد في نصوص الوحي ايضا احيانا) قد كشفه نور العلم الحديث؟ حتى الشرائع و الاحكام, فكم من احكام الدين القديمة المثبتة في نصوص الدين الاصيلة مما قتله الناس بسبب همجيته او تخلفه او عنصريته و غير ذلك؟ الانتهاء الكلي يعني الانتهاء الكلي. و افعالكم انتم يا اهل ختم النبوات هي من اكبر الادلة على بطلان ختم النبوات. لماذا تكتبون الكتب, و تأصلون المذاهب, و تتحاورون حول معاني القرءان, لماذا تثبون هذا الحكم او هذه الفكرة على انها من الثوابت و ان تلك على انها من المتغيرات بالرغم من انها كلها تدخل تحت الوحي الخاتم و الاخير على حد قولكم؟ انما هذا الكلام لغو, و انما انتم ممن يقولون ما لا يفعلون.

فلنترفع عما تنزلنا له, و لنبحث في تعريف النبوة السابق هذا: نبي مؤيد بمعجزة و يكون معه كتاب فيه شرع جديد عمن سبقه. اولا, ان كلامنا كله يجب ان يرجع الى القرءان, اذ هو المرجع المفترض لنا و لهم و بيننا و بينهم. و ايضا لوازم المعرفة المجردة من تحليل و نقد خارج القرءان ايضا مما يلزم الاخذ به اذ النظر في الواقع هو الذي يثبت لنا ان الاية القرءانية حق او ان فهمنا لهذه الاية حق.

ثانيا, كلمة معجزة هذه لا توجد في القرءان. و ما يذكره القرءان عن احياء الموتى و شق البحر انما هو امثال, رموز, و ليست احداث تاريخية او جسمانية وقعت في زمن ارضي معين, و قد فرغنا من هذا المبحث في كتاباخر فلا نعيد. و هذا هو الانتقاد الاول لفكرة النبي ذو المعجزة هذه.

ثالثا,يقولون- و ما اكثر ما يرددون هذا القول الغير محترم- ان كل نبي يأتي بمعجزة تناسب قومه, فموسى جاء بما يشبه السحر لان اهل مصر كانوا مشهورين بالسحر, و ان عيسى جاء بما يشبه الطب لان اليونان و الروم كانوا مشهورين بالطب, و ان محمدا جاء بقرءان و هو معجزة لسانية لغوية بما يناسب قومه الاعراب الذين كانوا يعظمون

الكلمة و الشعر. أقول: و هل كان قوم ابراهيم مشهورين بالدخول في النار و الخروج منها احياء! ما هي معجزة ابرهيم؟! و هل كان قوم صالح ثمود مشهورين باخراج كائنات من الحجر فاخرج لهم ناقة !! و هل كان قوم نوح مشهورين بصنع سفن صغيرة فجاء نوح و صنع سفينة كبيرة!! ثم من قال ان قوم عيسى هم الرومانيين و اليونان, انما هم بني اسرئيل "و رسولا الى بني اسرئيل" و اني لا اعلم هل كان اليهود يرون حمل الفتاة بدون ذكر هو من المعاجز ام من المخازي! ادع هذا لكم يا اهل المعجزات. ما هي معجزة اسماعيل, لوط, اسحاق, اليسع, الرسل في يس, ما هي معجزة صاحب موسى في سورة الكهف, و لنكتف بهذا. الادعاء بان قيمة افكار الرسل هي بسبب مخارق العادات هو من اكبر المطاعن في هذه الافكار و في هؤلاء الرسل , فضلا عن المطاعن الاخرى المتفرعة عن هذه الدعوى و لوازمها.

ما هي معجزة كارل ماركس؟ لقد الف بضعة كتب و اصبح اتباعه يعدون بالملايين بل المليارات, حتى قيل ان كل انسان فيه شيوعية حتى لو لم يدركها. ما هي معجزة اينشتاين التي جعلت الناس تقبل نظريته النسبية اتراه فلق البحر ام مشى على الماء؟ ما هي معجزة الفنانين من رسامين و موسيقين التي تجعل الناس تقبل عليهم بل و تعبدهم في بعض الاحيان هل انذروا الناس بالويل و الثبور ام جاءوا بالعجيب النافع للنفس؟ ما هي معجزة جلال الدين الرومي الذي اصبح يغوص في كتابه المثنوي حتى بعض الملاحدة (في نظر الاحزاب على الاقل)؟ ما اتعس رسالة قيمتها ليست منها. و الله لو كان الله يؤيد رسله (و هو لم يفعل) بهذه المخارق ليحبب الناس في رسالته لكان هذا اكبر مطعن في الرسالة. الحق و الجمال هو الذي يعطي الاشياء قيمتها, "انا سمعنا قرءانا عجبا, يهدي الى الرشد فئامنا به". عجبا و رشدا, هذان هما قرني العقل المستنير.

رابعا, اذا كانت الرسالة لا تقبل الا بمعجزة من هذا الصنف الخرافي, فاذن انا اريد معجزة اليوم تناسب ذوقي, و الناس كلها اليوم تريد معجزة تناسب هذا العصر و اذواقنا. فهذا القرءان لا قيمة له اذن, اذ ان كانت معجزته كلامية بيانية لان القوم الذين ارسل لهم يحبون هذا الصنف من المعاجز, فهذا يعني ان الله يراعي ذوق الناس الذين يرسل اليهم و يجعل المعجزة مصممة على هذا الاساس. هذا جميل جدا, هيا يا فرسان الدين و دعاة الحق, اخرجوا لنا معجزات تناسب هذا العصر, فنحن لسنا شعراء و لا نفهم هذه العربية المعقدة و دقائق الاشارات البيانية, و حتى لو فهمناها فانها ليست معجزة لنا اذ نحن لا ندرك سر الصنعة التي كان يدركها الناس في ذلك الزمان و في تلك الظروف. نريد معجزة اخرى و الا خذوا دينكم و لا تزعجونا من فضلكم.

خامسا, حتى لو سلمنا و تنزلنا الف تنزل و اقررنا ان هذا القرءان فيه اعجاز علمي و بياني و فني و كل انواع الاعجازات فهذا لا يدل على ان القرءان "من عند الله" (الله هنا ككائن مفارق يشبه الانسان يجلس في موضع ما في السماء او فوقها), انما يدل في اقصا الحالات و التنزلات على ان القرءان "ليس من عند بشر". و فرق كبير جدا بين ان يكون الدليل يبرهن على ان الكتاب من عند الله او يبرهن على انه ليس من عند بشر. فكونه ليس من عند بشر قد يعني انه من عند ملاك او عفريت من الجن او قد يكون من مصدر اخر لا نعلمه و ليس لنا معه صلة. فالبرهان مقطوع و قاصر عن اثبات المطلوب. فاي معجزة تبقى اذن!

سادسا, ها انتم و غيركم تشرعون احكاما جديدة, فحتى لو ادعيتم انكم تبنون هذه التشريعات على "قواعد شرعية" و لا اريد ان اخوض في فكرة هذه القواعد الان, فحتى لو سلمنا بذلك, فان مجرد وجود تشريعات جديدة لم ينطق بها الوحي الاخير هو بحد ذاته دليل على استمرارية التشريع. بل ان البلدان "الاسلامية" تستمد الكثير من شرائعها من دول اخرى "كافرة تعتمد على عقلها العاجز- قبحها الله!" . و من الشرائع التي نطق بها الوحي (عندهم) كمثل الاذن باتخاذ العبيد و الجواري او كالزواج من فتاة عمرها ست او تسع سنوات اصبحت الان مجرمة و مرفوضة. فمسيرة التشريع الجديد لم تزل مستمره على مر العصور.

فاذن مهما صعدتم او نزلتم, مهما شرقتم او غربتم, فان القرءان يخالفكم و الواقع ضدكم و اعمالكم تشهد عليكم. و الله غالب على امره و لكن اكثر الناس لا يعلمون.

فلنبحث الان في مسألة خاتم النبيين في السياق القرءاني في ضوء ما عرفناه.

كلمة "خاتم" يمكن ان تقرأ بفتح التاء و بكسرها احدى القراءتين تجعل الكلمة تعني "اخر" و القراءة الاخرى تجعل الكلمة من الختم كمثل الختم الذي يوضع في الرسالة ليدل على مرسلها. و حيث ان معنى"اخر" غير مقبول من احدى الحيثيات كما رأينا, فاذن المعنى هو الاخر من حيث المقام, مثلا: في السلك الاكاديمي يعتبر البروفيسور هو "خاتم" الاكادميين, او في السلك العسكري يعتبر الوزير او الجنرال او الفريق هو "خاتم" العسكريين. فالخاتم مقام, و هو الاخر من حيث المقامات في السلك النبوي الالهي. فكما ان التطور الجسماني يمر بمراحل النطفة ثم علقة ثم مضغة...و يختتم بنفخ الروح, فالتطور النفساني يمر بمراحل تبدأ بنفخ الروح و تمر بالمقامات المسماة ادم و نوح... و تختتم بمحمد. فمحمد هو خاتم النبيين من هذه الحيثية و الزاوية. محمد هو اسم من يصل الى هذا المقام الجامع الاكمل عند الله.

فبداية تكوين الجسم الانساني يبدأ بالنطفة و يختتم بنفخ الروح "فاذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له سجدين", و بداية تكوين القلب الانساني يبدأ بادم و يختتم بمحمد "و لكن رسول الله و خاتم النبين". و بعد هذه الاطوار في هذه النشأة قد توجد مراحل اخرى و اطوار اخرى سيمر فيها القلب المحمدي حتى يستمر في الترقي حتى يصل الى الله تعالى "و الى الله تصير الامور".

ما معنى ان محمدا "خاتم النبيين"؟ الجواب: يا اهل هذا الكتاب, اذا اردتم ان تعرفوا ان فلان عالم بدينكم (نبي) فيجب ان يكون مختوما عليه باسم "محمد". محمد مقام, و ليس شخص. قد يرتقي شخص الى هذا المقام, و لكن محمد في نهاية المطاف مقام قلبي. و هو الجامع لكل الامثال القرءانية "اولئك الذين هدى الله فبهديهم اقتده". كمثل رجل جاء برسالة الى الشعب باسم الملك, فان الشعب سيقول له "ما الدليل ان الملك ارسلك بهذه الرسالة؟" فعندها يظهر لهم ختم الملك الذي يوقع به رسائله, و هو الختم الذي يعرفونه فيوقنون انه رسوله فعلا. و هكذا في عالم القرءان, فان المؤمنين امروا بأن "يصلوا على النبي" و ان "ينصروه" و غير ذلك, فكيف سيعرفوا من يصدق عليه اسم النبي؟ من هنا جاءت فكرة "الخاتم". اي اذا وجدتم انسانا مختوما باسم محمد, فهذا نبي من انبياء هذه الامة. و اما تفاصيل اسم محمد الكاملة فارجعوا لها في القرءان, و قد ذكرت لكم لب هذا الاسم و هو الجامع لكل المقامات, هو القلب الذي وسع و قبل كل شئ. فهو لا ياخذ جانب من القرءان و يدع جانب, و هو مؤيد في تبيينه و عمله, و يفتح له القرءان كما تفتح ابواب البيت لاهل البيت. و هذا لا يعني انه لا يوجد الا نبي واحد, و لكن كل من ارتقى الى هذا المقام فهو من النبيين في عالم القرءان و المؤمنين. كل عالم بالانباء هو من الانبياء. النبي ليس كائن خرافي اسطوري وجد و انقرض. هل عرفتم الان من هم قتلة الانبياء ؟ انتم تسكنون بينهم و تحسبونهم ورثة الانبياء- و العياذ بالله، قتلوهم و زعموا انهم ورثوهم, و ان القاتل لا يرث!

هل وجود النبي يعني ضرورة مخالفة القرءان ؟ الجواب: بالطبع لا. يقول "انا انزلنا التورية فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا". تأمل جيدا في هذه الاية. يوجد كتاب منزل, يحكم به "النبيون". فهذا يعني ان النبي قد يحكم بكتاب موجود و ليس بالضرورة يخالفه. ثانيا, يقول "النبيون الذين اسلموا" فهذا يعني امكانية وجود نبيون لم يسلموا, اي نبيون كفروا و اجرموا, و هذا عين الحق, اذ كم من عالم بكتاب الله انسلخ منه فاتبعه الشيطان فكان من الغاويين, و كم من عالم باع علمه لينضم الى الطغاة كمثل قارون, و كم من محرفين للكتاب من بعد ما عقلوه و هم يعلمون, فهؤلاء كلهم تحت "النبيون" و لكن الذين كفروا و أجرموا.

يوجد اية عظيمة في سورة النجم تبين جوهر الوحي, يقول "و ما ينطق عن الهوى. ان هو الا وحي يوحي" تأمل في العلاقة و الربط بين عدم الهوى و كونه وحيا. فكل ما ليس هوى فهو وحي. و معلوم ان الهوى في القرءان ياتي بمعنى الباطل و الخرافات و الاوهام التي لا تحقق لها الا في مخيلة المتكلم. فالعكس من ذلك اذن هي صفة الوحي. اي كلام الحق المطابق للواقع بمختلف مستوياته, كل كلام بحسب مدلوله و غايته. فالكلام الذي يفترض انه يخبر عن صفة او ظاهرة في عالم الافاق فيجب ان يصدق هذا الوصف و يكون فعلا متحققا في عالم الافاق, و كذلك في عالم الانفس و بقية العوالم. فعندما يقول القرءان عن نفسه او عن الوحي الالهي عامة انه "حق" فهذا ليس مدحا من القرءان لنفسه, و لكنه اخبار عن صفة او لب و جوهر الكلام الالهي, فهو معيار الفرقان بين الله و الشيطان, اي بين الواقعي و الوهمي.

و ملاحظة اخرى هامة جدا هي ان القرءان يصور العوالم كلها على انها كتب الله. بل ان العوالم كالافاق و الانفس هي كتب اعظم من كل كتب اخرى كتبها البشر حتى لو كانت "بوحي" الهي. اذ ان ما يكتبه البشر يمكن ان يحرف و يشوه و يبدل و ينسى , هذا غير الكثير من العوائق المعرفية و النفسية العاطفية و المصالح الدنيوية التي تقف كحجب في وجه الناظر في الكتب الدينية البشرية او الالهية. يقول الله عن كتبه "لا مبدل لكلماته". و نحن نعلم ان هذه الكتب التي يكتبها البشر بأيديهم يمكن ان تبدل كلماتها. و لكن المقصود هو الكتب الوجودية. فمثلا, هل يستطيع احد ان يحرف قانون الجاذبية, او قانون الكبت و اللاشعور؟ بالطبع لها. تستطيع ان تسبح في فلكها, و لكن لا تستطيع ان تحرفها او تبدلها, الا لو وجدت الوسيلة الطبيعية المكتوبة في كتب الوجود التي تسمح بذلك, و ظاهر ان هذا لا يكون تبديلا و انما هو سباحة في فلك القانون. العوالم كتب الله العظمى. و قراءة هذه الكتب هي الصلوة و هي المعرفة و هي باب كل شئ. و هذا القرءان العربي انما هو- كأصل- يفترض انه يعبر عن هذه العوالم, اي هو ترجمة او تيسير لهذه الكتب الوجودية بلسان عربي مبين. و لذلك عندما اراد القرءان ان يؤسس معيار الحكم على صحة الفكرة من عدمها قال "سنريهم ءايتنا في الافاق و في انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق". فالافاق و الانفس هما مرجع القرءان. فيوجد "هذا" القرءان, و يوجد "ذلك الكتاب". "هذا" يدل على هذا الكتاب العربي الموجود في بيتك. و "ذلك" يدل على كتب الافاق و الانفس و بقية العوالم. و الكتاب العربي يرجع الى الكتب الوجودية. و هذا يعني ان قراءة كتب الوجود هي تعرض لنور الوحي الالهي. فطالما ان العوالم موجودة و متحققة و طالما ان الانسان يقرأ هذه الكتب فهو من النبيين الذين يوحي الله لهم. و ان فهم هذا القرءان العربي اصلا لا يكون الا بهدى من نور الله و وحيه و مدد من قوته و روحه.

الوحي مستمر لا ينقطع ما دام الله حيا, و ان الله حي لا يموت.

و ما دام يوجد من يرغب في نور الله فان يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء. و على الله فليتوكل المتوكلون.

(استمرارية الوحي بعد النبي)

عند الشيعة الامامية و الأولياء الصوفية و الروايات السنية

(نظرة في الفرق الكبرى)

معظم أهل الاسلام ينتمون الى احدى هذه الفرق : الشيعة الامامية أو طرق الصوفية أو السلفية السنية, و لا اريد أن أخوض في دقة هذه التسميات او ان الصوفية أيضا ينتمون الى السنة أو غير ذلك من اعتراضات نعلمها كلنا. و لكن يوجد سبب جعلني أميز بين هذه الفرق الثلاثة: فالشيعة الامامية و الشيعة عموما كانوا يفرقون أنفسهم عن الصوفية بل منهم – و من عرفاءهم- من كان يشنع على الصوفية أشد التشنيع (كصدر المتألهين الشيرازي- رضوان الله عليه- صاحب مدرسة الحكمة المتعالية), و افتراق الشيعة عن السلفية السنية واضح جدا و لا يحتاج الى تبيين. و أما افتراق الصوفية عن السلفية السنية, فأيضا لان الكثير من الممارسات الصوفية و عقائدهم تعتبر عند السلفية ليست فقط خارجة عن السنة بل خارجة عن الاسلام بل بعضهم يخرجها عن الاديان و يدخلها في الالحاد, و افتراق الصوفية عن الشيعة أيضا الى حد ما هو أمر بين, فحتى اذا جئنا الى الشيخ الأكبر للصوفية ابن عربي- رضوان الله عليه- نجده سنيا عتيدا على الاقل من حيث اعتماده على مصادر سنية في الروايات و أيضا في الكثير من العقائد الاساسية التي لا يمكن أن يكون صاحبها شيعيا مثلا, بالرغم من الصاق التشيع بالشيخ الأكبر من قبل بعض السلفية و غيرهم بسبب بعض أفكاره و كلماته, و لكن المقطوع به هو أن الشيخ الأكبر ان لم يكن سنيا فهو يقينا ليس شيعيا فيمكن أن نعتبره مدرسة بحد ذاته, و لكنه يقينا يميل الى التسنن في بعض أهم العقائد كاعتقاده بعظمة أبوبكر و عمر و غير ذلك مما يقطع بكونه ليس شيعيا اماميا أو اسماعيليا, و لا يمكن اعتباره زيديا لانه لا يكاد يذكر المصادر الزيدية في كتبه بل و لا حتى الامام زيد بن علي عليه السلام-اللهم الا عرضا. فاذن يوجد فرق بين المدرسة الشيعية الامامية, و المدرسة الصوفية, و المدرسة السلفية, و ان كان التسنن هو الطابع العام للمدرسة الصوفية و السلفية فكلاهما يدعي أنه سني محض و يعتمد على الروايات السنية كالبخاري و مسلم لتأييد أطروحاته. و طبعا هذا لا يعني أنه لا يوجد ارتباط بين المدرسة الصوفية و المدرسة الشيعية, بل كثير من الصوفية كانت لهم ميول شيعية ان لم يكونوا شيعة أصلا بدرجة أو بأخرى. فيوجد رابط بين هذه الفرق الثلاثة, و يوجد اختلافات أيضا. و لكن من حيث مسألة : هل الوحي مستمر بعد النبي الاول محمد عليه السلام, و ان كان مستمرا فما هي طبيعته و ما هي حدوده؟ فاننا نحتاج أن نلقي نظرة على أطروحة كل فرقة ثم لنرى الى أين سنصل. و اعلم أني سأكتب هذا الفصل ان شاء الله حتى تعلم أن العلم باستمرارية النبوة هو ليس بدعة جديدة بل هي مسألة قديمة جدا بل يعتقدها الكل بوجه أو باخر ! و سنرى ذلك خلال الفصول القادمه باذن الله تعالى.

و ليكن في علمك أني لن أستقصي هذه المسألة استقصاءا تاما, و انما سأشير اشارات تكفي أهل العلم المتبحرين, و تعطي فكرة جيدة لغيرهم من المثقفين. و سأعتمد على المصادر التالية. أما لتبيين نظرية الشيعة الامامية فسانقل من كتاب الكافي للكليني الذي يعتبر من أقدم و أحسن المصادر عندهم, و اما لتبيين نظرية الصوفية فسأنقل من كتاب اليواقيت و الجواهر في بيان عقائد الأكبار للشيخ العارف عبد الوهاب الشعراني رضوان الله عليه و الذي هو نفسه يبين العقائد بشواهد من كلمات الشيخ الأكبر ابن عربي من كتابه الفتوحات المكية الذي هو كتاب المعرفة الصوفية بامتياز, و أما لتبيين نظرية السلفية فسأكتفي بتحليل اعتقادهم بأن عمر بن الخطاب كان محدثا و و له موافقات مع القرءان الكريم. فتعالوا ننظر.

(الشيعة الامامية)

يوجد روايات متناقضة في هذه المسألة. و يمكن حل التناقض بسهولة. و هو ان بعضها يعبر عن حقيقة ما كان يعتقده الأئمة العلويين عليهم السلام, و ما خالف هذا المعتقد يجب أن نعتبره قد صدر للتقية أو لكون المستمع لا يتحمل ان تلقى اليه الحقيقة كاملة فخفف الامام عنه فأعطاه البعض من الحق مع شئ من الحق الذي له تأويل عند الامام. و لعلك ستسأل: و كيف ستفرق بين المعتقد الحقيقي و الكلام الذي صدر على وجه التقية او التخفيف كما تدعي؟ الجواب: النص الجازم هو المعتقد, و النص الذي يخالف هذا النص الجازم هو الغير مقصود بحسب ظاهره. لننقل بعض الروايات حتى يستبين معنى كلامنا هذا.

1 في أصول الكافي عن الامامين الباقر و الصادق عليهما السلام قالا " ان الله اتخذ ابراهيم عبدا قبل أن يتخذه نبيا, و اتخذه نبيا قبل أن يتخذه رسولا, و اتخذه رسولا قبل أن يتخذه خليلا, و اتخذه خليلا قبل أن يتخذه اماما , فلما جمع له هذه الأشياء – و قبض على يده- قال له : يا ابراهيم اني جاعلك للناس اماما. فمن عظمها في عين ابراهيم عليه السلام قال: يا رب و من ذريتي؟ قال لا ينال عهدي الظالمين".

اقول: اذن يوجد خمسة درجات او مقامات في سلك الملكوت, رتبة العبد ثم النبي ثم الرسول ثم الخليل ثم الامام. فالامام هو أعلى هؤلاء. و طبعا لا يستطيع أحد أن يبلغ الدرجة الثانية الا ان ارتقى الدرجة الاولى, و لا يستطيع أن يصل الدرجة الثالثة الا ان تجاوز الدرجة الثانية, و هكذا, فكل صاحب درجة أعلى هو بالضرورة حائز على مميزات الدرجة الأدنى. و بالتالي, كون الباقر و الصادق عليهما السلام

قد جعلا الامامة أعلى رتبة فاذن الامام حائز بالضرورة على كل مميزات و حقائق و علوم من دونه, اي الامام هو عبد و نبي و رسول و خليل و زيادة. هذا هو المعنى الحقيقي لمثل هذه الرواية. و هو ظاهر عليها لا يحتاج الى عبقرية لادراكه. فهذا المعنى محكم. فكل معنى يخالفه هو متشابه, او صادر على وجه تقية أو أي وجه اخر لا يهم. فكون الامام هو الحائز على الرتبة الأعلى في المقامات عند الله هو حقيقة تبينها هذه الرواية و غيرها.

2 في اصول الكافي عن الامام جعفر الصادق عليه السلام يقول في رواية طويلة نسبيا يصف فيها الامام من ذرية علي عليه السلام نذكر منها هذا المقطع المهم لنا " و جعله الحجة على عباده, و قيّمه في بلاده, و أيده بروحه و آتاه علمه, و أنبأه فصل بيانه, و استودعه سره, و انتدبه لعظيم أمره, و أنبأه فضل بيان علمه "

أقول: و هذا كله علاقة بين الله تعالى و الامام, علاقة مباشرة بينهما, فهذا التأييد بالروح –في روايات أخرى انه روح القدس "لا يفارقهم روح القدس و لا يفارقونه" كما يقول الامام عليه السلام– و هذا الايتاء للعلم, و الانباء الذي ذكر مرتين و معلوم ان أصل كلمة نبي يرجع الى الانباء, و الاستيداع للسر و الانتداب لعظيم الامر و غير ذلك, كلها أمور بين الله تعالى و الامام, و ليس أن الامام السابق قد أعطى هذه الأمور للامام اللاحق و ان كان قد أورثه علمه و صحف فيها علم كما سنذكر لاحقا, و لكن هذه الرواية تبين علاقة بين الله و الامام كما هو ظاهر عليها. التأييد بروح القدس أليس من خصائص الأنبياء بل أعظم الانبياء كعيسى ؟ ان الله تعالى قد ذكر أنه اختص عيسى بأمر و هو "و أيدتك بروح القدس" و لم يذكر مثل هذه الخاصية لغيره من الانبياء, فلولا أنها خاصية عظيمة لما ذكرها الله تعالى بالطريقة التي ذكرها بها. و لكننا نرى الامام هنا يؤيد بروح القدس, بل ان عند مدرسة الصحابة نراهم يقولون أن الشاعر حسان بن ثابت كان يؤيده روح القدس أيضا في بعض المواضع. التأييد بروح القدس ان لم يكن دليل على النبوة بل و اكبر من النبوة فقط فهو دليل على ماذا ! و هل احد اوجه استمرارية الوحي التي ذكرناها في هذا الكتاب الا التأييد بروح القدس. و تأمل كلمة الانباء التي وردت في الرواية مرتين, وكأنها للتأكيد "أنبأه فصل بيانه..أنبأه فضل بيان علمه". لو كان الامام عليه السلام يريد بكلمة الانباء هنا مجرد الاعلام بالمعنى الشائع الضبابي للاعلام, لقال بدل أنبأه "أعلمه فصل بيانه..أعلمه فضل بيان علمه". و لكن استعمال كلمة أنبأه له دلالة خاصة. فالعلماء الربانيين لا يستعملون الكلمات جزافا, فالكلام عندهم بميزان, و السرد عندهم مقدّر و موزون. فالامام كما في هذه الرواية و غيرها يتلقى الوحي كالنبي, بل في ضوء الرواية السابقة (1) يمكن استنباط هذه الحقيقة بدون الحاجة لهذه الرواية الثانية, فطالما أن الامامة

أعلى من النبوة في الدرجة, بل أعلى منها بدرجتين, فان اشتمال رتبة الامامة على الوحي النبوي يعتبر من الأمور البديهية المسلمة.

3 في أصول الكافي عن الامام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال فيما قال "ان الله لا يجعل حجة في أرضه يسأل عن شئ فيقول لا أدري ".

أقول: الحجة كل حجة, و جعفر هنا يتحدث عن الأئمة –و هو أحدهم بالطبع عند نفسه على الاقل و شيعته- فالامام الحجة يعرف كل شئ. فهذه الرواية تثبت بظاهرها ان علم الامام يمكن ان يسع كل أسئلة البشر, في زمنه هو على الاقل. فهذه الرواية لا تثبت علم الامام المطلق بكل شئ مما يمكن الاطلاع عليه, و لكن يوجد روايات أخرى تثبت ذلك مثل رواية في كتاب بحار الأنوار عن الامام الباقي ان علي بن ابي طالب قال فيما قال " علم النبي علم جميع النبيين...و الذي نفسي بيده اني لأعلم علم النبي صلى الله عليه و آله, و علم ما كان و ما هو كائن فيما بيني وبين قيام الساعة" و هذا أيضا يمكن أن نستبطه من الرواية الاولى (1) فكون الامامة أعلى من النبوة يعني بالضرورة أن علم جمييع النبيين عند الامام. و في البحار رواية اخرى عن الامام الصادق أنه قال "ان الله أجل و اعظم من أن يحتج بعبد من عباده ثم يخفي عنه شيئا من أخبار السماء و الأرض" و في أخرى "الله أحكم و أكرم من أن يفرض طاعة عبده و يحجب عنه خبر السماء صباحا و مساءا" . و هذه دعوى خطيرة لا يمكن لغير من يعلم أن دعواه صادقة أن يدعيها, لان اختبار مدعيها سهل جدا و بالتالي اكتشاف كذبه أسهل و أسهل, و لا يوجد عاقل بل و لا غافل يمكن أن يدعي أنه يعلم كل شئ و أن الله يعلمه كل شئ كأن يقول كما روي عن جعفر في أصول الكافي "اذا أراد الامام أن يعلم شيئا أعلمه الله ذلك" ثم يكون دجالا أو مغرورا. فمثل هذه الدعاوى ان كانت فعلا قد صدرت من الأئمة العلويين كعلي بن ابي طالب و جعفر و غيره فهم أحد رجلين لا ثالث لهما: رجل بلغ القمة المطلقة في الحماقة , أو رجل بلغ القمة في الالوهية أو الامامة ان شئت. و حيث انهم باجماع الناس لم يكونوا حمقى, فلا أرى وجها لهذه الروايات ان كانت فعلا صادرة منهم الا أن يكونوا صادقين فعلا و هم من يدعون أنهم هم. على اية حال, فان كون الامام بعد النبي محمد عليه السالام له مقام المعرفة الشاملة المطلقة هذه- باذن الله طبعا كما يقولون هم انفسهم- فان هذا المقام أعلى بكثير من مجرد القول بان النبوة مستمرة بعد سيدنا محمد عليه السلام, فأين هذا من ذاك ! فتأمل.

4 في أصول الكافي عن الامام موسى الكاظم عليه السلام أنه قال " مبلغ علمنا على ثلاثة وجوه: ماض و غابر و حادث. فأما الماضي فمفسر, و أما الغابر فمزبور, و اما الحادث فقذف في القلوب و نقر في الاسماع, و هو أفضل علمنا. و لا نبي بعد نبينا ".

و في رواية أخرى عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه سئل عن الفرق بين الرسول و النبي و الامام فكتب " الفرق بين الرسول و النبي و الامام: ان الرسول: الذي ينزل عليه جبرئيل فيراه و يسمع كلامه و ينزل عليه الوحي, و ربما رأى في منامه نحو رؤيا ابراهيم. و النبي: ربما سمع الكلام و ربما رأى الشخص و لم يسمع. و الامام: هو الذي يسمع الكلام و لا يرى الشخص".

أقول: ما معنى استمرارية النبوة؟ معناها انه يمكن أن يتنزل وحيا من عند الله تعالى بعلم و حكم, بغض النظر عن وسيلة هذا التنزل او مذهب المتنزل عليه. أصل الموضوع هو استمرارية الصلة الوحيانية بين الله و عباده. و أما وسيلة هذا الاتصال فمسألة ثانوية. تأمل هذا الفرق جيدا بين أصل الموضوع و بين الفروع الثانوية. هذا أولا. و ثانيا, معظم هذا القرءان الكريم ليس شرائع و لكنه علوم, فما يسمى ايات الاحكام الشرعية هي نحو 500 اية, و القرءان نحو 6200 اية, فاذن عدد ايات الاحكام الشرعية (و هنا نتنزل مع الاخرين من أجل الحوار الحالي فقط فان لنا نظرة أخرى لهذه المسائل) أقل من 10% من القرءان الذي هو كتاب الله و المظهر الأعظم للوحي الالهي. مع العلم بان باقي الايات يمكن ان تستنبط منها أحكام شرعية من باب الاعتبار و المقاصد و غير ذلك مما يعرفه دارسو الشريعة. و هنا مسألة مهمة جدا, و هي أن معظم الوحي علوم و ليس شرائع. و أصلا الشرائع بنيت على العلوم. فمن أوتي العلوم فقد أوتي الشرائع ضمنا. و لكن من أوتي الشرائع ليس بالضرورة قد أوتي العلوم. فقد تعلم مثلا ان الحكم الشرعي في مسألة ما هو كذا, و لكنك لا تعرف أي شئ عن مقاصد هذا الحكم أو أسراره أو العلم الذي بني عليه و يتضمنه و غير ذلك, و لكنك تعلم الحكم ما هو بالقدر الذي يجعلك تستطيع أن تنفذه و تعمل به و كفى يعني كالحمار الذي يسوقه راكبه, فالحمار يعلم أن عليه أن يتحرك في جهة معينة لان الراكب قد أعطى الحكم و الأمر عن طريق ضربه مثلا أو شده نحو جهة معينة, و لكنه لا يعلم أي شئ عن المكان الذي سيقصده و لماذا و لا أي شئ من العلم بالموضوع. و لعلنا نفصل في ذلك أكثر عندما نأتي على تحليل نظرية الصوفية في استمرارية الوحي. و القدر الكافي هنا هو هذا: الوحي الالهي – كما هو القرءان العظيم- معظمه علم, و الحلال و الحرام أقل القليل فيه. و حتى الحلال و الحرام (الحكم) انما هو مبني على علم و مفصل على علم و لا يقوم به حق القيام الا أهل العلم. فاذن يمكن ان نقول أن "الوحي علم" من باب تسمية الشئ بمعظم ما يمثله بل كل ما يمثله. فالعلم هو مضمون الوحي, و الوحي هو احدى وسائل توصيل العلم. و الوحي في اللسان هو : الاسراع و الخفاء و الاعلام. فالوحي هو الاعلام السريع الخفي. " و ما

أمرنا الا وحدة كلمح بالبصر" "فأوحي الى عبده ما أوحي" "انا أنزلناه في ليلة مباركة". و أما خفاءه فمن باب أنه يتم في القلب الخفي بالنسبة الى عالم الظاهر. "نزل به الروح الأمين على قلبك". فعندما نقول أن "الوحي مستمر" يعني أن هذه الوسيلة في توصيل العلم من قبل الله لخلقه مستمرة. و كذلك انه يوجد علوم يمكن أن تتنزل على قلوب الناس من الله تعالى. و أما امكانية تنزل الشرائع أم لا فلنبحثها ان شاء الله عند الحديث عن نظرية الصوفية التي تقول ان الوحي تنزل على الاولياء بالعلوم دون الشرائع لان الشريعة انتهت بالنبي محمد عليه السلام.

و الان نرجع الى هاتين الروايتين عن الامام الكاظم و الرضا عليهما السلام. يقول الكاظم " و اما الحادث فقذف في القلوب و نقر في الاسماع, و هو أفضل علمنا. و لا نبي بعد نبينا " فأفضل علم الامام ليس المزبور و انما الحادث اي الامور التي لم تحدث بعد, مسائل لم تحدث بعد, فالعلم فيها مستحدث يلقيه الله تعالى في قلب الامام. فيمكن ان نستفيد من مجمل روايات الكافي و غيره أن علم الامام له ثلاثة منابع: الالقاء المباشر و الالهام كما هو قول الكاظم هنا, ثم العلم بالقرءان الكريم الذي يعلم الامام كل ما فيه, ثم العلم الذي ورثه الأئمة من الصحف التي كتبها علي عليه السلام باملاء النبي عليه السلام. مع العلم أن كلمة "الالهام" هي كلمة يستعملها الناس للابتعاد عن كلمة "الوحي" التي يخافون منها بسبب عقيدة انتهاء النبوة. مع العلم أن مضمونها واحد في الحقيقة. فالوحي و الالهام هما مجرد وسائل, و لكن الغاية هي العلم و الحكم الذي يبلغ الموحى اليه أو الملهم. فتغيير اسم الوسيلة لا يغير الغاية و انما يحجب بعض حقائق الغاية و في النهاية سيحرف الغاية, فكما نعلم فان الوسيلة اذا انحرف انحرفت الغاية معها. و لا أدري ماذا حل في قلوب هؤلاء الناس الذين لم تعجبهم كلمات القرءان فلم يلزموها. ان الله استعمل كلمة الوحي مع أم موسى و استعمله مع النحل, بالرغم من أن القوم لا يعتقدون بأن أم موسى من الانبياء, و لا أدري ان كانوا يعتقدون أن النحل عندهم أنبياء أيضا ! الزموا ما لزمه القرءان ان كنتم به تؤمنون, و كفوا عن التحريف و الهروب من كلمات قرءانية الهية بسبب عقائدكم و ذرائعكم.

و تأمل الفرق بين الرسو ل و النبي و الامام عند الرضا عليه السلام ,

"الرسول : الذي ينزل عليه جبرئيل فيراه و يسمع كلامه و ينزل عليه الوحي, و ربما رأى في منامه نحو رؤيا ابراهيم.

و النبي: ربما سمع الكلام و ربما رأى الشخص و لم يسمع.

و الامام: هو الذي يسمع الكلام و لا يرى الشخص."

ما يكفينا في هذا البحث هو كونه وصف الامام بأنه " يسمع الكلام ". كلام من ؟ كلام الله طبعا مباشرة أو كلام الله الذي ينقله جبرئيل. فهو بدأ بوصف الرسول بانه الذي "ينزل عليه جبرئيل فيراه و يسمع كلامه". فهنا يرجع الكلام الى جبرئيل. "يسمع كلامه" هذه الهاء ترجع الى جبرئيل. و لكننا نعلم بان جبرئيل لا ينزل الا باذن الله و برسالة الله و بالحق. فكلام الله يبلغه جبرئيل و الملائكة بحسب سلسلة العوالم, كما أن الله يتوفى الانفس و لكن الذي ينفذ هذا الامر في العوالم الأدنى هو ملك الموت و جنود الملائكة. فالعوالم لها تدرج و تسلسل من الأعلى و الادنى. و ان الى ربك المنتهى. فكل شئ يرجع الى الله تعالى في نهاية الأمر "و اليه يرجع الأمر كله". فحتى هذا القرءان يسمى كلام الله بالرغم من أن القرءان نفسه قد قال عن نفسه "انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش المكين" فالقول القرءاني منسوب الى هذا الرسول الكريم أي جبريل "قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك". و لكن تسمية جبريل بانه "رسول" يدل على انه مبلغ رسالة و ليس منشئها من عقله و هواه- حاشاه. و النبي كما يقول الرضا هو " ربما سمع الكلام, و ربما رأى الشخص و لم يسمع " فالكلام هنا مطلق, فيمكن اخذه على ظاهره و جعله مطلقا فيكون منسوبا الى المطلق سبحانه مباشرة, أو يمكن تقييده بقرينة استمرارية الكلام عن جبريل, فيكون الكلام هو لجبريل و عائدا الى الله بعد ذلك, بالرغم من أنه يوجد فرق كبير بين أن يكون الكلام من الله مباشرة مع العبد و بين أن يكون بواسطة ملك من الملائكة أو كتاب من الكتب, كما سنرى هذا الفرق في نظرية الصوفية في المسألة. و نتسائل هنا عن معنى الشخص, اي ان النبي "ربما رأى الشخص و لم يسمع" فما الفائدة اذا لم يسمع وحيا ؟ قد يكون الشخص هو مثال يراه النبي فيؤوله و يعبر الى باطنه بقوة عقله. و لكن "الشخص" تعني شخصا! و ليس مثالا كما هي رؤيا اليقظة أو الصورة المتخيلة التي يلقيها الله على عقل العارف. و في رواية اخرى في الكافي أن النبي "الذي يرى في منامه و يسمع الصوت و لا يعاين الملك..و الرسول الذي يسمع الصوت و يرى في المنام و يعاين الملك..و الامام يسمع الصوت و لا يرى و لا يعاين". فهذه الرواية تنفي رؤية النبي للملك. ففي رواية تثبت رؤيته و في رواية تنفيها. فقد يكون "الشخص" هو المثال كما تاولنا, و يكون "الملك" بمعنى فرد من الملائكة, و قد يكون نفي رؤية الشخص الملك هو بمعنى انه لا يراه و يسمع منه في نفس الوقت. و بدون أن نخوض في معنى هذه الفروقات و اثارها, فان ما يهمنا هنا هو معرفة الامام لان الامام هو الذي يستمر بعد النبي. فالامام اذن "يسمع الكلام..يسمع الصوت". و كونه لا يرى الشخص او الملك مع كون النبي و الرسول يرى الشخص و الملك, هل هذه منقصة في الامام أم علو في مقامه؟ في ضوء الرواية الأولى المحكمه الواضحه (1) يجب أن نعتبرها من مقتضيات علو شأن الامام. و لكن يغلب على الناس- و بعض الشيعة الامامية بحسب اطلاعي المحدود- أن يعتبروا ذلك نقصا في الامام. كل ما يقال في مسألة الفرق بين النبي و الرسول و الامام يجب أن يكون محكوما بمضمون الرواية المحكمة التي ذكرناها, و هي رواية مشهورة جدا بين الشيعة الامامية خصوصا فهي اية الامامة الوحيدة تقريبا في القرءان و عليها مدار اثبات الامامة قرءانيا كما يرونها. فكون

الامام أعلى درجة من العبد و النبي و الرسول و الخليل, يعني أن سلب أي شئ عن الامام انما يكون بسبب علو درجته. فهذا هو مقتضى علو الدرجة و تقدم الرتبة. و بهذا يكون الفكر الامامي متسقا مع نفسه. و على ذلك, يجب أن نعتبر كون الامام يسمع كلام الله بدون وسيط احد الملائكة كجبريل, أو بدون أن يرى شخص الملك و يسمع منه, انما هو دليل على أن الامام يسمع كلام الله مباشرة منه تعالى. و هذا في القرءان في قوله "و ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم". فأعلى الدرجات "وحيا" مباشرا من الله, ثم "من وراء حجاب" و عندي أنه حجاب الامثال و الكتب و ليس هنا محل تفصيل هذا الاستنباط, ثم اخر درجة هي "يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء" و من هذه الدرجة الثالثة جاء هذا القرءان الكريم "انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين". فكون الدرجة الثالثة هي "رسولا يوحي باذنه" دليل على أن الدرجة الاولى و الثانية خلو من هذا القيد. فتكون الاولى وحيا مباشرا من الله تعالى و لذلك لا حاجة للرسول من الملائكة فضلا عن الناس و لا حاجة طبعا لوجود اذن الله لان الله نفسه هو الموحي. و تكون الدرجة الثانية أيضا خلو من الرسول, و الحجاب ليكون وسيلة للكلام يجب أن نعتبره احد الامور التي تخفي كلام الله وراءها, و ليس هذا الا في الامثال الافاقية كشروق الشمس و نزول المطر, و لذلك ترى مثلا ان القرءان العربي يتحدث عن نزول المطر على انه من ايات الله, فما الفرق بين أن ترى المطر نازلا و بين أن يحدثك عنه القرءان؟ لا فرق حقيقي, بل الاول أعلى, فأنت لكي تفهم قول القرءان عن نزول المطر يجب أن تكون قد رأيت مطرا نازلا أحي الارض بعد موتها, فالاية الافاقية هي أصل الاية القرءانية العربية. كلاهما من ايات الله و لكن الوسيط مختلف. في حالة الاية الافاقية و النفسية مثلا يكون نفس الاية هو الاية, و أما في حالة كون هذا القرءان العربي يحدث عنها فان الاية تكون أولا هي الكلام العربي المكتوب في المصحف, ثم هذا الكلام يرجعك الى الاية الافاقية التي يتحدث عنها, ثم بعد ذلك تتأملها و تعتبرها و تصل الى جوهر كلام الله الذي يتوارى وراء حجابها. و من هنا كان الوحي "من وراء حجاب" أعلى درجة من " فيرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء". فكلما كان الكلام اقرب الى الله كان الكلام أعلى درجة. و ظاهر أن كون الدرجة الثانية "من وراء حجاب" دليل على أن الدرجة الاولى اي "وحيا" لا يوجد عليها حجاب. و من هنا قلنا أنها وحي مباشر من الله. مباشر اي ليس من وراء حجاب مثل و لا وسيط رسول ملائكي او انساني نبوي او كتابي. و قد عرف الصوفية ذلك فاثبتوا وحيا مباشرا من الله للولي بدون وسيط. فهذه ليست نظرية صوفية, بل هي عين الحكمة القرءانية. فاذن الامام الذي "يسمع الكلام و لا يرى الشخص, او " يسمع الصوت و لا يرى و لا يعاين" هي دليل اخر على كون الامام هو الانسان في أعلى درجاته في السلّم الالهي العرفاني. و اما كونه لا يصل الى هذه الرتبة الا 12 انسانا فقط فهذه دعوى الفكر الامامي و عليها ما عليها و لست هنا بصدد نقدها. و كرد مجمل اقول للامامية: أنتم تثبتون لفاطمة الزهراء عليها السلام كل هذه المقامات و أكثر و هي ليست من ال12. ثم انه ليس عند الله بخل و لا تحجير و ان الله لا يحجب من يريد أن يصل

اليه باخلاص و الله واسع عليم. و ليس في القرءان الكريم اي اشارة على انه لا يصل الى هذا المقام, اي الوحي المباشر من الله, الا 12 فردا, بل انه لم يذكر اسم من أسماء هؤلاء ال12 فردا. و أنا أعرف كل الحجج التي تردون بها على عدم ذكر أسماء الأئمة في القرءان و كلها لا تسمن و لا تغني من جوع. و أعرف انكم ستقولون: و لكن الله لم يفصل الصلاة و الحج في القرءان حتى جاء النبي و عينها. و غير ذلك من حجج لا قيمة لها في هذا المقام. نعم, ولاية علي عليه السلام بعد النبي الاول قد ترجحت و لي طريقي في ترجيحها من الحيثيه التاريخيه ذكرته في كتابي (هل القرءان يؤسس لدولة؟) بل حتى لو ثبتت امامة الائمة الاثنا عشر عليهم السلام, فانه لا يلزم من هذا بالضرورة أن يكون مقام الوحي المباشر من الله تعالى حكرا عليهم او على غيرهم. هذا فقط ما أرفضه. احتكار المقامات الواسعة عند الله تعالى مرفوض.و ما سوى ذلك له شأنه الخاص كخلافة النبي و المرجعية في الأمة وما شابه.

حسنا, فما معنى قول الكاظم بعد ذلك "و لا نبي بعد نبينا" ؟ في ضوء ما ذكرناه تدخل هذه الجملة تحت بند التقية او ما له تأويله عند الامام و لا يمكن اعتبارها مقصودة لظاهرها. و لولا أن الكاظم كان يعلم أن قوله أن من علم الامام " قذف في القلوب و نقر في الاسماع" يدل على وحي خاص لما ذكر هذه الجملة بعد ذلك. "لا نبي بعد نبينا" ما المقصود منها؟ لا علم بعد علم نبينا؟ هذا مرفوض واقعيا لان الكثير من العلوم المختلفة قد ظهرت و تكشفت و تفسرت بعد وفاة سيدنا محمد عليه السلام. بل الأئمة العلويين أنفسهم كانوا يأتون بعلم جديد و ما هذا الكلام و التفصيل كله الا دليلا على ذلك. و لا يقال أن الائمة ذكروا ان علمهم موروث عن جدهم عليه السلام, فان الروايات تثبت أن للامام علم خاص يتلقاه من الله تعالى مباشرة, فضلا عن أن معاني النصوص الموروثة عن النبي كهذا القرءان او الصحف التي يدعي الائمة العلويين انها عندهم, معاني هذه النصوص تحتاج الى تأييد الهي حي لفهمها. و ان كان المقصود انه لا يوجد كلمات جديدة ستوجد بعد النبي, فهذا مرفوض ايضا سواء واقعيا أو حتى على مستوى فكر الأئمة العلويين أنفسهم, فهم قد جاؤوا بكلمات جديدة و نصوص كثيرة جدا. و أما أنه لا توجد مسائل جديدة بعد النبي, فهذا أيضا مرفوض, فقد ذكرت الكثير من المشكلات و المسائل على مختلف الاصعدة لم تكن موجودة في عهد مولانا محمد عليه السلام, و قد عالجها الأئمة و الروايات عنهم مستفضية في هذا الشأن. فاذن كل الاحتمالات مرفوضة و أول من يدل على أنها مرفوضة هم الأئمة أنفسهم . فما معنى "لا نبي بعد نبينا"؟ لا يهمنا كثيرا. و لكن يمكن أن نتأولها بان المقصود ان النبي بالمعنى الملكوتي الذي هو واسطة فيض الانوار على العوالم, هو النبي الوحيد في الوجود, اي واسطة نور الله الوحيدة. و قد يكون المقصود ان الائمه العلويين يدورون في فلك نبوه محمد في حدودها، لا اقل في علاقتهم بالائمه المحمديه هذه.

5 و أخيرا يوجد رواية في روضة الكافي عن الامام جعفر الصادق عليه السلام انه قال "ان الله عز ذكره أذن في هلاك بني أمية بعد احراقهم زيدا بسبعة أيام"

اقول: زيد هو زيد بن علي رأس الشيعة الزيدية او التي تنتسب اليه, و هو الذي ثار على الأمويين فقتلوه و صلبوه و احرقوه و نثروا رماده. و هذا الأمر قد وقع في أيام جعفر الصادق, و في هذه الرواية يتنبأ جعفر بل أكثر من أن يتنبأ بل هو يتحدث كمن يجالس الله في ديوانه, و سمع الله يأذن بهلاك بني أمية, و فوق ذلك يحدد بعد كم يوم بالضبط جاء هذا الاذن ! من يقول مثل هذا الكلام لا يكون ممن يعتقد بانتهاء النبوة أو موت الوحي أو موت هذا الاتصال الغيبي بالله تعالى. تأملها جيدا ترى عجبا.

فالحاصل, أن الأئمة العلويين كانوا يعتقدون بان الوحي مستمر, بل النبوة نفسها مستمرة لان الامامة أعلى من النبوة فمن باب أولى أن تكون مستمرة. فاذا استمر الأعلى استمر الأدنى بداهة. فمن باب العلوم قد كشف الأئمة علوما و فصلوا علوما و نصوصا لم تكن موجودة من ذي قبل و كلها نصوص معصومة عن الخطأ و هي صفة الوحي, هذا ما يعتقده الائمة انفسهم و يعتقده الشيعة في نصوص أئمتهم. و ليس الوحي الالهي الا النص الحقيقي المنسوب الى الله(مع ملاحظه ان كل حقيقه فهي حتما منسوبه الى الله الذي هو عين الحق و روحه). و هذه هي الصفة التي تعطى لكلام الائمة. و أما من حيث التشريع, فان الأئمة العلويين قد شرعوا أمورا لم تكن موجودة على عهد مولانا محمد عليه السلام, و كمثال بديهي هو عيد الغدير أو بعض الاذكار و الاوراد في مناسبات و لحاجات معينة او بعض الامور التي طرأت في عصورهم و لم تكن موجودة من ذي قبل. و التشريع تشريع سواء كان تفريعا على نص سابق أو ادعاء بأن حدثا معينا هو مصداق لنص عام أو قياسا على علة ثابتة أو معتبرة و غير ذلك. فكل أمر بفعل ينسب الى دين الله هو شرع. و مما يلفت النظر أن الائمة العلويين كانوا متشددين جدا ضد القياس, و القياس هو وسيلة جعل النصوص المحدودة لحوادث محدودة مستمرة الى ما لا نهاية. فالقياس هو وسيلة جعل الدين المحدود غير محدود. و معرفة مقاصد الشريعة هو وسيلة أخرى و هي قريبة من القياس و لها علاقة مهمة به. فكيف تنكر القياس و تنكر استمرارية النبوة و مع ذلك تدعي أن الدين قد كمل في عهد مولانا محمد عليه السلام؟! هذا لا يستقيم أبدا. اما القياس و اما استمرارية النبوة و التشريع. اختاروا احبهما اليكم. المدرسة السلفية قد اختارت طريق القياس, و لذلك مؤسسي القياس هم اما شخصيات يعظمها اهل السنة خصوصا, و اما أئمة المذاهب السنية أنفسهم كأبي حنيفة رحمه الله. و هنا ملاحظة لها وزنها: و هي أن الشيعة الامامية قبلو القياس الى حد ما و اهتموا بالبحث العقلي في النصوص و المقاصد الشرعية بعد ان غاب امامهم المهدي المنتظر الثاني عشر عليه السلام. فالمدرسة الفقهية المعروفة بالاصولية و التي لها

السيطرة على الساحة الشيعية منذ زمن يرجع الى بعد عهد الغيبة الكبرى بفترة تطول او تقصر, بعكس المدرسة الاخبارية التي تعارض هذا التوجه الى حد كبير. والفرق بين المدرستين يحتاج الى بحث خاص. و لكن المهم هو ملاحظة ان الاعتماد على العقل و اعماله في النصوص زاد بقوة ملحوظة بعد فقدان الشيعة الامامية لأئمتهم. و أما قبل ذلك فكانت نصوصا لا يجوز للعقل أن يخرج عنها بل يعمل فيها. و بالطبع و كالعادة سياتي أرباب المدرسة الاصولية و يستخرجوا روايات و ايات قرءانية تجيز القياس كما يرونه أو تظهر أن الائمة كانوا يجيزون العمل بالعقل و غير ذلك. فكالعادة, الحاجة ام الاختراع. و النصوص هذه يمكن أن تتسع تقريبا لكل شئ.

و هنا مسألة مهمة, و هي ان كان قوام فكر الشيعة الامامية هو ان الامة بحاجة الى امام معصوم كما وصفنا, فاذا سألناهم: و اين الامام الذي وجوده ضروري للامة و الوجود اليوم؟ سيقولون: غائب. ألا تعني غيبة الامام أو عدم وجوده مطلقا حسب اعتقاد الاخرين, ان الفكر الشيعي قد مات؟ اي, ان كان الامام هو كعبة الفكر الشيعي, فعدم وجود الامام في الأمة يشبه وجود الحرم المكي بدون كعبة ! لا قيمة له. فماذا سيفعل الشيعة بعد غيبة الامام؟ النص الواضح المشهور هو التوقيع الذي صدر من الامام الثاني عشر قبل غيبته الكبرى و الذي يقول فيه عليه السلام " و أما الحوادث الواقعة, فارجعوا فيها الى رواة حاديثنا, فانهم حجتي عليكم و أنا حجة الله". و بهذا الكلام "منح الامام المهدي الولاية و حق الحاكمية لجميع المجتهدين و المراجع الجامعين لشرائط التقليد" كما ذكر المرجع الشيرازي في فتواه. و هي مسألة ولاية الفقيه المشهورة. فبهذا التوقيع قد أعطى الامام المهدي حق النيابة عنه لكل مرجع جامع لشرائط التقليد كما تبينها كتب الامامية. و يقولون بانهم بهذا قد ثبت أن الشيعة الامامية هم وحدهم المتصلين بالسماء, أي لان عوامهم تبع لعلماءهم, و علماءهم تبع للامام المهدي, اي من جمع شروط الاجتهاد طبعا. و لكن, الا يعني هذا ان الشيعة الامامية في نهاية المطاف قد أصبحوا مثلهم مثل بقية الفرق الاسلامية (باستثناء الاسماعيلة و من لا زال سلك الامامة متصل فيهم بحسب عقيدتهم) اي أصبحوا مجتهدين في نصوص شرعية محدودة؟ فأي فرق اذن بين أن يقتصر المجتهد المسلم على كتاب الله تعالى مثلا, و بين أن يجمع الى كتاب الله كتب الروايات كالكافي و الاستبصار و بقية الكتب؟ بل قبل ذلك, كيف يقطعون الصلة بالله الحي عن طريق "وحيا أو من وراء حجاب" ثم لا يكتفوا بأن يقفزوا على "أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء" اي على القرءان, حتى يدعوا بأن الكمال و اتصالهم بالسماء قد تم لانهم أضافوا بضعة كتب روائية أخرى الى مصادر علمهم و شرعهم !؟ هذه مسألة لهم ليبحثوها.

و ان ما يهمنا في هذا الموضع هو مقام المرجع الديني الشيعي في ضوء هذا التوقيع الصادر عن المهدي عليه السلام؟ فكون المرجع حجة الله- بواسطة المهدي- على الناس دليل على أنه يجب أن تتوافر

فيه الشروط التي ذكرها الأئمة العلويين عن صفة حجة الله على الخلق. مثل قول الامام الصادق "ان الله أعظم من ان يحتج بعبد ن عباده ثم يخفي عنه شيئا من أخبار السماء و الأرض". و غير ذلك من صفات الحجة الذي هو الامام. و بالطبع لا يوجد شيعي واحد يجرؤ ان يدعي هذا المقام لنفسه او لغيره. فأي فائدة اذن !

أحسب انه يجب أن نتأمل في نفس نص التوقيع حتى لا نحمل النص دلالة ليست فيه. أولا النص لم يذكر شيئ عن مراجع التقليد بالمعنى المشهور لهذه الكلمة. فالنص يقول أن الرجوع هو "لرواة حديثنا". ما دلالة هذا؟ أولا, هم جمع و ليسوا واحد. فهل يستفاد من هذا أن الحجة التي نصبها الله تعالى بالمهدي هم جماعة و ليسوا فردا؟ لا يوجد الا هذا الحل. فلو أراد النص أن يعين فردا او يعين الشيعة على تعيين فردا بعينه لقال مثلا " فاختاروا أعلم الناس بحديثنا و هو حجتي عليكم و انا حجة الله" و لكنه لم يفعل. فضلا عن انه لو فعل لاسقط قيمة العقيدة الامامية من أساسها و التي تنفي شرعية تنصيب الناس حجة لانفسهم, و تحصر حق هذا التنصيب بالله عز وجل الذي يبلغ رسوله أو الامام من هو الحجة الذي بعده, كما عين النبي علي, و هكذا. فرواة حديثنا جماعة. اي ان الحجة لجماعة رواة حديث الأئمة العلويين. و الواجب عندي في هذا الامر هو ان يكون الشيعة لانفسهم مجلسا كالسنهدرين اليهودي يكون هو المرجع لاصدار الفتاوى و غير ذلك من شؤون الدين, و لا يمكن اعتبار الحوزات العلمية كحوزة النجف الاشرف و حوزة قم على أنها تقوم بالدور الذي يتطلبه نص الامام المهدي عليه السلام. أولا, لان الحوزات العلمية هذه لم تنشا الا لاحقا و بمبادرات فردية كأصل. فمثلا حوزة النجف الاشرف انما تأسست بمبادرة الشيخ الطوسي في نحو عام 448, و الغيبة الكبرى بدأت في سنة 329, أي بعد نحو 110 سنة. و اما حوزة قم المقدسة فقد تأسست بمبادرة الشيخ عبد الكريم الحائري في نحو عام 1340 , اي بعد ألف سنة من الغيبة الكبرى. و على ذلك يكون "رواة حديثنا" بحسب ما عمل به الشيعة الامامة لا تعني جماعة مخصوصة او انه يجب تكوين جماعة, و انما كل من يعرف حديثهم يمكن أن يكون حجة. و لاحظ ان التوقيع المهدوي لم يحدد شروط غير "رواة حديثنا" و كلام الامام المفترض أنه معصوم و فصيح و دقيق و موزون, فكونه لم يذكر الا "رواة حديثنا" و لم يقل مثلا "العلماء بحديثنا" او "اهل الدراية بحديثنا" أو "اهل التفقه في حديثنا" فهذا يعني ان أي شرط علمي اضافي يزاد على مجرد "رواية" حديثهم انما هو شرط خارج عن نفس النص و من اجتهادات او اختراعات واضع الشرط. فقد تكون اجتهادات ماخوذة من روايات أخرى, و لكن اي شرط يضاف على "رواة حديثنا" كالصفات الاخلاقية او القدرات العلمية او الاصول العرقية انما هي وضع زيادة على النص و ضمنيا تطعن في كمال النص. فلو شاء المهدي لقال بهذه الشروط التي يضعها الان علماء الشيعة. و لكنه لم يذكرها. ففي مثل هذا المقام المهم و هو قبل الغيبة الكبرى لا أظن أن المهدي كان سيختصر الكلام اختصارا مخلا و يكون سببا للاختلاف من بعده.

و الملاحظة الثانية هي في قوله " فانهم حجتي عليكم و أنا حجة الله". كون الامام حجة الله فهمناه لان الله قد اعطاه علمه و تأييده و غير ذلك, فما وجه كون رواة حديث الائمة حجة المهدي؟ كونه علّق الاحتجاج بهم بكونهم رواة احاديثهم, فهذا يدل على أن العلاقة بين روايتهم للحديث و بين الاحتجاج بهم علاقة قوية بل عضوية. فهم لم يستحقوا تسميتهم ب "حجة المهدي" ان شئت, الا لانهم رواة حديثهم. و لكن منذ متى و الحجة الالهية على الناس تكون بمجرد رواية حديث بل حتى بدرايته ؟ منذ متى كان هذا هو الحال في الفكر الشيعي الامامي؟ أليس هذا خرق كبير لاصول احتجاج الشيعة على السنة؟

طبعا, كون الشيعة الامامية من بعد الغيبة الكبرى سيعتمدون على نصوص محدودة يعملون عقولهم فيها و يوسعونها لتشمل الحياة كلها , هذا يجعلهم من هذه الحيثية مجرد مجتهدين مثلهم مثل بقية الفرق المشابهة. فعلمهم أصبح يؤخذ "ميتا عن ميت" أو في هذه الحالة "ميتا عن غائب". طبعا سيقول البعض ان المهدي سيرعى المجتهدين كما ينتفع الناس بالشمس من وراء حجاب, ففضلا عن انه من كبار العلماء و المراجع الشيعة من لم يفهم معنى لذلك كما قال المرجع السيد حسين فضل الله عندما سئل عن كيف يستفيد الشيعة من المهدي في غيبته فقال "هذه التعليلات التي وردت في بعض الاحاديث من قبل أنه مثل الشمس يظللها الغمام, غير مفهومة" و لكنه ءامن و سلم كما يؤمن اي عامي بما يأتي من اخبار الغيب (طبعا قد يكون السيد يعرف الحكمة و لكنه لم يذكرها لسبب ما الله أعلم) فما بالنا نرى المجتعهدين الشيعة يختلفون فيما بينهم اختلافا مثل بقية الفرق و مجتهديهم؟ هذا يقدم نظرية و ذاك يقدم أخرى, هذا يعتمد على بعض النصوص و ذاك يعتمد أيضا على بعض النصوص, و لكل مجتهد قراءته. و لا يستطيع أحد أن يجزم بان المهدي يضئ طريق هذا المجتهد دون ذاك, اذ لا يوجد معيار موضوعي محايد لذلك. بل في أصل المنهج اختلف كبار علماء الشيعة, كاختلاف الاسترباذي صاحب المدرسة الاخبارية و غيره من أصحاب المدرسة الاصولية. و العجيب أن الاسترباذي كان يعتمد حرفيا على توقيع المهدي القائل "فارجعوا الى رواة حديثنا" و لكنه مع ذلك و بسبب بقية ارائه اعتبر انصار المدرسة الاصولية أن المدرسة الاخبارية على ضلال او غير كاملة في أقل تقدير. و انتصرت المدرسة الاصولية كما هو معروف و هي المعمول بمنهجها على نطالق واسع. فكيف يمكن لاحد أن يجزم مثلا بان المهدي كان يؤيد المدرسة الاصولية في منهجها و ليس الاخبارية؟ ستقول: ننظر الى حجج من أقوى. اقول: و منذ متى كانت الحجج العقلية و النقلية هي الفاصل الاخير بين المختلفين طالما أنهم كلهم مجتهدين و لكل منهم الحق في اجتهاده. فهذا هو اصل اختلاف المجتهدين في المدرسة السنية, و قد كان أصحاب الائمة العلويين يفتخرون بانهم يتبعون اماما فلا يختلفون, و يشبهون الامام بالقلب الذي يميز ما تأتي به الحواس فيعلم صحيحها من باطلها, كما هي الرواية التي تذكر مناظرة هشام بن الحكم في عهد جعفر الصادق. فلو كان العقل وحده يكفي لتمييز الحق و الباطل في الاجتهادات لانخرقت خرقة عظيمة في أصول الفكر الشيعي عموما و الامامي خصوصا. فالمجتهد يعتقد أنه على حق, و لكن الامام المعصوم بحضوره و عرض المسألة عليه اما أن يؤكد على صحة

اجتهاد المجتهد او يصححه له. و لكن قبل تصحيح او ابطال الامام المعصوم للمجتهد لا يوجد حجة فاصلة في المسألة, و كل مجتهد سيعتقد بانه على الحق المبين. أو لا أقل أن يقول كما قال الامام الشافعي رحمه الله "رأيي صواب يحتمل الخطأ, و رأي غيري خطأ يحتمل الصواب". فبغياب الامام المعصوم أصبح الشيعة الامامية كالمدرسة السنية من هذه الحيثية. و ان قال المجتهد الشيعي ان الامام المهدي يسدد خطاه, فان المجتهد السني سيقول ان النبي نفسه بل الله تعالى يسدد خطاه, و ما هي الا دعوى لا يمكن اثبات صحتها من بطلانها للاخرين و ان اعتقد صحتها المجتهد في ذات نفسه. و شتان بين ما تعرفه في نفسك و ما تستطيع ان تثبته للاخرين.

فاذن خلاصة نظرية الشيعة الامامية في استمرارية الوحي و النبوة بعد مولانا محمد عليه السلام يمكن أن نخلصها بكلمات: الامامة أعلى من النبوة, فالامام عنده درجة أعلى من درجة وحي النبي و الرسول, و الامام يعلم كل شئ يريده و الله يعلمه بذلك, و عدد الأئمة هم اثنا عشر حصرا. فاذن أصل المسألة أي استمرارية الاتصال بالله بالوحي بعد النبي عليه السلام هو أمر مسلم به عندهم. فالحمد الله. هذه هي النظرية الأولى.

(الأولياء الصوفية)

المبحث السادس و الأربعون من كتاب اليواقيت و الجواهر للشيخ الشعراني رضوان الله عليه المسمى : في بيان وحي الأولياء الالهامي و الفرق بينه و بين وحي الأنبياء عليهم الصلاة و السلام و غير ذلك. هذا المبحث هو سيكون موضوع تحليلنا و نقدنا الان ان شاء الله. ففيه تظهر نظرية الصوفية كما هي عند الشعراني و الذي يقتبس تقريبا في كل مقطع من المسألة بكلمات الشيخ الأكبر ابن عربي رضوان الله عليه من الفتوحات المكية. و لو رجعنا الى كتاب الفتوحات المكية لتحليل كل كلمة كتبها ابن عربي في مسألة وحي الأولياء فان هذا يحتاج الى اكثر من سنة من البحث في الكتاب نفسه أولا, ثم كتابة هذه الكلمات كلها في موضع واحد لنستطيع أن ننقدها و هذا سيأخذه بدوره بضعة ايام أو اسابيع, ثم تحليل كل هذه الكلمات و نقدها و سبر اغوارها قد يأخذ أيضا بضعة اسابيع او شهور ان لم يكن سنين, و هذا شأن الدراسات المطولة, و اما الشعراني فانه اختصر نظرية ابن عربي و ذكر أهم ما فيها في كتابه اليواقيت و الجواهر خاصة في هذا المبحث و لذلك سنكتفي به في هذا الكتاب. فتعالوا ننظر ماذا يقول شيخ الصوفية.

1 يكتب الشعراني "اعلم أن وحي الأنبياء لا يكون الا على لسان جبريل يقظة و مشافهة, و أما وحي الأولياء فيكون على لسان ملك الالهام و هو على ضروب: ...منه ما يكون متلقى بالخيال(كالمبشرات في عالم الخيال و هو الوحي في المنام فالمتلقى حينئذ خيال و النازل كذلك و الموحى به كذلك) , و منه ما يكون خيالا في حس على ذي حس , و منه ما يكون معنى يجده الموحى اليه في نفسه من غير تعلق حس و لا خيال ممن نزل عليه.. و قد يكون ذلك كتابة (و يقع هذا كثيرا للأولياء..علامة كون تلك الكتابة التي في الورقة من عند الله عز و جل حتى يجوز للولي العمل بها, الجواب..علامتها أن تلك الورقة تقرأ من كل ناحية على السواء لا تتغير كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها...لكن لا يعمل بها الا ان وافقت الشريعة التي بين أظهرنا) "

أقول: هنا نرى مرة أخرى أن الفرق بين الأنبياء و الأولياء ليس في كون أحدهم يوحى اليه و الثاني لا يوحى اليه. و لكن الفرق انما هو في "كيفية" هذا الوحي, اي في وسيلته. فالجوهر واحد بين وحي الانبياء و الأولياء, فكلاهما يتلقى كلام الله تعالى سواء كان علما أو حكما (و لنا تعليق على كونه حكما او شرعا بعد قليل ان شاء الله), فكلاهما يتلقى كلام الله, و لكن الانبياء لا يكون تلقيهم اياه الا بصورة واحدة و هي "لا يكون الا على لسان جبريل يقظة و مشافهة". و لعلك تسأل: أليس من الانبياء كابراهيم من جاءه الوحي في المنام؟ فلعل الشعراني سيجيبك: ابراهيم تلقى ذلك من حيث كونه ولي و ليس من حيث كونه نبي. فالصوفية يفرقون بين مقام النبي و مقام الولي. فمثلا, سيدنا محمد عليه السلام كان نبيا و كان وليا في وقت واحد. فمن حيث هو نبي و رسول له اختصاصات معينة, و من حيث هو امام و ولي له اختصاصات أخرى. و هنا وقع بعض من لم يوفقهم ربهم لادراك المعارف الصوفية في غلط كبير. و هو انهم لما وجدوا الصوفية أو الشيعة يقولون أن رتبة الامامة أو الولاية أعلى من رتبة النبوة و لو من بعض الحيثيات, قال هؤلاء الضعاف "انظروا الى كفر هؤلاء الزنادقة, يزعمون أن أئمتهم و شيوخهم أعلى من الانبياء الذين اصطفاهم الله على العالمين !" طبعا هذا اعتراض عقل ضعيف كما قلنا. فالامامية و الصوفية يجمعون على أن سيدنا محمد هو أعلى انسان في الوجود, لانهم ينظرون اليه كنبي و كولي او امام في وقت واحد. فمن حيث هو نبي له مقام, و من حيث هو ولي و امام له مقام اعلى. فعندما يقول الشعراني أن الانبياء يأتيهم الوحي عن طريق جبريل يقظة و مشافهة, فانه هنا يتحدث عن الوحي بالنسبة لمقام النبوة, و لكن قد تجتمع النبوة و الولاية او الامامة في شخص واحد, فيتلقى الوحي بالطرق التي يتنزل بها على الانبياء و على الاولياء كذلك. فهذا أولا.

و ثانيا, لاحظ ان مقام النبوة له طريقة واحدة لتلقي الوحي. و أما مقام الولاية فله عدة طرق. ما هي هذه الطرق؟ ذكر الشعراني في هذا المقطع أربعة طرق, و ذكر في مقطع اخر طريقة أخرى مهمة جدا و لعلها الاعلى, فاذن هو يحدد خمسة طرق يتلقى بها الاولياء الوحي من الله تعالى و هي: الخيال في النوم , خيالا في حس على ذي حس , معنى يجده الموحي اليه في نفسه (من غير تعلق حس و لا خيال ممن نزل عليه), كتابة في ورقة , بلاواسطة بل من الله مباشرة.

أما الوحي في المنام اي عن طريق الرؤيا فهو طريقة يقرها معظم المسلمين خاصة في تلك العصور الغابرة, و أما في يومنا هذا و مع بروز نظريات التحليل النفسي عن الاحلام , فان الاعتقاد بان رؤيا المنام قد تكون وحيا من الله قد تقلص قليلا , و تكاد لا تجده الا بين العوام و من شايعهم, و أما "المثقفين" و "المستنيرين" فأحسب أن الكثير منهم يرى ذلك نوعا من التخريف. بالرغم من أن بعض الابحاث العلمية الظاهرية التي يقوم بها الغرب أصبحت تؤيد قدرة الاحلام على التنبؤ و غير ذلك من قوى تسمى خارقة. و قد أصبح هذا العلم فرعا خاصا من فروع المعرفة و موضوع لبحث علمي ظاهري رصين. و لكن لا يخفى أنه حتى لو أثبتت هذه الدراسات كل القوى "الخارقة" فان هذا لا يعني أنها أثبتت ان الله تعالى او ملاك من ملائكته قد جاء برسالة الى هذا النائم. فما يثبته الصوفية و غيرهم للرؤيا في المنام و كونها قد تكون وحيا من الله للاولياء خصوصا هو امر أكبر من مجرد استشفاف شئ وقع في مكان بعيد عن النائم أو غير ذلك من قدرات تثبتها بعض الابحاث العلمية الظاهرية للاحلام. فرق كبير بين اثبات الرسالة و بين اثبات مجرد القدرة. الرسالة تأتي من كائن حي الى كائن حي وورائها قصدا عمليا او علميا, و لكن القدرة انما هي مجرد اكتشاف لقوة موجودة في الانسان سواء في جسمه أو نفسه على اعتبار, او في دماغه الجبار على اعتبار اخر, و لا يوجد قصد خاص صدر من كائن او كائنات حية معينة لاعلام هذا النائم بتلك الحادثة او تلك المسألة, و انما هي شئ يشبه الصدفة أو أحسن منها بقليل. فعندما يرى النائم مثلا ان أخوه الذي سافر الى قارة اخرى, يراه ميتا, ثم يستيقظ فيأتيه الخبر بأن أخوه قد مات فعلا, فهذا يقال عنه أنه قوة خارقة في الانسان و قدرة الاحلام على استشفاف الامور من وراء حجاب المكان و الزمان و ما أشبه. و لكن اذا تأمل هذ النائم في السبب او القصد الذي من أجله رأى هذه الرؤيا, فانه ان كان يرى الحلم بذلك مجرد قدرة خارقة و ليست رسالة من كائن حي (كما هو شأن معنى الوحي) فانه لن يرى هذا المنام الا كنادرة عجيبة يحكي قصتها في المجالس. أما معنى الوحي في المنام فهو شان اخر تماما. فالولي قد يرى مناما فيعتبره أمر من الله تعالى يقوم بسببه بأعمال لا تخطر على بال انسان عاقل متزن. كمثل ابراهيم عندما رأى مناما و فهم منه أنه عليه أن يذبح ابنه العزيز على قلبه. و كان سينفذ الامر فعلا كما هي القصة المعروفة. فابراهيم لم يتفل عن شماله ثلاثا عندما استقيظ أو يصرف الحلم بانه كابوس او غير ذلك, و انما اعتبره رسالة مباشرة من رب العالمين تأمره بان ينفذ صورة الحلم. فالذين يستدلون بالابحاث العلمية الظاهرية التي

تقوم بها الجامعات الغربية لكي يبرهنوا على صحة قول الاولياء بان المنام قد يكون وحيا او جزء من اجزاء النبوه و ما أشبه, يظهر انهم لم يلاحظوا الفرق الدقيق بين الحلم كقدرة و الحلم كرسالة. لاثبات قدرة الحلم لا نحتاج الا الى دراسة الأمر موضوعيا كما ندرس أعضاء الجسم ووظائف الكلية و الكبد و قدرة المثانة على احتباس البول و ما أشبه, و لا نحتاج الى دعاوى عريضة و استدلالات عقلية و نقلية و غير ذلك. كل مافي الأمر هو دراسة الظاهرة كما ندرس أي ظاهرة في هذا العالم الجسماني او الفيزيائي و كفى. و هو ما تقوم به بعض الجامعات الغربية. و اما أن ناتي الى هذه الدراسات و نستعملها لاثبات صحة الوحي للانبياء و الاولياء فهو أمر غريب و تلفيق عجيب لا يقوم به مدقق محقق. على أية حال, الشعراني هنا يثبت الوحي للاولياء بطريق الخيال في المنام.

و أما الطريق الثاني فهو "خيالا في حس على ذي حس" , و هذا الطريق لم يشرحه الشعراني هنا. و انما ذكر هذه الجملة ثم انتقل الى الطريق الثالث. فما معنى هذه الجملة؟ "خيالا" هو شئ يقع في قلب الانسان, فهو أمر باطني. و لكن ما معنى "في حس على ذي حس" ؟ الجواب: "خيالا في حس" اي يتخيل شخصا مثلا أمامه, يخيله متمثلا أمامه, "على ذي حس" اي على مستقيظ و ليس نائما كالطريق الاول. فهو "خيال" لان الشخص ليس موجودا فعلا في العالم الجسماني أمامه, و انما هو يتخيل ذلك, فهذا الشخص يكون موجودا بالنسبة للرائي فقط, فقد يكون مثلا يرى الخضر عليه السلام, و يكون الولي جالسا في المسجد مع جماعة من اصحابه, فيرى الخضر ماثلا أمامه, و لكن لا أحد غير الولي الرائي يرى الخضر, فهذا معنى "خيالا في حس". و "على ذي حس" على الانسان و هو في حال اليقظة. و الحق الذي نعرفه بالخبرة, أن هذا الطريق يكون في حالة ما بين النوم و اليقظة, فهي ليست نوما لان الرائي قد يكون قائما في صلاة, و هي ليست يقظة لأن الرائي قد لا يرى شيئا مما حوله, كمن يقوم في الصلاة فتقع له رؤية العرش الالهي , فلا هو نائم, و لا هو مستيقظ. الا أنه يوجد فرق بين أن "سافر" القلب الى عالم أخر, و بين أن يترا ءى له شئ و هو في الارض, و أحسب أن الشعراني بقوله "خيالا في حس على ذي حس" يتحدث عن الحالة الثانية, و التي مثلنا لها بحضور الخضر في مجلس الرائي و لكنه لا يراه أحد غير الولي. ما دلالة هذا الطريق؟ طلما انه "خيال" فكما قلنا هو شئ يقع داخل عالم القلب, و ليس عالم الجسم. و لكن طالما أنه "في حس" فهذا يدل على أن عالم الجسم قد اتحد بنوع من الاتحاد مع عالم القلب بالنسبة للولي. ففي المنام, كلنا نعرف أننا نشعر باننا في عالم الجسم و لكننا نكون في حلم فعندما نستيقظ يذهب كل شئ, فنحن نتوهم في الحلم بانه يوجد اتحاد بين عالم الجسم و الصور و عالم القلب الذي هو أنفسنا. فعندما نستيقظ يرجع الفصل بين عالم الجسم و عالم القلب. و اما عند الولي في هذا الطريق الثاني, فان عالم الجسم و عالم القلب يتحدا و يتطابقا و هو في حال اليقظة. فكانه يحلم و هو مستيقظ. و لكن صورة الحلم

لا تكون شئ متخيل مغاير لمحيط الحالم – كالنائم الذي يرى نفسه في مكان و حوله أناس غير المكان الذي هو نائم فيه فعلا, كأن يكون في مدينة فيحلم انه في غابة- لا ليس هذا هو حال الولي الرائي هنا. و انما صورة الحلم هي عين صورة المحيط الذي حوله. فان كان في مسجد و حوله أصحابه, او كان في مقهى او في السوق, ثم رأى الخضر مثلا, فان المحيط هو هو, و الفرق أنه يرى شخصا لا يراه غيره ممن حوله. و بالمناسبة هذه الحالة معروفة في الطب النفسي, و تقع لاناس ليسوا أولياء الله بالمعنى الصوفي. و يظهر أنهم يرونها و كأن عقل الرائي قد أسقط صورة موجودة في داخله على المحيط الخارجي. فأصلا نحن عندما نرى اي شئ فصورة هذا الشئ تمر عبر اعيننا فتعطي اعيننا اشارة للدماغ فيصور هذه الصورة داخل دماغنا, ثم نراها. و اسقاط هذا الشخص او الشئ الذي لا يراه غير الرائي – الولي في هذه الحالة- انما تكون بوضع صورة من الخيال على هذه الصورة المتواجدة في الدماغ. فصورة المحيط الذي حولنا موجودة في دماغنا, و صورة الشخص المتخيل أيضا موجودة في عقلنا, و الاسقاط او التركيب يكون بأن نأتي بالصورة المتخيلة الى صورة المحيط فنركبها عليه. و الذي لا يعي هذه العملية و هي تتم فيه يظن أن نفس المحيط الخارجي يحوي هذه الشخصية, فيتعجب من كيفية عدم رؤية الناس لها. و لعله يتهمهم بالعمى او العناد. فهذه الصورة المركبة – اي المكونة من صورة المحيط و الصورة المتخيلة- تكون أقوى كلما كان الانسان يرى انه أعظم من المحيط الخارجي, وان عالمه النفسي هو العالم الحقيقي و ما غيره وهم او خسيس. فعندها يصبح تركيز الانسان على حياته الباطنية أشد و أقوى. يصبح عالمه القلبي هو مصدر الحقيقة و محل تنزلها. و بالتالي عندما يرى شيئا في باطنه, و ان تعلق هذا الشئ بالمحيط الخارجي كما هو حال الصورة المركبة, فانه يعتبره موجود واقع في العالم الخارجي. و معلوم أن الصوفي هو من هؤلاء الذين يمكن أن نسميهم "مهوسين" بقلوبهم. فكل كلامهم عن القلب و تزكية القلب و علو القلب و تنزل الامر على القلب و القلب محور الوجود و الله لم تسعه أرضه و لا سمائه و لكنه وسعه قلب عبده, و انه لا يفلح الا من أتى الله بقلب سليم و الكثير من ذلك. فالصوفي عنده الاستعداد لمثل هذه الحالة التي ذكرناها. و لعل هذا هو السر الذي يجعل الله تعالى ينزل عليهم وحيه أحيانا بهذا الطريق. فمعلوم أن الامداد بحسب الاستعداد.

و أما الطريق الثالث فهو "معنى يجده الموحي اليه في نفسه (من غير تعلق حس و لا خيال ممن نزل عليه) ". و يظهر أن هذا هو عين الدرجة الاولى من الوحي التي ذكرناها عند النظر في قوله "و ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا". و تكاد تتطابق بل لعلها تتطابق مع الوحي الذي يكون عليه الامام الشيعي. فالولي يجد معنى في نفسه من غير تعلق حس و لا خيال, و الامام يسمع صوت الكلام بدون أن يرى الشخص و الملك. و لكن مع التامل الدقيق يظهر فرق بين الامرين. و هو ان "معنى يجده في نفسه" تظهر على انها صامتة, و لكن "يسمع الصوت او يسمع الكلام" فيها صوت، فيها كلام. و فرق بين

المعنى, وبين الكلام الذي له صوت. فالثانية تشبه الكلام الذي تسمعه في نفسك عندما تتكلم على الهاتف, فالمتكلم في الطرف الاخر يتكلم معك فتكون أنت متلقي "يسمع الصوت و يسمع الكلام و لا يرى الشخص". فالامام الشيعي مع الله مثل أنت عندما تتكلم في الهاتف مع شخص ما. تسمع الكلام و الصوت و لكنك لا ترى الشخص. و لكن الولي الصوفي هنا ليس كذلك, فالامر عنده أشد تجريدا, فلا يوجد متكلم على الطرف الاخر بالمعنى المشخص. و انما هو "معنى يجده في نفسه". حتى تأمل كلمة "يجده" و ليس يتلقاه أو يسمعه, فيدل على نوع من العلاقة الواعية بين مرسل و مستقبل. لا, و لكنه "يجده" فهو فجأة و بغتة يجد معنى ما في نفسه. و المعنى يدل على حقيقة الشئ الموحى به بدون صورته سواء صورة ألفاظ و كلمات أو صورة الوان و اشخاص (لعل هذا هو اقرب ما يمكن تأول به فكره الاحاديث القدسيه او ان الوحي من الله و لكن اللفظ من النبي). المعنى هو قمة التجريد في التواصل و المعرفة. فالمعنى عين الحقيقة. و اما الكلام و الصوت فهو رموز يجب أن يمر عبر عقل المستقبل ليترجمها و يفهمها ثم يصل الى حقيقتها. فالولي الصوفي أشد تجريدا و أقرب الى الجوهر من الامام الشيعي-بهذا الاعتبار. فالصوفي يجد معنى, و الامام يسمع كلام. و هنا مسألة دقيقة, و البحث كله دقيق: و هي أن الصوفي اذا أراد أن يوصل هذا المعنى الذي وجده الى الاخرين سيضطر أن يقع في تحريف عظيم للحقيقة أحيانا أو سيضطر الى استعمال لغة معقدة لعل معظم الناس لا يفقه منها شيئا, و الكلمة التي سيضعها الصوفي ليعبر عن المعنى الحقيقي الذي وجده انما سيكون باجتهاد منه, و لذلك يميل اكثر الصوفيه الى الصمت, لان وحيهم صامت و هم يخشون من تحريفه, و بما ان الله تواصل معهم بالمعاني الصامتة فهم لا يتواصلون مع الناس في الاصل الا بالمعاني الصامتة كذلك, لعله من باب التخلق بأخلاق الله ربهم كما تجلى لهم. و لكن الامام الشيعي الذي يسمع الكلام, فهذا يدل على ان الوحي الذي يتنزل عليه هو متنزل في الاصل ليتم تبليغه الى الناس. و لذلك تجد أن كلمات الائمة العلويين عموما في قمة العمق و العظمة و الفصاحة و الجمال, و تستطيع ان تشم رائحة كلام النبي في كلامهم, و على كلامهم نفس صبغة و مسحة كلام النبي عليه السلام. فالوحي يتنزل على الشخص بحسب دوره في الحياة. الصوفي في الاصل انعزالي, الامام في الاصل اجتماعي. فلذلك يتنزل على الاول الوحي الصامت, و يتنزل على الثاني الوحي المتصوت. فالولي الصوفي و الامام الشيعي هما كالباطن و الظاهر. كالخفي و العلني. كالسر و الجهر.

و اما الطريق الرابع, فهو الكتابة. و هذا طريق عجيب. المقصود هو ان الولي يجد ورقة مكتوب عليها الوحي الذي تنزل عليه. و الشعراني يفرق بين الولي القوي و الولي الاضعف. فالأضعف لا يجد الورقة المكتوبة الا بعد أن يستيقظ من النوم. و لكن القوي تنزل عليه الورقة و هو مستيقظ. و يذكر قصة عنه و عن ابن عربي انهم شهدوا على مثل هذه الحوادث. و العلامة التي ذكروها لمعرفة ان هذه الورقة المكتوبة من الله تعالى هي ان "تلك الكتابة تقرأ من كل ناحية على السواء لا تتغير كلما قلبت الورقة

انقلبت الكتابة لانقلابها" . فمثلا أنت الان تقرأ هذا الكتاب, لانك تحمله بطريقة معينة, و لكنك اذا قلبت الكتاب رأسا على عقب فستجد أن الكلمات كلها مقلوبة فلن تستطيع قراءتها عموما. و لكن الكتابة الالهية هنا تكون بطريقة انك مهما قلبت الورقة تستطيع ان تقرأ الكلمات و كانها موازية لعينيك بنفس الطريقة التي ترى أنت فيها الان هذا الكتاب و تقرأه. و الان, هل هذا كلام رمزي ام كلام جسماني؟ اي هل المقصود منه أنه جسمانيا تتنزل ورقة مكتوبة, أم أنها لغة صوفية رمزية تتحدث بلسان الامثال؟ اذا اعتبرناها رمزية, بالرغم من ان الشعراني يذكرها و كانها جسمانية, و لكن اذا افترضنا انها رمزية, فتكون الورقة هي صفحة القلب مثلا, و الكتابة هي كل حكمة او شعور يتعلق بالوحدة الالهية التي لا تتغير حقيقتها مهما كان الموضع الذي تنظر اليها منها اذ "فأينما تولوا فثم وجه الله". او غير ذلك من معاني. و لكن اذا كانت جسمانية فهنا يصبح الموضوع له بعد اخر تماما كما لا يخفى. على أية حال, نحن لسنا في مقام النقد و الرد, فهؤلا القوم لا أحسب انهم سيكذبون و يشهدوا بما لا يعلموا, فمبدئيا لنسلم لهم هذا القول و تحقيقه له موضع اخر. و يكفينا هنا ان نعرف دلالة هذا الشئ و الطريق من ناحية استمرارية الوحي بعد النبي, و ايضا يوجد مسألة مهمة ذكرها الشعراني عرضا الا أنها تلفت الانتباه و لها دلالة عظيمة. فهو قد وضع مسألة و هي هل يجوز للولي الذي تنزلت عليه مثل هذه الورقة من الله و تبين له أنها فعلا من الله تعالى لانه وجد العلامة التي ذكرها, فهل يجوز للولي أن يعمل بمضمون هذه الورقة؟ الملفت للانتباه هو ان الشعراني أفتى بأنه " فان وجدت تلك العلامة فتلك الورقة من الله عز و جل و لكن لا يعمل بها الا ان وافقت الشريعة التي بين أظهرنا". ما هذا؟ كيف يثبت ان الورقة من الله و يقر بانها من الله, ثم يفتي بانه لا يجوز أن يعمل بها الا ان وافقت الشريعة الموجودة حاليا ! ما دلالة هذا؟ هذا يدل على أنه يمكن أن يتنزل من الله أمر يخالف الشريعة الموجودة حاليا. و أصلا الشريعة الموجودة حاليا ليست "شريعة" و انما شرائع و مذاهب تكاد تختلف في كل شئ من الاصول الى الفروع, حتى لكأنهم لم يجمعوا على شئ الا على ان يكونوا متفرقين. "اجتمعوا على الفرقة" كما يروى عن الامام علي عليه السلام. فسواء نظرت في داخل المذهب السني أو المذهب الشيعي فستجد انه لا يوجد "شريعة" و لكن شرائع , أسميها أنا "سبرماركت" كما بينت في كتابي (سبرماركت الشريعة). فكلمة "الشريعة" كلمة وهمية غير دقيقة أصلا. و لكن الشعراني هنا يقر ضمنا بانه يمكن ان يتنزل من الله تعالى شئ يخالف "الشريعة" الموجودة, و لذلك يفتي الاولياء بأنه لا يجوز بأن يعملوا بمضمونها الا ان وافقت الموجود. ان كان الله تعالى قد انزلها فمن أنت حتى تقيد العمل بها بل ترفض العمل بها ؟! من نحن حتى نشترط على الله ماذا يجب عليه أن ينزل و ماذا يجب عليه ان لا ينزل, فاذا خالف الله تعالى شروطنا و نزل علي واحد منا ما يخاف "الشريعة" الموجودة فانه يجوز جحد أمر الله و الكفر به. أليس هذا هو عين عمل اليهود الذين رفضوا محمد رسول الله لانه جاء بما يخالف "الشريعة الموجودة بين ظهرانيهم". اني أستطيع أن أتفهم من ينكر ان ينزل الله ما يخالف الشريعة التي يؤمن بها, و لكني لا استطيع أن أتفهم من يقر بان الله يمكن ان ينزل ما يخالف

الشريعة التي يؤمن بها ثم مع ذلك يفتي بعدم جواز العمل بها. الاول عنده مصيبة, و أما الثاني فعنده ثلاثة مصائب على الاقل: مصيبة تحجير الله و تصنيم الحياة, و مصيبة الجحد بالرغم من الاقرار, و مصيبة دعوة الناس الى هذا الجحد مع الاقرار و المعرفة ! و انا لله و انا اليه راجعون. و لكن يمكن أن نتأول فتوى الشعراني هذه بأنه افتاها للتقية. فالصوفية كما هو معروف لطالما عابهم اعدائهم بانهم يرفضون الشريعة او يجيزون خرقها, فالشعراني و هو من اشهر المدافعين عن التصوف و انه موافق للسنة و الشريعة, لعله لم يجد بدا الا الافتاء بهذا من باب نصرة المذهب. او لعل له تأويلا لان نعلمه. و لكن في اطار ما أظهره من كلمات هذا هو المعنى و الدلالة التي يمكن أن نستفيدها. و من حجب علما عنده فلا يلوم الناس على سوء فهمه.

و أما الطريق الخامس فهو هذا , يكتب الشعراني مسألة تقول "فهل يكون الالهام بلا واسطة؟ الجواب: نعم. قد يلهم العبد من الوجه الخاص الذي بين كل انسان و بين ربه عز و جل, فلا يعلم به ملك الالهام. لكن علم هذا الوجه يتسارع الناس الى انكاره و منه انكار موسى على الخضر عليهما الصلاة و السلام. و عذر موسى في انكاره أن الانبياء ما تعودوا أخذ أحكام شرعهم الا على يد ملك, لا يعرف شرعا من غير هذه الطريق. فعلم ان الرسول و النبي يشهدان الملك و يريانه رؤية بصر عندما يوحى اليهما. و غير الرسول يحس بأثره و لا يراه, فيلهمه الله تعالى بواسطته ما شاء أن يلهمه, أو يعطيه من الوجه الخاص بارتفاع الوسائط و هو أجلّ الالقاء و أشرفه اذا حصل الحفظ لصاحبه, و يجتمع في هذا الرسول و الولي أيضا" .

أقول: هذا نص ثري جدا بالمعاني و الدلالات. فلنتخير أهمها فقط مما يناسب كتابنا هذا.

أولا, يثبت أن "أجل الالقاء و أشرفه" ليس الوحي الالهي عن طريق ملك من الملائكة, و انما الوحي المباشر من الله تعالى بدون وساطه ملك. "يعطيه من الوجه الخاص". اي الوجه الذي بين كل انسان و ربه عز وجل. و هذا يعني ان استمرارية الوحي ليست متعلقة بنزول ملك من الملائكة, او وجود اي وسيط من الوسطاء, و انما يمكن ان يستمر بوجود الله تعالى و الانسان. و كون هذا الوحي المباشر هو "أجل الالقاء و أشرفه" دليل اضافي على ما ذكرناه من قبل من كون الوحي المباشر هو اعلى درجات كلام الله مع الانسان. فاذن النبوات و الرسالات ليست أعلى صورة من صور تكليم الله للبشر, و انما درجة الولاية هي الاعلى. و الولاية مستمرة ما دام الله و شاء. و لا يملك أحد أن يحدد ما يجب على الله او لا يجب عليه تعالى أن يوحيه أو يفعله او يشرعه. و أما عن كيفية تمييز كون الامر الموحى هو من الله تعالى فهذه مسألة اخرى, و

هي فرع اثبات وجود الوحي اولا. فمن العبث أن نبحث عن كيفية اثبات كون الموحى للولي هو من الله قبل أن نثبت أصل المسألة الذي هو ثبوت تحقق مثل هذا الوحي أولا. و الشعراني هنا يقرر وجود مثل هذا الوحي للاولياء بل هو أجل و أشرف وحي كما كتب.

ثانيا, يقول " لكن علم هذا الوجه يتسارع الناس الى انكاره و منه انكار موسى على الخضر ". و هذا تصريح قوي من الشعراني. فكلمة "الناس" هنا تشير ايضا الى موسى ! فكونه قابل بين انكار "الناس" على الاولياء في هذا الوحي المباشر, و بين انكار موسى على الخضر, دليل على أنه جعل موسى مثالا و نموذجا للمنكرين, و جعل الخضر مثالا و نموذجا للأولياء الصوفيين. و يعرف أهل الاطلاع مقدار أهمية قصة موسى و الخضر المذكورة في سورة الكهف بالنسبة للفكر العرفاني الصوفي. فموسى يصور على أنه رمز أهل الشرائع, و الخضر يصور على أنه رمز اهل الحقائق. و النزاع بين موسى و الخضر هو رمز على نزاع أهل الشريعة مع أهل الحقيقة. و لكن مع الأسف, فان اهل الحقائق لم يفعلوا مثل الخضر و يفترقوا عن أهل الشريعة, و لكنهم داهنوهم و خضعوا لهم بل حرفوا بعض الحقائق أحيانا من اجل ارضاء اهل الشرائع. ففي قصة الكهف, للخضر اليد العليا, و لكن في واقع المسلمين لموسى اليد العليا. و قد ذكرنا مثالا رائعا على كيفية تحريف الحقيقة من أجل مداهنة و تسكين خاطر أهل الشريعة عندما نظرنا في فتوى الشعراني للولي الذي يعرف أن ما أتاه هو من الله و لكنه لا يجوز له أن يعمل بمقتضى ما تنزل عليه طالما أنه يخالف الشريعة السائدة. بالرغم من أن اقل تقوى عند عامي من البشر تقتضي منه أن يقر بأنه يجب العمل بما ينزل من عند الله حتى لو خالف كل شئ, فلا يعصى الله من أجل تسكين خاطر أحد-خصوصا ان كان هذا الاحد من جهله البشر. و لكن هذا ما تفعله المداهنة قبحها الله, فانها تجعل العلماء العرفاء العباقرة يصبحوا سخفاء كذابين بل و برابرة.

ثالثا, يقول " و عذر موسى في انكاره أن الانبياء ما تعودوا أخذ أحكام شرعهم الا على يد ملك, لا يعرف شرعا من غير هذه الطريق ". و هنا نلاحظ كيف أن الفقهاء عموما – و أقصد الشعراني رحمه الله خاصة- يبررون فعل رموزهم بشتى الطرق و حتى لو اضطروا الى اختلاق اعذار واهية, و مهما كان الجرم الذي يصدر من رموزهم فانهم يبررونه لهم, و اخر حكم ممكن أن يصدروه في حقهم هو "اجتهد فاخطأ فهو مأجور في اجتهاده معذور في خطأه". و لكن اذا اخطا احد من عامة الناس أو من رموز فرقة أو دين أو اسلوب حياة مغاير لهم, فان أقل خطأ يصبح الجريمة الكبرى, و أقل زلة تصبح الداهية العظمى, و ما هذا الا الكيل بمكيالين الذي تعود عليه أهل النفاق و المداهنة. و عندما نتحدث عن قصة موسى و الخضر و دلالاتها فانني اتحدث عنها بمنطق نظرية الصوفية و تفسيرهم للقصة, و هذا لا يعني أنني بالضرورة أرى نفس رأيهم, بل لي نظريتي الخاصة و تفسيري الخاص للقصة, فنقدي للقصة في هذا السياق هو ليس نقد للقرءان و لكنه نقد لتفسير هؤلاء الصوفية لها و فروع هذا التفسير. و الان, ما هو الجرم الذي ارتكبه

موسى مع الخضر؟ هو جرم انكار مقام من مقامات الاتصال بالله. فموسى يظهر و كانه يتبع حكم "العادة" و ليس حكم المعرفة. فالتبرير الذي يسوقه الشعراني هو "ان الانبياء ما تعودوا أخذ أحكام شرعهم الا على يد ملك" فلهذا عندما وجد موسى ان الخضر يخالف هذا الطريق الذي اعتاد عليه, أنكر عليه عمله. فاي قيمة للأنبياء ان كانوا من هذا الصنف من عوام الناس الذين ينكرون الأمور بسبب "العادة" ؟! و أي فرق بينهم اذن و بين العوام الجهلة الغافلين ؟! اتباع العادة بغير معرفة هو أس أساسات الجاهلية و الوثنية. فعندما يقال أن موسى أنكر على الخضر بسبب العادة بالرغم من أن المعرفة تقتضي غير ذلك, ألا يعني هذا أن موسى كان جاهليا من هذه الحيثية . و أما الخضر, فهو عندهم افترق عن موسى بدون أن ينكر عليه, و ذلك لان الخضر عارف بالمقامات فهو لم ينكر على موسى مقامه لانه يعرف أنه على حق بدرجة ما, فهذا يظهر أن الخضر هو العارف العالم الذي يتبع حكم المعرفة مهما كان الثمن, و موسى هو الجاهلي الوثني الذي يتبع حكم العادة بالرغم من ان المعرفة بالله و الوجود تقتضي غير ذلك. طبعا يمكن ان نتفهم هذا اذا قلنا بأن الخضر كان في الدرجة العليا من الاتصال بالله, اي المباشر, و لكن موسى كان في الدرجة الدنيا اي الدرجة الثالثة, و صاحب الدرجة العليا يعذر صاحب الدرجة الدنيا و يقر بحقه لانه يعرف تلك الدرجة اذ قد مر بها و تجاوزها, و لكن صاحب الدرجة الثالثة لا يستطيع أن يفهم و يقر بحق صاحب الدرجة الاولى لانه اعلى منه فهو لا يستطيع أن يعرف حقه. كمثل حامل شهادة الدكتوراه يستطيع أن يتفهم حامل شهادة الباكلوريوس, و لكن حامل الباكلوريوس لا يتفهم حامل الدكتوراه. فالخضر هو حامل الدكتوراه و موسى حامل الباكلوريوس, و لذلك الخضر عذر موسى, و لكن موسى لم يعذر الخضر, و لكنه استعجل عليه و حكم بما لا علم له به. و هذا فيه ما فيه كما لا يخفى.

رابعا, يقول عن النبي "لا يعرف شرعا الا من هذه الطريق". هذا اقرار ضمني بل صريح بان الخضر كان صاحب شريعة معينة. اي ان الاوامر التي كان الخضر يتلقاها من الله تعالى كانت شرعة له, على اعتبار أن الشريعة هي اوامر الله. فكل امر من الله هو شريعة. فانكار موسى على الخضر هو لان مضمون شريعة الخضر غير مضمون شريعة موسى. هذا هو اصل الاختلاف بينهما. و ليس كما فهمه الشعراني, و فهمه الكثير من الصوفية من هذه القصة. فهؤلاء ركزوا- على الاقل في كتاباتهم و لا ندري ماذا كانوا يقولون لمريديهم وراء الابواب المغلقة و في السراديب المظلمة- فهؤلاء ركزوا على ان الخضر كان يتلقى الوحي بطريقة كذا و موسى كان يتلقاه بطريقة اخرى, بالرغم من أنه ليس هذا ما تقوله القصة القرءانية. بل لم تذكر مسألة كيفية تلقي الوحي في القصة كلها, اللهم الا في نهايتها عندما قال الخضر " و ما فعلته عن أمري". و لكن خلال الاحداث كان موسى ينكر على الخضر لان شريعة موسى تنهى عن امور كان الخضر يقوم لها, و شريعة موسى كانت تجيز أمور و كان الخضر يرفضها, هذا هو الخلاف الحقيقي بينهما. فهل هذا الاستنباط, بل النص الظاهر, كان خافيا على أمثال الشعراني و ابن عربي و غيرهم من المحققين المتبحرين؟ في نظري, هذا مستحيل. لابد أنهم كانوا يعرفون ذلك, لان هذا في ظاهر النص و ليس بحاجة الى أي

تحليل و تعمق. و ان كانوا فعلا لم يروه فعندها قد يكون حجاب المذهب او التقيه له علاقة بالأمر. و لكن ما الفرق بين أن يكون اصل الخلاف هو كما ذكرته هنا و بين ما فهمه الصوفية عامة من القصة؟ الفرق عظيم و جبار و خطير جدا. الفرق يمكن أن يقلب الارض غير الارض و السماوات. الفرق يكشف عن أكبر نقد بل و طعن يمكن أن يقال من الناحية العلمية العرفانية ضد الشريعة الممثلة بموسى. و الفرق هو التالي: مضمون وحي الاولياء هو شريعة الهية تخالف مضمون وحي الانبياء الذي هو أيضا شريعة الهية. لا يستطيع أن يقدر هذا الفرق حق قدره الا من فتح الله بصيرته و تعمق في هذه المباحث. و هذا الفرق فيه رد على فتوى الشعراني التي تحظر على الولي أن يعمل بمقتصى الوحي الذي يتنزل عليه ان خالف شريعة النبي التي بين ظهرانيهم. فالخضر عمل بمقتضى وحيه و امر الله له, بالرغم من ان الامر كان مخالفا لشريعة موسى, و مخالفا لأمر موسى الحاضر مع الخضر. و شتان بين هذا و بين أن يكون الولي مأمورا بالاعراض عن وحي الله له اذا خالف شريعة نبي توفي قبل ألف سنة, و أصبح دينه لعبة في يد السلاطين و الفقهاء الدنيويين, و اصبح مضيعا بين ركام فوق ركام من الاختلافات و الجدلات و التاريخ و الكذب و الوضع ووالخ. الخضر خالف شريعة موسى في حضور موسى, و الشعراني يفتي بانه لا يجوز للولي أن يخالف شريعة محمد في غيبة محمد. وما بينهما كالذي بين السماء و الارض و المشرق و المغرب. والقرءان في هذه النظرة قد أجاز ذلك للولي. فباي حق تخالفوا هذا و تفتوا ضده, ان كنتم تتكلمون باسم الله فها هو القرءان و العرفان ضد ما تقولونه, و ان كنتم تتكلمون باسم أنفسكم فلغيركم الحق في ذلك أيضا. فقولوا خيرا أو اصمتوا. و من الامور الاخرى التي تترتب على هذا الفرق هو انه ليس لله شريعة واحدة فقط. ففي زمن واحد و في حضور نبي يمكن أن يكون بين الاولياء من عنده شريعة خاصة أوتيها من الله تعالى تخالف شريعة النبي الحاضر. فما ظنك بعد تغير الازمان و غياب النبي صاحب الشريعه الاولى ! و اما الفروقات العلمية و الفقهية بين شريعة الاولياء (ممثلة بالخضر) و شريعة الانبياء (ممثلة بموسى) فيمكن أن تطلع عليها اذا درست قصتهم في سورة الكهف و فتح الله لك في ذلك. و العجيب أن المسلمين عموما يقرأون هذه القصة كل جمعة و الى اليوم لم يعرفوا.

و الشعراني ينقل عن ابن عربي هذا القول " اعلم أنه لم يجئ لنا خبر الهي ان بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم وحي تشريع أبدا, و انما لنا وحي الالهام". و هذا كلام لا وزن له كما رأينا. فيا كثر الاخبار الالهية في ذلك و سنت الله التي ليس لها تبديل قبل ذلك كله. و طبعا هو يقصد بان وحي الاولياء مضونه العلوم فقط دون التشريع. وهذا هو الباب الذي استعملوه ليتقوا شر الفقهاء, اي ان ينكروا وجود وحي تشريع للاولياء و انما فقط وحي علوم. و قد ذكرت من قبل ان أكثر من 90% من القرءان الكريم هو علوم, و ليس التشريع المباشر فيه الا أقل من 10%. هذا أولا, و ثانيا التشريع يقوم على العلوم. فكل علم يقتضي تشريع. اذ ليس التشريع الا العمل بمقتضى العلم. فمثل مبسط على ذلك: أن يقول طبيب الاسنان " لقد توصلنا بالابحاث العلمية أن الاسنان تصبح بيضاء عندما تستعمل المعجون الفلاني ثلاث

مرات في اليوم ". فهذا علم. هل هو علم ترفي لمجرد العلم , أم أنه يمكن بل ينبغي أن نبني عليه تشريعا أي عملا و أمرا ؟ بالطبع المعلومة تتضمن الأمر بالعمل بمقتضاها. فمعلومة طبيب الاسنان تلك تحوي أمرا مبطنا يقول "من أراد ان تكون أسنانه بيضاء فليستعمل هذا المعجون ثلاث مرات يوميا". و اي امر لا يكون مبنيا على علم فانما هو عين العبث. ما هو الجهل مثلا في القضاء؟ اليس القاضي الجاهل الذي يدخل جهنم هو الذي يحكم بغير علم او بما يخالف العلم الذي علمه. هذا معلوم للكل. و يفترض انه من الامور المسلمة. فاعتقادنا او افتراضنا بان كل أمر الله مبني على علم و على حكمة, يعني ان كل أمر ينسب الى الله ليس مبني على علم و حكمة انما هو كذب على الله تعالى. و لسنا نتحدث الان عن كيفية معرفة هذا العلم الذي على أساسه أمر الله بما أمر. و لكننا نتحدث عن الأصل في الأمر, و هو أن يكون مبني على علم و حكمة, و أما كون هذا العلم مكشوفا للناس كلهم او لبعضهم أو مما استأثر الله بعلمه, فهذه مسألة أخرى و تحتاج الى بحث خاص. و لكن القدر المعلوم هو ان أمر الله مبني على علم و حكمة.و لا يوجد ظاهر ليس له باطن في دين الله تعالى بل من الباطن يتفرع الظاهر. فاذن, كون معظم القرءان علوم و ليس تشريعات, و كون التشريعات أصلا مبنية على علوم, يدل على أن وحي العلوم هو الوحي الأعظم, ووحي العلوم يتضمن تشريعات. هو حامل بها كحمل مريم بعيسى. و في ضوء هذا البيان, يكون قول الشيخ الاكبر و غيره بان "وحي الاولياء ليس فيه تشريع" اي فقط علوم, انما هو قول مرسل لا قيمة له بهذا الاعتبار او انه قد قيل للتقية كما سبق. و لعنة الله على الطواغيت على مر التاريخ الذين أجبروا العلماء على استعمال التقية. و لعنة الله على كل من شايعهم. و لعنه الله على كل من لا يلعنهم في يومنا هذا. و لعنة الله على كل من يسير على خطاهم في يومنا هذا و في سائر الايام. اللهم العنهم بلعنتك و لعنة ملائكتك و لعنة الناس أجمعين الى أبد الابدين بحق اسمك العلي العظيم الحق المبين.

يذكر الشعراني ان الامام أبوحامد الغزّالي رضوان الله عليه قد أنكر أن يتنزل الملك على قلب الأولياء. ثم نقل عن ابن عربي ما يرد قول الغزالي هذا. و ما يهمنا هنا هو قول ابن عربي في اظهار السبب الذي دفع الغزالي و غيره على انكار تنزل الملك على قلب الولي فيقول "و سبب غلط الغزالي و غيره في منع تنزل الملك على الولي : عدم الذوق و ظنهم أنهم قد عموا بسلوكهم جميع المقامات. فلما ظنوا ذلك بأنفسهم و لم يروا ملك الالهام نزل عليهم أنكروه و قالوا :ذلك خاص بالانبياء. فذوقهم صحيح و حكمهم باطل".

أقول: هذا تحليل رائع لنفسية من ينكر مثل هذه الامور. و هو من جوامع الكلم التي أوتيها الشيخ الاكبر في نظري. فتكاد معظم الحالات التي تنكر مقامات الاولياء بل لعلها كلها ترجع الى هذا التحليل و

من هنا سر عظمته و جامعيته. السبب بكل بساطة يتخلص في أمرين متكاملين كما كتب الشيخ الاكبر و هي : عدم الذوق, و ظنهم أنهم قد عموا بسلوكهم جميع المقامات. و بالمناسبة, "عدم الذوق" ليس معناه ما يتبادر منه اي كما نقول عن انسان انه فاسد الذوق, لا, و لكن المقصود هو أنهم لم يجربوا ذلك و لم يخبروه بانفسهم. فلو تذوقوا هذا المقام لما أنكروه. كما نقول أن فلانا لو تذوق العسل لما أنكر حلاوته. و الخلل الثاني هو "ظنهم انهم قد عموا بسلوكهم جميع المقامات" و هذا هو الكبر في أسوأ صوره. ان تجعل نفسك المحدودة مقياسا للحقيقة المطلقة. فكل ما لم تتذوقه أنت تعتبره غير موجود, و كل ما لا تراه أنت تعتبره معدوم من الوجود, و كل درجة لا تصعد اليها تعتبرها وهما. و هل ينكر الناس الامور في الغالب الا بسبب هذا. فهؤلاء "لما لم يروا ملك الالهام نزل عليهم أنكروه و قالوا: ذلك خاص بالانبياء". و هنا يأتي الحكم الراقي للشيخ الاكبر على مثل هؤلاء فيقول "فذوقهم صحيح و حكمهم باطل". فنعم أنتم لم تروا ذلك, فذوقكم صحيح. و لكن كونكم أطلقتم حكما عاما بسبب تجربتكم المحدودة, هو حكم باطل. و هذا لا يعني أن كل حكم يطلقه الانسان في شئ لم يجربه بنفسه هو حكم باطل. لا. فقد يصل الانسان باستنباطه العقلي او بدراسة القرءان الى افتراض وجود مقامات او أمور معينة, و يكون هو نفسه لم يخبرها و يتذوقها, و لكنه يطلق الحكم بسبب معرفته العلمية. فالمعرفة العلمية قد تجعلك تطلق أحكاما لم تصل اليها بالمعرفة الذوقية. و في الغالب يكون مثل هذا الحكم طريق الى الوصول الى المعرفة الذوقية بما ءامنت به بسبب المعرفة العلمية. كما أن الذي ينكر مقاما بعقله يكون هذا الانكار حجابا يحول بينه و بين الوصول اليه. و هل يحجب الناس الا انكارهم المسبق. فالذي ينكر وجود بلدة هل تتوقع أن يعد العدة ليسافر اليها ! بالطبع لا. و كذلك الاقرار بوجود البلدة لعله مقدمة للسفر اليها, على الاقل يفتح باب القبول ان توفرت الحاجة للسفر اليها. و طبعا الاقرار بوجود البلدة لا يعني أنك بالضرورة سافرت اليها و رأيتها بنفسك, و لكن يوجد طرق اخرى لمعرفة ذلك, فقد تقر بها لان أحد أصدقائك سافر اليها و اخبرك عنها, و قد تؤمن بوجودها لانك رأيت صورة لها, أو وجدت اسمها على خريطة العالم الموثوقة,. و غير ذلك من طرق. فكذلك مقامات الاولياء و العارفين, من أنكر شيئا منها حجبه انكاره عنها, و من ءامن بها كان بابا باذن الله لارتقائها. وما فعله الغزالي و من شابهه في هذا المقام الذي هو تنزل الملك على قلب الولي, حسب ما ذكر الشعراني و ابن عربي, هو أحد أهم أمثلة الاحتجاب بسبب الانكار, و الانكار بسبب جعل النفس في لحظة معينة مقياسا للحقيقة الواسعة. و كالعادة ابن عربي يعتذر للغزالي في انكاره هذا. و لا بأس فهذا لا يهمنا في هذا الكتاب.

و نلاحظ ان عباره الابن عربي تحوي ضمنا اقرارا بامكانيه تنزل الملك على الولي. و هذا ليس بغريب و لا كبير. اذ بما انه ثبت ان الولي يمكن ان ينال الوحي مباشره من لدن الله تعالى بلا واسطه ملك، و هي الدرجه العليا، فان ثبوت الدرجه الادنى منها يكون ثابت ضمنا و من باب اولى. بل تمثل الملائكه للاولياء هو من الامور الثابته تبعا، و في القرءان دلاله على ذلك كما في قصه مريم.

2 يكتب الشعراني سؤالا و يجيب عنه " فان قلت: ان بعضهم يقول اذا اعترضوا عليه في فعله أمرا من الأمور "ما فعلت ذلك الا بأمر الله تعالى" كما نقل عن سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه انه ما قال "قدمي هذه على عنق كل ولي لله تعالى" الا بعد أمر الحق له بذلك, فهل هذا صحيح؟ الجواب: الأمر بذلك غير صحيح. و لعل الناقل لذلك اشتبه عليه الاذن بالأمر. اذ الاذن يطلق على المباح شرعا بخلاف الأمر فانه تشريع جديد يقتضي عصيان من خالفه فافهم ".

أقول: يمكن الرد على هذه الفتوى من الشعراني بنفس قصة موسى و الخضر. فالشعراني يفتي بانه لا يجوز "الأمر" و لكن يجوز "الاذن". و المقصود بالنسبة لقول الشيخ عبد القادر الجيلي رضي لله عنه خاصة اي قوله "قدمي هذه على عنق كل ولي لله تعالى" و الذي في الشريعة المحمدية بحسب الشعراني, هذا القول يعتبر معصية, لان الشريعة تأمر بتوقير اولياء الله بل من عادى وليا لله فقد اذنه الله بالحرب كما روي عن النبي محمد عليه السلام. او ايا كان مقصد الجيلي، فكيف يمكن تفسير قول عبد القادر الجيلي و الذي هو من هو في سلك الاولياء و العرفاء؟ هنا ياتي الشعراني بتبريره الغريب الذي يقول أن هذا الفعل من الجيلي و غيره غير صحيح. من حيث ان الله لا يمكن أن "يأمر" أحدا بالقيام بتلك المعصية المخالفة للشريعة, و لكنه قد "يأذن" بذلك ! و يفصل اكثر في الفرق بين الاذن و الامر, و ليته لم يفعل, فيقول ان "الاذن يطلق على المباح شرعا" حسنا, و أي فائدة في هذا القول بغض النظر عن نقده؟ اطلاق كلمة "قدمي على عنق كل ولي لله" معصية شرعا. فاي تبرير هذا بان يقول ان هذا "اذن" من الله للجيلي بأن يقوله, و ليس امرا من الله له ؟

و ثانيا, الخضر ارتكب امور محرمة شرعا – بحسب شريعة النبي الرسول- كالخرق و القتل, و مع ذلك فان الخضر لم يقل ان الله "اذن" له في ذلك و لكنه استعمل كلمة الامر "و ما فعلته عن امري" اي فعلته عن أمر الله ربي. فهل كان قول الخضر هذا باطلا, او غير دقيق علميا, فيحتاج الى أن يأخذ دروسا في المنطق عند الشيخ الشعراني رضوان الله عليه حتى يصحح كلامه و يدقق في مصطلحاته. فالشيخ الشعراني لم يكتفي بأنه خالف مقتضيات الحقيقة في فتواه هذه, بل و افترض فرضا بدون سبب و هو أن الشيخ الجيلي لم يقل انه قال ما قال بامر الله فافترض الشعراني ان "لعل الناقل لذلك اشتبه عليه" و ما الحاجة لهذا الافتراض طالما ان نص القرءان و مقتضيات العرفان واضح في الأمر.

و ثالثا, تعريف الشعراني للامر مهم و له دلالة و يكشف عن سر هذا اللف و الدوران في هذه الفتوى و غيرها, يقول " الأمر فانه تشريع جديد يقتضي عصيان من خالفه". مرة أخرى نغض الطرف عن

نقد هذا التعريف. و لكن لاحظ أن تعريفه هذا يستبطن فرضية مسلمة عنده و هي أن شريعة الله واحدة فقط. و بسبب هذا الافتراض الغير مبرر بل المرفوض كما عرفنا من قبل, فان لله شرائع كثيرة " و لكل منكم جعلنا شرعة و منهاجا", "و لو شاء الله لجعلكم امة واحدة" و لكنه لم يشأ, و قد رأينا كيف ان للخضر شريعة من الأمر غير شريعة موسى. و لكن بسبب افتراض الشعراني و غيره من الفقهاء و أهل الاسلام على اختلافهم عموما, أن شريعة الله واحدة فقط و أمره واحد فقط, فان النتيجة هي انه لا يجوز لاحد أن ينسب الى الله أمرا يخالف هذه الشريعة الواحدة. فلما رأى الشعراني ان الشيخ الجيلي رضي الله عنه قد فعل ذلك, فانه كان بين أمرين اما أن يخطئ و لعله يكفر كل الشيوخ و الاولياء الذي يدعون ذلك, و هذا ما لا سبيل اليه عنده و قد سلك هذا الطريق الفقهاء من اهل الفرق الاخرى كالذين يسمون أنفسهم سلفية مثلا, و الاحتمال الاخر أن يعترف بان لله أكثر من شريعة و أن شريعة الاولياء قد تخالف شريعة الانبياء, و هذا ان فعله رجموه أو قتلوه أو صلبوه و زندقوه و سيقتلوا الصوفية بعده و بسبب كشفه لهذه الحقيقة, فلما لم يستطع أن يفعل لا ذا و لا ذا, اضطر اضطرارا أن يختلق جوابا لا قيمة له. و ليته لم يطرح المسألة أصلا ان كان لن يستطيع أو لا يرغب في أن يجيب عنها باجابة حقيقية.

"الأمر تشريع جديد يقتضي عصيان من خالفه" فهل امر الله للخضر بان يخرق السفينة في تلك الشروط هو أمر لكل مسلم أن يفعل ذلك أيضا ان توفرت نفس الشروط و يعصي من خالفه؟ بالطبع لا. الامر الالهي يتجدد و هو امر حي. فما كان نافعا في حالة معينة و زمان معين قد لا ينفع في حالة أخرى و زمان اخر. و هذا ما لا يستسيغه من يريدون صنما اسمه "الشريعة". فهم يريدون أمر واحد يكون صالح لكل زمان و مكان. فاذا حشرتهم في زاوية معينة و أثبت لهم أن شريعتهم لا تنفع لكل حالة و لكل زمان و مكان, جردوا شريعتهم تماما حتى يجعلوها مجرد مبادئ عليا مثل "جلب المصالح و درء المفاسد" و "لا ضرر و لا ضرار" و ما شابه من مبادئ عامة لعله لا يوجد عاقل على وجه الارض لا يعتقد بها مهما كان دينه و مذهبه, و انما الشريعه على التحقيق هي تشخيص المصاديق لهذه المبادى و الاصول، ثم بعد ذلك يخرجون بكل صفاقة وجه و يقولون "نحن نملك أفضل شريعة في العالم, و هي شريعة تنفع في كل زمان و مكان". أو يجعلون للشريعة مقاصد معينة حتى يجعلوها صالحة لكل زمان و مكان. و معلوم أن خلق مقاصد للشريعة مهما كانت الذرائع و الفلسفات, انما هو مقدمة للخروج على الشريعة المعينة, او قل انها وسيلة شرعية لتبديل الشريعة ! و لو أنهم أقاموا أمرهم على الحقائق المباشره لما اضطروا الى سلوك هذه الطرائق المعوجه.

و لو حللنا تعريف الشعراني للاذن و الامر فسنجد أنه ليس بشئ. فمثلا تعريفه للامر بانه "أمر جديد" ما معنى هذا ؟ هل يعني انه لا يمكن أن يكون الامر قديما ؟ فاذن, ما بال كل هذه الاوامر الشرعية القديمة بل و التي عفا عليها الزمن؟ و ان كان معنى "جديد" انه لم يكن موجودا من ذي قبل, فهذا الاحتمال مردود بان بعض اوامر الشريعة (كما يرونها) كان قديما و أقره الاسلام, كمعظم مناسك الحج مثلا

و بعض الاخلاق الفاضلة و بعض الانكحة والبيوع و القواعد القضائية و غير ذلك. و هكذا لو تأملت فستجد ان جوابه هنا ليس الا وسيلة اضطر اليها اضطرارا للابتعاد عن الطرفين المرفوضين الذي لا يمكن له أن يسلك في أحدها. فلا هو يستطيع أن يقر بأن الاولياء أخطأوا, و لا هو يستطيع أن يقر بأن لله شرائع متعددة و قد تكون متخالفة باسباب متعددة, فسلك السبيل الثالث و هو أن يجيب جوابا غير موفق او مقبول بالمرة. و ليته سلك السبيل الرابع و هو الصمت. رحمه الله على اية حال.

3 ينقل الشعراني عن ابن عربي و يعلق عليه فيكتب " من قال من الاولياء ان الله تعالى أمره بشئ فهو تلبيس. لأن الأمر من قسم الكلام و صفته, و هذا باب مسدود دون الاولياء من جهة التشريع. و ايضاح ذلك انه ليس في الحضرة الالهية أمر تكليفي الا و هو مشروع. فما بقي للأولياء الا سماع أمرها. فاذا أمرهم الأنبياء بشئ كان لهم المناجاة و اللذة السارية في جميع وجودهم لا غير. و معلوم أن المناجاة لا أمر فيها و لا نهي و انما حديث و سمر. و كل من قال من أهل الكشف انه مأمور بأمر الهي مخالف لأمر شرعي محمدي تكليفي فقد التبس عليه الأمر, و ان كان صادقا فيما قال انه سمعه. قال : و يمكن أن يعض الأولياء يكشف الله عن قلبه الحجاب و يقيم الله تعالى مظهرا محمديا فيسمع فيه أمر الحق و نهيه لمحمد صلى الله عليه و سلم فيظن ان الحق تعالى كلمه هو, و انما كلم روح محمد صلى الله عليه و سلم, فيكون ذلك من باب التعريف بالأحكام الشرعية, لا شرعا جديدا فان ذلك باب قد أغلق بموت رسول الله صلى الله عليه و سلم".

أقول: كيف يغضب فقهاء الشريعة المحمدية على أمثال الشعراني و ابن عربي هو أمر غير مفهوم اذا نظرنا الى اعتقادهم في الشريعة و الحدود التي يضعونها للاولياء. ان الأولياء أولى بالغضب بسبب مثل هذا الكلام. و لكن ان يغضب الفقهاء فهو أمر محير. ان الكلام الذي نقلناه عن ابن عربي و الشعراني مخالف للحقائق بطريقة سافرة. بل رائحة تعصب الفقهاء و جمودهم تفوح من هذا الكلام. فضلا عن المغالطات و النتناقضات التي تكمن فيه, فبعض الكلام يضرب البعض الاخر, و بعض الكلام مضروب بحقائق ثابتة, و بعض الكلام مجرد دعوى تعصبية فارغة. لنبدأ في النظر.

أولا, قول ابن عربي "من قال من الاولياء أن الله تعالى امره بشئ فهو تلبيس" و تعليق الشعراني "و كل من قال من أهل الكشف أنه مأمور بأمر الهي مخالف لأمر شرعي محمدي تكليفي فقد التبس عليه الأمر و ان كان صادقا فيما قال أنه سمعه". فاذن نفهم من هذا أن الخضر عليه السلام التبس عليه الأمر. و كل الاولياء على مر العصور الذين قالوا ان الله أمرهم بشئ و هم "من اهل الكشف" قد التبس عليهم

الامر. كل احد من اهل الله تعالى اذا خالف ما يعتقد هؤلاء الجامدين من اهل الشريعة المحدودة, كل هؤلاء التبس عليهم الأمر. الوحيد الذي لم يلتبس عليه الامر هو الذي يتقيد بما يرسمونه له من قيود. و العجيب ان الشعراني يقر بانهم من "اهل الكشف" و يقر بانهم "و ان كان صادقا فيما قال انه سمعه" و مع ذلك فانه قد التبس عليه الامر ! هذا التصريح منه يدل على أحد أمرين: اما أن الكشف ليس وسيلة صحيحة لادراك العلوم الالهية (و الاوامر فرع العلوم كما بينا من قبل), و اما أن الله تعالى يجب أن يتقيد في عطائه و تغل يده سبحانه من أجل سواد عيون أهل هذه الشريعة. و لا يستطيع لا ابن عربي و لا الشعراني ان ينفي حجية الكشف في المعارف الدينية اذ عليه المعول عندهم, و هم لم يقولوا بان الله عليه ان يتقيد في عطائه كما يشتهون هم, فالحل الوحيد هو اعطاء اجابة فارغة لا قيمة لها, و في هذه الحالة ادعوا ان الولي المكاشف الذي سمع من الحضرة الالهية و اعترفوا هم بأنه سمع و انه صادق, هذا الولي قد "التبس عليه الامر".

ثانيا, يقول " ليس في الحضرة الالهية أمر تكليفي الا و هو مشروع. فما بقي للأولياء الا سماع أمرها " هذه دعوى مجردة. بل خطيرة. بل فيها طعن في خزائن الله رب العرش العظيم. فقولهم بان "ليس في الحضرة الالهية أمر تكليفي الا و هو مشروع" و ما أدراك انت ماذا تحتوي الحضرة الالهية تفصيليا حتى تدعي ان كل ما فيها قد شرع و فرغ منه ؟ فحتى فهم هذا القرءان الذي فيه تبيان كل شئ و تفصيل كل شئ, انما هو بتاييد الله و فتحه, و ليس هذا القرءان الا واسطة للعطاء الالهي, و هو ليس عين العطاء الالهي. فالله يعطي عن طريق القرءان, فعطاؤه حي. "و رتل القرءان ترتيلا انا سنلقي عليك قولا ثقيلا". "و ننزل من القرءان" . ثم ماذا يفعل الاولياء في كل مكان في الارض الذين لا يعرفون العربية ليقرأوا هذا القرءان؟ هل يحجر الله عليهم عطاؤه بسبب عدم علمهم بلسان العرب. عطاء الله لا يتقيد بلسان معين, بل الشعراني نفسه قد اثبت ذلك عندما جعل احد طرق تلقي الأولياء للوحي هو "معنى يجده الموحى اليه في نفسه , لا حس و لا خيال" فبعد كل هذا التجريد و الرقي, يأتي هنا و يقول ان الله لا يمكن أن يعطي تشريع للاولياء لان هذا الباب أقفل و انسد بعد وفاة مولانا محمد عليه السلام قبل ألف و اربعمائة سنة. فلنتنزل و نفرض أن وحي التشريع قد انسد "بسبب" وفاة محمد, اي بوجود القرءان و السنة , حسنا, فماذا يفعل الاولياء الذي لم يسمعوا أصلا بمحمد و القرءان؟ منذ قبل أن توفي محمد الى يومنا هذا و ما بعده. وماذا يفعل الله باولياءه الذين لسبب او لاخر لم يتوفروا على درس القرءان و السنة. ماذا يفعل الاولياء الذي يحتاجون أن يعرفوا ما عليهم ان يعملوه في حياتهم اليومية و التي تحتاج الى أمر الهي مباشر و حادث و سريع في أوقات معينة. و ماذا يفعل الله بالولي الذي يقرف و تشمئز نفسه من اختلافات الفرق الاسلامية عقائديا و شرعيا فيترك كل هذا و يهاجر الى الله ليسمع منه مباشرة و يعيش بأمره. و غير ذلك من حالات كثيرة واقعية بل لعلها هي الغالبة على الاطلاق في حياة الاولياء خاصة و الناس عامة. فسد باب التشريع بموت الرسول محمد التاريخي دعوى لا تساوي فلسا. بل ان الفقهاء هم أول من يخالفون ذلك

بسلوكهم كما ذكرنا في باب سابق من هذا الكتاب. و هل "الشريعة المحمدية التكليفية" بعد وفاة النبي عليه السلام الا اجتهادات- و أحيانا كثيرة ، افترا ءات- بعض الناس.

ثالثا يقول " فاذا أمرهم الأنبيا ء بشئ كان لهم المناجاة و اللذة السارية في جميع وجودهم لا غير. و معلوم أن المناجاة لا أمر فيها و لا نهي و انما حديث و سمر " هذا النص فيه سجن للاوليا ء, و فيه قلة ادب مع مقام الربوبية عز و جل, و فيه عدم دقة خطيرة في التعبير. اما عدم الدقة الخطيرة فهي قوله "فاذا أمرهم الأنبيا ء بشئ" اي ان الانبيا ء اذا أمروا الاوليا ء بشئ. و هذا غير دقيق بالمرة بل وهم محض. عن أي "أنبيا ء" يتكلم صاحبنا ؟ لا يوجد أنبيا ء و لا يحزنون بعد محمد عليه السلام- حسب عقيدتهم هم على الاقل. فالذين يأمرون الاوليا ء بهذه التكاليف الشرعية انما هم فقها ء مجتهدون لا غير-في احسن الاحوال. و أما أن يصور الفقها ء أنفسهم كأنبيا ء فهذه دعوى خطيرة خاصة كونها صادرة من امثالهم. و أما قلة الادب مع مقام الله تعالى, فهي قوله بان المناجاة معه ليس فيها أمر و نهي و انما "حديث و سمر", فالولي اذن في حضرة الله تعالى لا يحق له أن يسمع الامر و النهي من الله, و لعلك تقول ان الشعراني لم يقل ذلك و انما قال انه لا يوجد امر و نهي في المناجاة, صحيح هو لم يقله بظاهر اللفظ و لكنه معنى كلامه, و لكن لولا ان الله تعالى فعلا يأمر و ينهى الاوليا ء لما احتاج الشعراني أن يفلسف هذه الحقيقة و لكنه كان سيقول بكل بساطة "ان الله لا يأمر و ينهى الاوليا ء" و لكنه لم يقل ذلك, لانها دعوى كبيرة لا برهان عليها. فما أدراه وما أدرى غيره أن الله ماذا يفعل مع اوليا ءه في سرهم و في قلوبهم؟ بل انه نفسه يقر بان الله يوحي للاوليا ء كما ذكرنا عنه من قبل, فما باله ياتي هنا و ينقض ما قاله من قبل. فطالما أنه أقر بان الله يوحي اليهم, بل يوحي اليهم بطريقة أجل و أشرف من كل الطرق التي يوحي بها الى الانبيا ء, فاذن هو قد أقر بأصل المسألة. و اما مضمون هذا الوحي, فيأتي هنا ويقول انه لا أمر فيه و لانهي, فكيف يصدر منه هذا و هو يقرأ قصة الخضر خصوصا. ثم يقول ان المناجاة هي مجرد "حديث و سمر" يعني الله تعالى و اوليا ءه يضيعون الوقت مع بعضهم بحديث و سمر فقط و لا شئ ورا ء ذلك, مجرد تسلية و ملئ للفراغ, كما أنك تجلس انت مع اصحابك او حبيبتك فتسامرها و تحادثها و انتهى الامر. طيب, يتحادثون في اي مواضيع؟ لا ندري, لعلهم يقولون انهم يقضون طول حياتهم و هم يقولون لله : اشتقنا اليك, فيرد الله عليهم: و انا اشتقت اليكم. و لا أدري ان سال الولي الله تعالى مسألة علمية أو فقهية ماذا سيرد الله عليه, لا أدري, و لكن بحسب سجن الشعراني و أمثاله فان اغلب الظن ان رب العزة سيجيب وليه : انا اسف يا عبدي, و لكن الشيخ الشعراني و فقها ء الشريعة المحمدية سيغضبون منك و مني اذا اجبتك و قد وضعوا حدودا لي في عطائي يجب ان لا أتجاوزها ! حاشا لله و تعسا لقوم لا يعقلون.

رابعا, لما لم يستطع الشيخ الاكبر و الشعراني أن ينكروا ان الله تعالى يامر اولياؤه, خرجوا بنظرية او احتمال عجيب و هو هذا , يقول " و يمكن أن بعض الأوليا ء يكشف الله عن قلبه الحجاب و يقيم الله

تعالى مظهرا محمديا فيسمع فيه أمر الحق و نهيه لمحمد صلى الله عليه و سلم فيظن ان الحق تعالى كلمه هو, و انما كلم روح محمد ". و هذا يكشف لنا عن امر هام جدا في هذا الفكر. و هو أنهم لا يريدون لاحد أن يستقل مطلقا في علاقته بالله تعالى. يريدون ان يكون محمد (او كما اعتقدوه على الاقل) هو دائما الوسيط بين الناس و ربهم. فجن جنونهم عندما وجدوا أولياء ياخذون عن الله مباشرة, بل جن جنونهم فقط لتصورهم وجود هذه الامكانية, فعندها خرجوا بنظرية المظهر المحمدي هذه. فالله يكلم محمد و الولي يسمع كلام الله لمحمد فيأخذ هذا الكلام, و بهذا تحل المشكلة التي يسعون لتفاديها وهي أن يكون التشريع صادرا من محمد فقط. و التحكم و الاختلاق في هذا القول ظاهر عليه. و ما يغضبني هو ان الشعراني نفسه قد أقر كما ذكرنا عنه في البداية بان يكون الله يوحي لاولياءه بدون وسيط مطلقا. و لكن هنا ياتي و يخالف ذلك. اللهم الا ان كان يقصد أن الله محدود بمعنى انه يحق لله ان يوحي لاولياءه في العلوم مثلا بدون وسيط, و اما في التشريع فلا يجوز الا عن طريق محمد. و عندها نحتاج الى ان نرى برهانا على هذا الحد الذي وضعوه لله تعالى. و ظاهر أنه في تلك العصور بل و الى يومنا الى حد ما, كان يوجد هوس بالفقه و التشريعات والقوانين, و اما العلوم و المعارف فكانت للقلة فقط. و لذلك تعظيمهم للتشريع و رغبتهم في احاطته بأسوار و حواجز هو امر مفهوم, و قد كانت الرئاسة و المناصب انما هي بيد أصحاب الامر و النهي و ليست في يد أصحاب المقام و الحال و العرفان. و من هنا جاءت تقية الصوفية في مسألة الشريعة. فان الفقهاء كان يمكن لهم أن يصبروا على اي شئ الا أن يتعدى أحدهم على نظرياتهم الدينية السياسية في فلسفة الامر و النهي, اي في الشريعة و أسسها العقائدية. و الحقيقة العرفانية تقتضي أن لا تكون الشريعة صنما كما هو الحال في نظرية الفقهاء. و ليس يهتم هؤلاء بمحمد و لا بغير محمد, وانما همهم رئاستهم و مناصبهم في اعين الناس. فالذي يأمر و ينهى أعلى من الذي يدعو الناس الى الذكر و الفكر. فانهم حولوا اكثر الناس الى انعام بل اضل سبيلا, و الانعام لا تعرف الا عصا الراعي و لا تفقه غير هذه اللغة. و اما العلوم و المعارف و التعمق في الحقائق و الصلة المباشرة بالله و ما شابه فهذه أمور لا يستسيغها الجمهور المحكوم بفكرة "الرعية". و لذلك يمكن للفقهاء ومن وراءهم الملوك و اصحاب الاموال, يمكن لهم أن يصبروا على العرفان و التصوف طالما أن هؤلاء العرفاء لا يقربون مصالحهم. و لكن كما قلنا و نكرر و سنكرر ألف مرة: لا يوجد معرفة بدون شريعة. اذا تغيرت المعرفة تغيرت الشريعة. اذا جاءت المعرفة جاءت معها شريعة. المعرفة و الشريعة وجهين لعملة واحدة. اذا ذهبت المعرفة الى قلب قالت المعرفة "خذيني معك". بكم لسان سنقولها. فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا. و هنا برز صنف من العرفاء يحاول أن يوفق بين الرؤية العرفانية للوجود, و بين الرؤية الفقهية له. و لا يجتمعان مع الاسف! فالمحاولة هي كما قلنا مجرد "محاولة" و غير موفقة بالمرة. فهي تشبه قول المنافقين "ان أردنا الا احسانا و توفيقا". هؤلاء العرفاء المنافقين يريدون أن يوفقوا باطنهم مع ظاهر الفقهاء, و اولئك الفقهاء الميتين يريدون من العرفاء أن يوفقوا حقائقهم مع شريعتهم. و بما أن الظاهر ينبع من الباطن و ليس العكس, فان العرفاء المخلصين

اعتزلوا و سكتوا في الغالب. و بعضهم كتب و أسهب و جعل الحقيقة متضمنة في ثنايا كتبه, و لسان حاله يقول : أهل الله سيكتشفون الحقيقة في كتبي, و غير اهل الله حتى اذا صرحت لهم بالحقيقة فانهم سيرفضوها. و أحسب أن الشيخ الاكبر ابن عربي هو من هذا الصنف و الشعراني له تبع.

4 و اخر ما أريد نقله هنا هو مسألة: هل يجوز لان يتسمى أحد باسم رسول الله بعد مولانا محمد عليه السلام؟ ينقل الشعراني عن الشيخ الاكبر فيقول "فان شئنا قلنا في المبلغ الينا أنه رسول الله, و ان شئنا اضفناه لمن يبلغ عنه. و انما جوزنا ان نحذف الواسطة لان رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يخبره جبريل أو ملك من الملائكة فلا نقول فيه "رسول جبريل" و لا رسول ذلك الملك".

أقول: فكما ان من يبلغ هذا القرءان بلفظه يجوز ان تسميه رسول الله, لانه فعلا رسول الله اذ هو الذي يبلغك رسالة الله المتجلية في هذا الكتاب, و تستطيع ان تحذف الوسائط كما تحذف الوسائط في محمد فتقول عنه انه رسول الله مباشرة و ليس رسول جبريل, بالرغم من أن جبريل هو واسطته في تلقي هذه الرسالة, فان كان هذا جائزا, فاذن من باب أولى أن من يبلغك امر الله تعالى الذي تلقاه من الله تعالى مباشرة أنه رسول الله. فالولي رسول الله. و هذا الاسم بالنسبة له حقيقة مباشرة,لانه تلقى وحي الله مباشرة كما هو الحال في الدرجة الاولى من استقبال البشر لكلام الله, و اما بالنسبة الى الانبياء الذين لم يتلقوا كلام الله الا بواسطة ملك من الملائكة "او يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء" فتسمية هؤلاء برسل الله انما هو من باب الاختصار, فبدل ان نقول "محمد رسول جبريل, وجبريل رسول الله" فطالما ان الخلاصة هي ان محمد رسول الله فنذكر ذلك, و هذا ما استعمله القرءان في قوله "محمد رسول الله و الذين معه اشداء..". فان كان يجوز تسمية متلقي الوحي بالدرجة الثالثة "رسول الله" فمتلقيه بالدرجة الثانية و الاولى أولى و احق بذلك.

و بهذا نختم بحثنا في نظرية الشعراني و الصوفية. و خلاصتها: الوحي مستمر بعد وفاة النبي محمد عليه السلام, و الاولياء يتلقون وحيهم بطرق متعددة أهمها خمسة و هي الرؤيا في المنام و الرؤيا في اليقظة و معنى مجرد يجده الولي نفسه و ورقة مكتوب عليها كلام الله يراها تنزل عليه في اليقظة او بعد ان يستيقظ من النوم, و أخيرا الدرجة و هي اشرف و اجل الطرق و هي ان يتلقى الولي الوحي من الله بالوجه الخاص الذي بينه و بينه اي بدون وسائط مطلقا. و لكن يقيد الشعراني و ابن عربي لسبب او لاخر

ان يكون الوحي الذي يتلقاه الاولياء له علاقة بالتشريع, فهو اما علوم متعلقة بالشريعة الموجودة و اما علوم عامة و اما حدث وسمر و اما التشريع كقانون و شعائر فالباب مسدود كما يقولون.

مع العلم أن الشيخ الأكبر كتب في الفتوحات في الباب الثالث و العشرون يصف العلاقة بين الأولياء أصحاب أعلى رتبة في الولاية و بين الرسل و الانبياء اصحاب الشريعة, فيقرر " و من هذه الحضرة بعثت الرسل سلام الله عليهم أجمعين مشرعين, ووجد معهم هؤلاء- أي الاولياء- تابعين لهم قائمين بأمرهم من عين واحدة, أخذ عنها الأنبياء و الرسل ما شرعوا, و أخذ عنها الاولياء ما اتبعوهم فيه, فهم التابعون على بصيرة, العالمون بمن اتبعوه و فيما اتبعوه, و هم العارفون بمنازل الرسل و مناهج السبل من الله و مقاديرهم عند الله تعالى". و في هذا النص يوجد أمور كثيرة نقتصر منها على ما ينفع في المقام:

فمن ظاهر النص, أن الأولياء انما اتبعوا شريعة الرسل لأن الاولياء أخذوا نفس شريعة الرسل من نفس العين التي أخذ عنها الرسل. و هذه حقيقة مهمة جدا و ذات دلالة كبيرة بل دلالات. فالولي لا يتبع الرسول في شريعته لأنه رسول. و لكن لأن الولي قد استقى نفس هذه الشريعة, و اطلع على حقائقها, من نفس الحضرة التي أعطت الرسل شرعهم. و يذكر الشيخ الأكبر أن هذه الحقيقة هي السبب في كون الاولياء يتبعون الرسل "على بصيرة" و فيها اشارة واضحة على قول القرءان "قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا و من اتبعني". فيكون الأولياء هؤلاء من ضمن قوله "و من اتبعني". و بمفهوم المخالفة يكون من يتبع الرسل في شرائعهم من غير الاولياء انما هو تابع على عمى و تقليد. فكون الاولياء "هم التابعون على بصيرة" يعني أن غيرهم ليس تابع على بصيرة. فلو قال الشيخ "هم من التابعين على بصيرة" لكان الأمر يشمل الاولياء و غيرهم. و لكن صياغته و دلالتها تدل على الحصر. و لكن غير الاولياء قد يكون تابع على بصيرة و لكن من حيثية أخرى, كان يكون مؤمنا بأن هذا الرسول جاء من الله عموما بأدلة و ايات الرسل أو لسبب ما غير ذلك, فيقبل عندها كل ما يقوله الرسول بحكم ايمانه العام بالرسول. و بهذا الفهم, تكون بصيرة الاولياء هي بصيرة من نوع خاص. اي بصيرتهم بشريعة الرسول. فهي بصيرة تفصيلية ذاتية متعلقة بنفس الشريعة في كل تفاصيلها. مما يعني أن الولي مشارك للرسول في أخذ الشريعة عن الحضرة و العين, الا أن الرسول أمر بالتبليغ, و الولي امر بالاتباع الظاهري للرسول- حسب نظر الشيخ الأكبر. و الحقيقة أن مثل هذا لا يكون "اتباعا" بالفهم السائد للاتباع. لان الاتباع انما يقال حسب المشهور لمن لا يقدر أن يعرف الطريق بنفسه, او يعرف تفاصيل الطريق بنفسه, فعندها يقلد الهادي و يتبعه. و هذا هو حال معظم اتباع الشريعة. فهم أناس أقروا بعجزهم, و أعلنوا انقطاعهم, و صرحوا بكونهم من المبتورين عن الحضرة العليا و الخزائن المقدسة, و ليس هذا فقط بل قاموا بالتنظير و التأصيل لكل هذا حتى أصبح عندهم في حكم الحقائق البديهية و الأصول المسلمة, و لم يكتفوا بكل هذا حتى قعدوا القواعد و رسموا

الحدود التي تقرر بأنهم لن يستطيعوا أن يتصلوا بالعين المقدسة أبدا, ثم كانت النتيجة النهائية- اللعينة بكل المقاييس- و هي أنهم يحكمون على كل من يخالف مرسوماتهم هذه بأنه كافر زنديق ملعون رجيم و يسعون في قتله و نفيه و سجنه و كل ما شابه ذلك من ظلم و جرم. و كم من مآسي و جرائم ترتبت على كل هذا. و انا لله و انا اليه راجعون. أما الولي كما يذكر الشيخ الأكبر فانه قد يكون ممن ياخذ نفس الشريعة من نفس العين التي أخذ منها الرسول, فيكون اتباعه للرسول ظاهريا فقط, أي أنه في الظاهر يظهر لعموم الناس بأنه تابع للرسول مثلهم- و هيهات!- و لكنه في الواقع يتبع حقيقة الشريعة التي كوشف بها و أفيضت عليه من الحضرة العلية, فهو تابع و ليس بتابع. تابع لأن الصورة واحدة, و ليس بتابع لانه استقل بأخذ الحقيقة و الشريعة من نفس العين المقدسة.

و كاشارة نختم بها هذا المبحث, الذي يعلم حقيقة الشخص هو اما في نفس مستوى الشخص او أعلى منه. لأن العلم علو, و المعلوم أدنى من العالم, و لذلك لا يستطيع أحد أن يعلم الله بالاحاطة لأن الله هو العلى المطلق فلا يوجد أعلى منه حتى يستطيع أن يعلمه, فتأمل هداك الله.

فالقدر المتيقن هو انهم يقرون استمرارية الوحي بعد وفاة النبي محمد عليه السلام. وهذا القدر كافي لاثبات لب مطلبنا. و الحمد لله.

(السلفية العمرية)

و أخيرا نأتي الى عمر بن الخطاب و أحبابه من السلفية السنية كما يحبون أن يسموا أنفسهم. فلعمر شأن عجيب. و قبل أن نبدأ نسجل بأن السلفية هم أشد الناس تشنيعا على الشيعة و الصوفية. فاما الشيعة فلعلهم ملاحدة عندهم. و اما الصوفية فليسوا بأحسن حظا من الشيعة اللهم الا ان تسننهم الظاهر و تأييد بعض كبراءهم للحديث و السنة شفع لهم قليلا. و خاصة في مسألة استمرارية الوحي هذه. فالسلفية المفترض أنها ضد أي شئ من هذا القبيل اللهم الا الرؤيا في المنام و شئ من الالهام هنا و هناك و لعلهم يقولون "الهام" فقط كما يقول العامي ان الله الهمه او غير ذلك, و لكن ليس الالهام بالمعنى الصوفي مثلا و الذي هو استمرارية للوحي الالهي, و انما الالهام من باب توفيق الله لهم و ما شابه. فهل يمكن أن نجد السلفية ممثلة برمزهم المعظم عمر بن الخطاب, تؤيد اطروحة استمرارية الوحي؟ هذا ما أريد أن أنظر فيه هنا, سننظر في الحديث المنسوب للنبي القائل "ان يكن في أمتي محدثون فمنهم عمر" و قصة "موافقات عمر". لنرى بماذا سنخرج. مع العلم اننا لن نطيل في التحليل و سنكتفي بالاشارة, فان الفكر

السلفي عموما ليس من نوع الفكر الذي يرجو الانسان ان يجد به علاقة مباشرة مع الله . أقصد علاقة حية بالله. و اي حياه في قوم جعلوا الحقيقه محصوره في مقبره تاريخ الغابرين. فتعالوا ننظر.

عمر كان محدثا اي ملهما تتحدث الملائكة على لسانه. و في عهد دولة عمر يحكى ان الله تعالى ألهمه أن ينادي "يا سارية الجبل" و هي قصة معروفة فوصل قول عمر الى سارية و انتصر الجيش بسبب نداء عمر الذي كان نتيجة الهام الله تعالى اياه. و يكفينا من هذا أن اتصال الملأ الاعلى و الملائكة بالناس لم ينقطع بعد موت النبي عليه السلام. و بما ان اصل الاتصال قد أقروا به, فلا حاجة لنا بمناقشتهم في ماهية المضامين التي يمكن أن تشتمل عليها هذه الاتصالات بين الانسان و الملائكة. و يقر القوم بأن "المحدثون" ليسوا شخص واحد فقط, اي ان مصداق هذه الكلمة قد وقع كثيرا في هذه الأمة.

و أما موافقات عمر, فلنذكر الرواية أولا و هي واردة في ما يسمى بصحيح البخاري و مسلم. عن انس قال: قال عمر: وافقت ربي في ثلاث, فقلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى فنزلت "و اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى", و آية الحجاب, قلت: يا رسول الله لو أمرت نساءك ان يحتجبن, فانه يكلمهن البر و الفاجر, فنزلت آية الحجاب – و هي قوله "و اذا سألتموهن متاعا فسئلوهن من وراء حجاب– و اجتمع نساء النبي صلى الله عليه و سلم في الغيرة عليه, فقلت لهن: عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن, فنزلت الاية – اي قوله "عسى ربه ان طلقكن ان يبدله ازواجا خيرا منكن..".

ان ما تقوله هذه الرواية و تثبت لعمر بن الخطاب أقوى بكثير من نظرية الشيعة و الصوفية في أئمتهم و اوليائهم. فالامام الشيعي ياتيه وحي من الله, الصوفي ياتيه وحي من الله, و لكن عمر بن الخطاب يقول– عفو الخاطر– كلاما هو عين كلام الله ! و من يجيز مثل هذا و يقبله لا يحق له أن يعترض على من يقول ما هو دون قوله. و نكتفي بهذا.

(خلاصة)

عقيدة استمرار الوحي و الصلة بالغيب في حدها الادنى على الاقل قد اتفقت عليها كلمة هذه الفرق الثلاثة. وأما تفاصيل هذه العقيدة فهي محل خلاف بينهم. و على ذلك, أصل العقيدة ليس مبتدعا من قبلنا فهو أمر وجد و لا زال موجودا كما رأيت. و الحق يقال, ان كنا سنحكم على الفكرة بحسب سعتها, فان عقيدة الاولياء الصوفية من بين هذه الفرق الثلاثة هي الافضل في هذا الشأن, فهم وحدهم من

أثبت امكانية اتصال كل مسلم بالله تعالى الى أعلى درجة ممكنة من الاتصال. بالرغم من بعض القيود التي ذكروها و فصلنا فيها و رددناها بحسب مباني الفكر الصوفي نفسه فضلا عن غيره.و أما الامامية فقد أثبتوا تلك المقامات لائمتهم فقط كاصل و أما السلفية...فهم السلفية!

"و ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم"

(استمرارية النبوة في نص علي بن أبي طالب عليه السلام)

(المقدمة و الكلمة)

خير طريق لمعرفة الانسان هو عن طريق هذا الانسان نفسه. عن طريق السباحة المباشرة في بحر ذاته, و كلام الانسان فيض من ذاته. و اذا أصبح موضوع الدراسة هو عالم أو مفكر أو ولي من الأولياء فان أهمية الصلة المباشرة به تزداد أضعافا مضاعفة, فانه ليس أحد على وجه الأرض معرض لسوء الفهم و التحريف و الاستغلال مثل أهل الفكر و الولاية. فانهم لمكانهم العالي في نفوس الناس تصبح كلماتهم رموز على الحقيقة العليا, و لذلك تكون كلماتهم محلا رائعا للاستغلال بالنسبة لمن لم يجد وسيلة للفوز بما يريد الا عن طريق استغلال أمثال هؤلاء الأعلام. و أحيانا يكون المفكر او الولي عرضة لسوء الفهم أو لنكون أكثر دقة, يكون عرضة لقلة الفهم لسبب عميق و هو أن القارئ لا يستطيع أن يفهم "كل" درجات كلام المفكر الا ان كان في نفس مستواه في الفكر و العلم. فكل قارئ يأخذ من الكتاب بقدر درجة القارئ و ليس بقدر درجة الكتاب. و يوجد عوامل كثيرة تؤدي الى مثل هذا القصور في التحقيق, و أهم هذه العوامل هو التقيد بمذهب معين مسبق. و تأتي المصيبة عندما يكون محل الدراسة هو شخص من رموز هذا المذهب. فعندها "يجب" أن تفسر كل كلماته في حدود المذهب الذي هو رمز له. و حدود المذهب ليست بالضرورة عين حدود رمز المذهب. فقد يكون الرمز يرى عشرة أمور مثلا, فيأتي أتباعه الكبار- و بحكم

كونهم "أتباعه" فانهم دونه في المرتبة- فيفهموا عنه سبعة أمور مثلا, و يقيموا مذهبا كاملا بناءا على هذه الأمور السبعة فقط, مع كونهم يحفظون كل كلمات الرمز الأعلى للمذهب و ينشرونها و لكن قد فرغوا من وضع أسس المذهب السبعة. و هنا تأتي الخطورة: فانه اذا جاء شخص و نظر في كلمات هذا الرمز و استنبط منها أحد الأمور الثلاثة التي لم يلتفت اليها هؤلاء الأتباع لسبب أو لاخر, فانهم يرمون هذا الشخص بشتى أنواع التهم التي أقلها الجهل و أكبرها الكفر. فمن قتل الولي و المفكر أن يكون له مذهب من صنع غيره أيا كان هذا الغير حتى لو كان ابنه أو أخوه. لو صنع هارون مذهبا لموسى فان هذا لن يكون مذهب موسى بل مذهب هارون. و لذلك ينبغي للانسان- الخليفة بالذات عن الله تعالى و ليس الخليفة بالعرض- أن لا يكون تابعا لأحد بالمعنى الكلي للاتباع, أي بأن تنمحي ذاتيتك في ذاتية غيرك, حتى لو كان هذا الغير جبرائيل نفسه فضلا عن غيره. و ذلك لأسباب عدة أشرت الى بعضها قبل قليل, و من أهمها هو أنك لا تستطيع أصلا أن تكون تابعا كليا لاحد. استحالة وجودية لا مجال لخرقها. فتبعيتك له لن تكون الا ناقصة. و لكن يوجد تبعية على بصيرة و هي عندما تبصر نفس ما أبصره هذا الشخص, عن طريق هذا الشخص, فعندها تعتبر تابعا له من هذه الحيثية. و عندما تبصر شيئا يكون قد أبصره شخص آخر, و لا يكون تبصرك به عن طريق هذا الشخص, فانك تعتبر أخ لهذا الشخص في حكم الحقائق. فأنت تابع لمن تبصر عن طريقه, و أخ لمن تبصر مثله. و ان افترضنا أنك أبصرت "كل" ما أبصره شخص, و لو عن طريقه, فعندها أنت هو و هو أنت, أي تصبح نده.

فعلاقة الانسان بغيره من أهل الذكر و الفكر لها ثلاث صور: أن تبصر عن طريقه بعض ما أبصره فأنت تابع له, و أن تبصر عن طريقه كل ما أبصره فأنت نده, و أن تبصر بغير بطريقه كل ما أبصره فأنت أخوه و مثله. و أما ان أبصرت بغير طريقه بعض ما أبصره فأنت اخوه الأصغر ان شئت. و في كل الحالات: لا يتقيد أهل الذكر و الفكر الا باثارهم, و ليس بالمذاهب و الطرق التي تقام باسمهم و تستمد من اثارهم. فأثر الأولياء و العلماء هو المعبر الوحيد عن ذاتهم, و الاستمداد ينبغي ان يكون من هذه الاثار في الأصل. و لا يوجد ثقة كلية بأي مذهب يقام باسم شخص, لأن أرباب هذا المذهب لا يمكن أن توجد أصلا ثقة كاملة بهم لسبب بسيط و هو انهم بخسوا انسانيتهم كامل حقها, و طعنوا في خلافتهم و استقلالهم و هذا رفض لبعض ما اعطاهم اياه الله, و من بخس حق نفسه فهو لحق غيره أبخس, و من ضيع كمال ذاته فهو لكمال ذات غيره أشد تضييعا. و لا حول و لا قوة الا بالله.

أولياء الله ليسوا كغيرهم من البشر عموما و بعد الموت- أي بعد تخليهم عن أجسامهم الارضية خصوصا. النفس تتكون من الجسم الأدنى و الروح الأعلى, فمن كانت نفسه روحانية أي معظم ما تقبله و تتعلق به هو أمور الروح فانها تصبح روحانية, و بالتالي بعد أن تفترق النفس عن الجسم بموت الجسم فانها

ترتفع الى العوالم الروحية بحسب منزلتها و درجتها "هم درجات عند الله". و الولي الكامل هو الذي أصبحت نفسه روحانيه كاملا أو أقل من الكمال بشئ قليل جدا و الذي يكون بسبب التاثير الضروري للجسمانيات بحكم عيشه بالجسم. و هذا تصبح نفسه روحا. و يكون في الملكوت كالشمس و القمر و الكواكب التي في عالم الملك , بحسب درجته و منزلته. و بالتالي يكون الاستمداد منهم مستمر. أي يستمد المدد الروحي و المعنوي منهم, سواء كان الاستمداد من أهل الارض، فضلا عن أهل السموات. فكما أن البشر يذهبون الى مفكر يسكن في بلدة كذا و يستمدون منه علومه و فكره و يترقون بهمّته و معنويته, فكذلك الأمر بالنسبة للناس يذهبون الى روح الولي في عوالم الملكوت و يستمدون منه مما عنده. فالجسم الحي يتصل بالاجسام و الروح الحي يتصل بالارواح. و صاحب الجسم المشلول يتعجب من احساس البشر ببقية الاجسام و قد ينكر ذلك ان عاش طول عمره مشلولا و لم يختبر الاحساس الجسماني, او كالذي يولد أعمى جسمانيا و ينكر وجود الالوان, فكذلك الأمر في الأمور القلبية و الروحية فان صاحب القلب الميت يستنكر مثل هذه الحقائق- اي حقيقة اتصال الروح بالارواح العلوية- و ليس انكار ميت القلب الا كانكار المشلول و الأعمى جسمانيا, فان ميت القلب مشلول و أعمى قلبيا "و انها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور".

و في ايماني أن الامام علي- عليه الصلاة و السلام- هو الولي الأكبر بعد النبي محمد عليه الصلاة و السلام مباشرة. و لذلك فانا نستمد من همته و روحه العون و الكشف في فهم كلامه, بل أولا في معرفة كون الكلام فعلا كلامه. و قد وهبنا الله هذا الايمان بكشف و معاينة, و ليس هذا بأمر يمكن اثباته للاخرين بالكلام, بل لا أسعى الى اثباته لاحد أصلا , فان من يعرف يعرف و من لا يعرف لن يعرف. نعم قد نستطيع أن نقرب بعض المسائل للذي لا يعرف عن طريق العوامل المشتركة بيننا و بينه في أصول المعرفة, أو عن طريق أصل من أصول المعرفة يؤمن به هو شخصيا و يقبل ما يستخرج منه. الا أني لست بصدد مثل هذا المسعى, و انما ذكرت ذلك من باب تقرير واقع عندي. و من له صلة بي أو صلة بالعالم العلوي فانه سيرى حقيقة مثل هذا الكلام.

و قد وجهني الامام علي عليه السلام لاضافة احدى خطبه التي في نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي رضوان الله عليه, لهذا الكتاب. و سندرس هذه الخطبة لنرى مما فيها من العلم و الحكمة و أسرار الحقيقة و لباب الشريعة. و عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده.

و أما تبرير هذا الاختيار للاخرين فانه يجب أن يكون مبنيا على سبب معقول أو منقول, فان الكشوفات الروحية و التوجيهات المعنوية انما تكون هادية بذاتها لصاحبها أو من له صلة عميقة بصاحبها ممن يستطيع أن يستشرف او يستشف مكنون ذات صاحبها فيكون الكشف في حقه كما كان في حق

صاحبها. و هذا الكتاب ليس موجه فقط لهؤلاء و لذلك ينبغي أن نبرر هذا الاختيار بسبب مقبول الى حد كبير من كل الاطياف.

أما للشيعة عموما فان حجية نهج البلاغة و صحة نسبته كله أو معظمه هو من الأمور المقبولة فلا اعتراض هنا. و أما للسنة, فان الشيخ محمد عبده- رحمه الله- و هو أحد كبار علماء السنة قبل نهج البلاغة كمصدر سليم عموما و صحيح النسبة الى الامام علي عليه السلام و لذلك هو أحد شراح نهج البلاغة بل ان النسخة التي عندي هي التي عليها شرح الشيخ رحمه الله, و هذا فضلا عن غيره و فضلا عن أنه يوجد كتب ألّفها شيوخ من الشيعة الامامية تثبت من المصادر السنية صحة نسبة هذه الخطب-كبها او بعضها- الى الامام علي عليه السلام, و على كل حال فان قبول أحد شيوخ السنة الكبار لصحة نسبة النهج عموما كاف لمن كان سنيا و يريد أن يقبل كما قبل شيخه. و ان الشريف الرضي و هو من أحفاد علي و هو من المعروفين بالعلم و الخلق و الرقي أحسب أنه من الصعوبة بمكان الاعتقاد بأنه كان يكذب على جده و يختلق الكلام عليه, و ان لم تكن هذه حجة قاطعة فانها بالنظر الى بقية القرائن تكون قرينة مؤيدة, و لا يوجد حجية قاطعة قطعا تاما مطلقا في معظم الاشياء أصلا فضلا عن ان توجد في أخبار و مرويات ففي مثل هذه الأمور تكون القرائن و الشواهد هي المؤيد و المستند الأقوى, و أما القطع المطلق في الخبر عموما فأندر من الكبريت الأحمر. و أما للاباضية و من يرون تكفير الامام علي و نحو ذلك فانه حتى هؤلاء انما كفروه بناء على عمل لاحق اختلفوا فيه معه و لكنهم لم يطعنوا في علمه او حكمته عموما و لذلك يكون لكلام الامام قيمة و وزن عندهم و لو الى حد ما و لمثل هؤلاء سيكون الشرح و كون الكلام لا يخالف القرءان بل يستمد منه دافع قوي لقبول الكلام و الفكر الكامن فيه. و أما لمن كان من غير أمة محمد فانه لا نظر اليه في هذا المقام, فان شخصا لا يؤمن بذات القرءان لا مجال لمحاولة اقناعه بالايمان بكلام أحد أتباع القرءان. و أحسب أن هذا كافيا في هذا الأمر.

أما الكلمة التي اخترتها فهي من كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته لقول الله تعالى "رجال لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر الله" . فكلمته عليه السلام نوع من التعليق و الدراسة و الاستمداد من فلك القرءان العظيم جل شأنه. فلنذكر الكلمة كاملة أولا ثم ننظر فيها.

....

يقول الامام علي عليه السلام :

" ان الله سبحانه جعل الذكر جلاء للقلوب, تسمع به بعد الوقرة, و تبصر به بعد العشوة, و تنقاد به بعد المعاندة.

و ما برح لله –عزت آلاؤه– في البرهة بعد البرهة , و في أزمان الفترات , عباد ناجاهم في فكرهم, و كلمهم في ذات عقولهم.

فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع و الأبصار و الأفئدة, يذكّرون بأيام الله, و يخوّفون مقامه, بمنزلة الأدلاء في الفلوات. من أخذ القصد حمدوا اليه طريقه و بشّروه بالنجاة. و من أخذ يمينا و شمالا ذموا اليه الطريق, و حذّروه من الهلكة. و كانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات, و أدلة تلك الشبهات.

و ان للذّكر أهلا, اخذوه من الدنيا بدلا, فلم تشغلهم تجارة و لا بيع عنه, يقطعون به أيام الحياة, و يهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين, و يأمرون بالقسط و يأتمرون به, و ينهون عن المنكر و يتناهون عنه. فكأنما قطعوا الدنيا الى الآخرة و هم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك, فكأنما اطّلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الاقامة فيه, و حققت القيامة عليهم عداتها. فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس, و يسمعون ما لا يسمعون.

فلو مثّلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة, و مجالسهم المشهودة و قد نشروا دواوين أعمالهم, و فرغوا لمحاسبة أنفسهم عن كل صغيرة و كبيرة أمروا بها فقصروا عنها, او نهوا عنها ففرطوا فيها, و حملوا ثقل أوزارهم ظهورهم, فضعفوا عن الاستقلال بها, فنشجوا نشيجا و تجاوبوا نحيبا. يعجّون الى ربهم من مقاوم ندم و اعتراف, لرأيتهم : أعلام هدى, و مصابيح دجى, قد حفّت بهم الملائكة, و تنزلت عليهم السكينة, و فتحت لهم أبواب السماء, و أعدّت لهم مقاعد الكرامات في مقام اطّلع الله عليهم فيه فرضي سعيهم و حمد مقامهم, يتنسمون بدعائه روح التجاوز, رهائن فاقة الى فضله, و أسارى ذلة لعظمته, جرح طول الأسى قلوبهم, و طول البكاء عيونهم, لكل باب رغبة الى الله منهم يد قارعة يسألون من لا تضيق لديه المنادح و لا يخيب عليه الراغبون.

فحاسب نفسك لنفسك, فان غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك " .

....

الدراسة و التلقي :

في الكلمة المباركة للامام نرى ترتيبا و مسائل منظمة تدور حول محور هو: أهل الله. فهذه الكلمة تصف أهل الله وصفا عظيما دقيقا شاملا, فتذكر : الوسيلة الى الدخول في سلك أهل الله, عدد اهل الله, الصفة النبوية لأهل الله. و لنكتفي بهذه المواضيع الثلاثة في هذاالمقام. مع ملاحظة أن أهل الله هنا هم الأولياء أصحاب النبوة المستمرة. و سنرى ذلك بعد التفصيل ان شاء الله.فتعالوا ننظر.

1 (الوسيلة الى الدخول في سلك أهل الله)

تفصيل هذا الموضوع نجده في الكلمات التالية :

"ان الله سبحانه جعل الذكر جلاء للقلوب, تسمع به بعد الوقرة, و تبصر به بعد العشوة, و تنقاد به بعد المعاندة"

"و ما برح لله....عباد ناجاهم في فكرهم و كلمهم في ذات عقولهم"

"ان للذكر أهلا أخذوه من الدنيا بدلا, فلم تشغلهم تجارة و لا بيع عنه,".

من هذه النصوص العلوية نستنبط ثلاثة أمور من قام بها دخل في سلك أهل الله ان شاء الله, بل حسب سنت الله فانه لن يشاء سبحانه ان يقوم بها الا من أراد له أن يدخل في زمرة اهله المخلصين. الأمر الاول هو الذكر. و الامر الثاني هو الصمت. و الامر الثالث هو التفرغ لله و أخذ المعيشة بالقدر الكافي فقط. و كعبة هذه الاوامر الثلاثة انما هو الذكر. لأنه الأساس الدافع للثاني و الثالث. و أي اخلال باحد هذه الأوامر الثلاثة يعني خلل في الباقي, و النتيجة هي الخروج من السلك المقدس.

أما ذكر الله, فانه ماء الطهارة, و العودة الى الفطرة العليا للانسان الكامل, و بالذكر تزول النجاسات و ترتفع الحجب. فيصبح القلب مرآة تعكس الحقيقة الالهية , و تستعد لاستقبال مدد الخزائن الالهية. و هذا ما أشار اليه الامام عليه السلام بقوله "تسمع..تبصر..تنقاد". فالسماع هو الاستقبال من الله, و هذا يعني ضرورة وجود محل طاهر حتى ينساب فيه ماء الله, و القلب وعاء طهارته الكاملة انما هي بذكر الله. و الابصار متعلق بعوالم الخلق, اذ الله في ذاته "لا تدركه الابصار". و الذي يبصر شيئا يكون مثله في حيثية ما أو أعلى منه, خاصة لو كان ابصار احاطة, و لذلك لم يتعلق بذات الله و انما تعلق بخلق الله, فالابصار هو رؤية العوالم و الخلق على ما هي عليه في الحقيقة, فيرى سلّم العوالم و سلسلة الاسباب و المسببات و تدرج المقامات و كل ما له ارتباط بالعوالم على ما هي عليه, لأن العوالم قد خلقها الله على هيئة معينة و حقائق معينة, فمن رام معرفة شئ من العوالم بغير طريق الله فقد رام محالا و ارتكب سفها. و الانقياد هو العمل بمقتضى الحقيقة المفاضة من قبل الله و بمقتضى الحقائق الموضوعية لعوالم الخلق, فلا يتجاوز حدا و يرتكب سفها قدر الاستطاعة حتى يحيط الله عبده بعنايته فيعصمه و يحفظه حينما يشاء كيفما يشاء. و ذكر الله هو الطريق الاكبر الى هذه الأمور كلها. لاحظ انه لم يقل "التفكر" او "التدبر" او "المجاهدة" او أي شئ من هذا القبيل. بل علي يقول أن "الذكر" هو الوسيلة الكبرى لنيل كل هذه المطالب. و هذا عين الحق. لأن كل ما سوى ذكر الله انما ينتمي الى درجة أدنى منه, فلا يكون شاملا و لا مطلقا, بل دائما

يكون محدودا بالحد الذي انطلق منه السالك. فمن كان أعلى ما يعرفه هو "التفكر" فانه حتى لو أصبح أكبر متفكر في الوجود فانه لن يكون الا ناقصا قاصرا, اذ التفكر ينتمي الى رتبة السموات, و فوق السموات عوالم و درجات, كالعرش و الخزائن و الكرسي و بحر الروح و الاحدية. فأنى له الكمال و تمام النورانية ان كانت نقطة انطلاقه و قاعدة ارتكازه درجة متدنية, متدنية بالنسبة الى ما فوقها و ان كانت عالية بالنسبة الى ما دونها. "أنى لهم التناوش من مكان بعيد". و هذا بالنسبة لمن كان فكره قائما على أساس السماء, فما ظنك بمن كان لا يفقه من الفكر و العقل و المنطق الا الفكر الارضي بل السفلي بل أسفل سافلين ! و لذلك ذكر علي عليه السلام أن الأساس هو الذكر. و هذا عين تعليم القرءان في مواضع عدة و التي أكبرها قوله عن أولي الالباب "الذين يذكرون الله..و يتفكرون في خلق". فالذكر قبل الفكر. هكذا يصبح القلب سليم و الانسان عظيم.

و بعد هذه الفقرة التي يحدد فيها علي عليه السلام قيمة الذكر و محوريته في تكوين أولياء الله الكمّل, يبدأ في ترتيب النتائج و الثمرات التي تخرج من شجرة الذكر المباركة, و منها, بل اعظمها- و هو محور كل هذا الاقتباس و الدراسة- "ما برح لله...عباد ناجاهم في فكرهم و كلمهم في ذات عقولهم". و هذه الفقرة هي النص القاطع على استمرارية النبوة الى الابد, على أساس أن تعريف النبوة-في هذا السياق- هو سماع كلام الله و الاتصال به مباشرة في أعلى رتب الاتصال. و لا أريد الان الا أن أشير الى معنى الصمت الذي استنبطه من هذه الفقرة. كون الله يكلمهم يعني أنهم ينصتون. "و اذا قرئ القرءان فاستمعوا له و أنصتوا لعلكم ترحمون". و لا يستطع أن يسمع كلام الله من لم يصمت و ينصت له ! و حيث ان وقت حصول هذا التكليم المقدس ليس معروفا للولي, و الفيض يأتي من الغيب باستمرار و بحسب الاحوال, فلذلك يكون الولي كثير الصمت. فهو يخشى أن ينشغل عن قبول الفيض بشئ اخر, و لذلك تكون أيضا من صفاته أنه منتظر. فصمته له فلسفة, و ليس صمت عشوائي أو لسبب عاطفي او امور غريبة من هذا النحو التي كثيرا ما ينسبها اهل الغفلة للاولياء و الانبياء. لا يقوم الولي بأمر الا بناء على حكمة و معرفة , شئ حقيقي واقعي في مختلف الرتب الوجودية, و كلما زادت درجة الولي كان أساس عمله أعلى في الرتبة أيضا. كمثل زهد الأنبياء الذي يفسره أهل الغفلة بتفسيرات سطحية عجيبة كانه "مواساة للفقراء" أو "رفض للدنيا" و يذكرون هذا هكذا مجردا بدون قرائن و تفسيرات أخرى, و بدون تبيان أسس و حقائق هذه الامور, أقصد الحقائق الوجودية. على أية حال, فان الكلام مع الناس عند الاولياء يشبه أكل الميتة: لا ينبغي الا عند الضرورة و بقدر الضرورة. و معظم وقتهم الباقي يكونون فيه بين ذكر و بين صمت و انتظار فيض.

ثم تأتي فقرة الركن الثالث في دين الانبياء و هو "ان للذكر أهلا أخذوه من الدنيا بدلا, فلم تشغلهم تجارة و لا بيع عنه". في هذا النص العلوي أمور كثيرة جدا, نقتصر منها على أمرين:

الأول هو التذكير بأن كسب المعيشة الجسمانية الكريمة التي تؤدي الى التفرغ ليس أمرا يحمد عليه انسان أو يذم عليه, بل هو من الضروريات التي يشترك فيها كل من له جسم و يرغب في البقاء قدر الامكان على الارض بغض

النظر عن الغاية من هذا البقاء هل هي شهوة أم عبادة و معرفة أم غير ذلك من تفاصيل يمكن ادراجها تحت هذين الاصلين. فعندما نقول "دنيا" ليس المقصود المعيشة الجسمانية, و ليس المقصود الراحة النسبية في هذه المعيشة, و انما المقصود ما وصل الى حد السرف و الترف و الزخرفة التي لا قيمة حقيقية لها و ليس وراءها الا التفاخر الأبله بين العوام (و الذين قد يكونوا من "السادة و الكبراء" بالمناسبة ! فتأمل). فليس من الزهد في الدنيا أن يصعّب الانسان معيشته على نفسه حتى يصبح همه في الليل و النهار تحصيلها او الانشغال بتسكين آلامها ! هذا النوع من المعيشة هو من صميم الكفر و أبو الغفلة. و الناس في مقدار المعيشة التي يحتاجونها حتى يرتاحوا من هذه الناحية و يتفرغوا لعبادة الله (اي للذكر و الفكر و فروع ذلك) على درجات و أحوال, و كل عاقل يقدر لنفسه و الانسان على نفسه بصيرة.

الثاني هو أن الانبياء لا ينشغلون بالتجارة و البيع. لان المجتمع المقدس و المدنس له طبقات. و الاختلاف بينهما هو في معيار الطبقية. فالطبقية المقدسة تقوم على أساس امتلاك الحقيقة و المعرفة, و الطبقية المدنسة تقوم على أساس امتلاك المعيشة و الزينة. المقدس يقوم على معيار باطني, و المدنس يقوم على معيار مظهري دنيوي. في المجتمع المقدس يكون أصحاب الطبقة العليا و على رأسهم الاولياء و الأنبياء ليس لهم عمل أرضي مالي, بل هم في عداد الفقراء و المساكين و اليتامي في المجتمع. و من هنا جعلت الغنائم مقسمة على اخماس منها "للرسول" و أيضا في نفس الصف ل "اليتامى و المساكين و ابن السبيل" و هؤلاء الثلاثة الاواخر يشتركون في كونهم لا يملكون مالا و لا يستطعيوا أن يعملوا لكسب المال, و اعالتهم معتمدة على الطبقة العاملة- و هم الأكثرية- في المجتمع. و لكن العلة في ادخال الرسول في هذا الصنف من الناس غير العلة في ادخال اليتامي مثلا, فمن الناحية العقلية و القدرة الجسمانية الرسول يستطيع (بالمعنى العام للاستطاعة) أن يعمل للمعيشة و يتكسب, بل قد يكون أثرى تاجر, و لكن اليتيم و المسكين مثلا فلا يملك القدرة العقلية (بالمعنى السفلي للعقل) او القدرة الجسمانية الكافية للتكسب لنفسه باعتدال و عدم ارهاق. أساس ادخال الرسول هو التفرغ لشؤون الوحي قبولا من الأعلى و اعطاءا للادنى. فيكون عدم انشغال الأولياء الأنبياء في شؤون التجارة بالمعنى الاوسع للتجارة و البيع الذي يشمل في الحقيقة كل عمل أرضي في المجتمع, هو لأنهم سكان طبقة غير طبقة العمال. و من عدل الله و رحمته أنه قضى بأن يكون العمال هم مصدر معيشة الرسل, لان الرسل هم مصدر حياة العمال عن طريق تعليم الحقيقة و تأسيس الشريعة و تنظيم المجتمع و وجود البركة و حلول العناية الربانية, فحتى لا يشعر العمال أنهم أذلة بسبب أخذهم من الرسل أمر الله الرسل أن ياخذوا من العمال, فلا أحد يملك منة على أحد, و تكون المنة لله وحده على الجميع. هذا على اعتبار أن المجتمع قد ءامن عموما بالانبياء و أقام السّلم و الطبقية المقدسة. و لكن على اعتبار عدم ذلك, فانه لا يجوز للرسل أن ياخذوا فلسا من أحد مقابل تعليم الدين, لانه عندها تكون الدولة لايات مثل قوله تعالى "لا أسألكم عليه أجرا"و "أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون" فمثل هذه الايات انما تنطبق في مرحلة الدعوة و الفردية, و لا تنطبق حين تقوم دولة على اساس النبوة و الولاية الالهية. اذ في حين قيام مجتمع الهي (و ليس شرطا ان تكون دولة بالمعنى المتعارف للدولة, بل قد يكون مجتمع قرءاني الهي داخل "دولة" مع التذكير بأن وجود مجتمع كبير

أحسن بالطبع), الذي يرى أن ما ينفقه يعتبر ك "مغرم" له يعتبر في حد النفاق بل الكفر ! و "الأعراب أشد كفرا و نفاقا و أجدر أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله". فانتبه لمواضع الايات و تنزيلها, و لا تحتج باية نزلت لموضع لتنقض به حكما يقوم في موضع اخر. و هذا من عميق فقه القرءان, عسى الله أن يفقهنا في القرءان. فعلى هذا العتبار الثاني, يكون النص العلوي متوجه نحو عدم انشغال الانسان بالتجارة و البيع بهدف دنيوي بل يكون مقصده من هذا العمل هو التكسب للتفرغ للعبادة (بالمعنى القرءاني للعبادة) و من كان هذا مقصده من التكسب فان تكسبه أيضا في حكم العبادة, كما ان المهاجر في سبيل الله و رسوله في حكم الواصل الى مقر الهجرة و ان لم يصل اذ تحقق المقصد و لم يبقى الا أمر الله الخارج عن الاستطاعة و انما أمرنا بالتقوى ما استطعنا. والحمد لله الرحيم الكريم.

2 (عدد اهل الله)

المقصود عددهم بالنسبة الى بقية الناس, و ليس عدد محدد. و هذه ايضا مسألة متعلقة بالطبقية المقدسة.. مع العلم بأن النص العلوي هنا لا يشير الى كون هؤلاء الاولياء قلة أو كثرة, أو يمكن أن يكون كل الناس كذلك أم لا. الا أن الاصول القرءانية المستفيضة واضحة في أنه لن يرقى الى أعلى درجات الولاية الا "قلة" فقط من الناس. الا انه يظهر لي أن السبب في هذا قد لا يكون سببا حقيقيا دائما. بمعنى أنه على اعتبار ان طريق الولاية العظيمة يقوم على ذكر الله و الصمت و التفرغ لله بعدم عبادة الدنيا, و هذه الاسباب الثلاثة كلها يمكن أن يتخذها- نظريا على الاقل- كل الناس, أو معظم الناس. فانه لا يوجد مانع حقيقي من كون الاولياء هم الغالبيه. فالظاهر ان الاصول القرءانية تشير الى أمر اعتباري ظرفي. و فائدة هذه المسألة عظيمة, فانه ان افترضنا أن الكل يستطيع أن يكون في أعلى درجة من الولاية, فعندها ستزول كثير من الامور, من أولها "الطبقية" و غير ذلك. فضلا عن أن كون طريق الولاية مفتوح لكل انسان, بناء على اسس كثيرة منها أصالة الخلافة و سعة الرحمة, يعني أن ما نذكره هنا من شؤون الطريق اليها و ثمارها ممكن التحقق في حياة كل انسان. و هذا يعني أن كل انسان يمكن أن يكون وليا نبيا ان شاء الله.

3 (الصفة النبوية لأهل الله)

يوجد على الاقل ثلاثة أدلة تجعلني أقطع بكون هذا النص العلوي يتحدث عن النبوة المستمرة. الدليل الاول نص, و الدليل الثاني استنباط من نص, و الدليل الثالث قرينة قوية جدا.

أما النص, فهو قوله " عباد ناجاهم في فكرهم و كلمهم في ذات عقولهم". فان لم يكن هذا نصا على تكليم الله المباشر لهؤلاء فلا يوجد نص في الوجود ليدل على ذلك. ان كان نص تكليم الله لموسى يقول "و كلم الله موسى تكليما" فاعتبر نصا قاطعا, فان نص "ناجاهم في فكرهم و كلمهم في ذات عقولهم" نص بل أكثر من نص. كلمة التكليم المنسوبة الى الله لهؤلاء العباد كما هي مذكورة في القرءان مذكورة في نص علي هذا. "ما برح لله....ناجاهم..كلمهم". و هاتان هما الكلمتان اللتان ذكرهما القرءان في حق موسى, "و قربناه نجيا" و "كلم الله موسى تكليما". و ليس وراء ذلك نصية او تعبير عربي. بل ان النص العلوي قد ذكر تفصيلا أيضا من حيث محل المناجاة و التكليم. فالقرءان في هذين النصين عن موسى لم يذكر محل التكليم من موسى, اي هل هو قلبه او روحه او اذن جسمه..الخ. و ان كان يمكن ان نستنبط هذا المحل بدراسة بقية الايات و عموم القرءان. و لكن من حيث نفس نص "و كلم الله موسى تكليما" فانه لم يذكر ذلك, و كذلك في نص "و قربناه نجيا" أيضا لم يذكر ذلك. و أما نص علي هنا فانه يقول "ناجاهم (في فكرهم) و كلمهم (في ذات عقولهم) " فهو ليس فقط نصا قاطعا بل نصا مفصلا أيضا. و ليس وراء هذا التعبير دلالة كما ذكرت. و أما معنى "في فكرهم..في ذات عقولهم" و سر ارتباط المناجاة و التكليم بهذا و ذاك فله بحث مخصوص, و هو من أعظم أسس نظرية المعرفة المقدسة, و يحتاج الى دراسة خاصة و انما هذه الدراسة قائمة على اثبات اصل استمراية النبوة و ليس تفصيلها و تفصيل تفاصيلها و التبحر في أسرارها. و لكن أكتفي بالتأشير الى مسألة مهمة جدا و هي أن "ذات عقولهم" لا تعني العقل بالمعنى الدنيوي المنطقي الذي يستعمله العوام في هذا العصر الحديث (بالمعنى الغربي الميت الذي ينفي كل درجة وجودية غير أسفل سافلين الاجسام, و يعتبر كل الحقيقة, و الحقيقة كلها, كامنة في هذا العالم الجسماني . و لو قال أحد من البشر مثل هذا الاعتقاد في ظل مجتمع عرفاني لوضعوه في مستشفى المجانين و لكن مع الأسف أصبحت الاكثرية من المجتمعات "المتدينة" قائمة فعليا على هذه العقيدة, فنرى غافلا يقول أن محل الفكر هو "الدماغ" ! و نحو ذلك من سخف) العقل بالمعنى القدسي هو أعلى درجة في الوجود بعد ذات الله تعالى, و هو جوهر الانسان و سر الخلافة و قاعدة النبوة و الولاية. فيوجد فرق جبار بين العقل الدنيوي و العقل القدسي, و الدنيوي بالنسبة للقدسي كأظافر القدم بالنسبة للرأس.

و اما النص بالاستنباط, فهو قوله " ما برح لله- عزت الاؤه- في البرهة بعد البرهة, و في أزمان الفترات" هنا يوجد ثلاثة أمور: أولا, قوله "في البرهة بعد البرهة" مما يدل على الاستمرارية عموما, و يشير الى سنة لله في الكون, و سنت الله لن تجد لها تبديلا و لا تحويلا. و ثانيا قوله "و في أزمان الفترات" مما يشير اشارة واضحة الى مصطح الفترة في قوله تعالى "على حين فترة من الرسل" و الفترة هنا هي الحالة التي لا يكون فيها رسل بالمعنى الخاص, مما يعني أنه يتحدث عن أناس يخرجوا خصوصا في أمثال أزمان الفترات هذه, و هذا يدل على استمرارية الوحي العام فباب السماء لا يقفل أبدا- حاشا لله أن تغل يداه أو تنتقض سنته. و ثالثا أمر بدهي و هو أن وصف أناس انقرضوا هو لغو ! ففضلا عن أن النص العلوي هنا يبين طريق الوصول الى هذه الولاية و النبوة كما بينا فانه عموما لا فائدة

أصلا من وصف مثل هؤلاء ان كان لمجرد الوصف, هذا من العبث, عند العلماء : انما توصف المقامات للناس حتى يرتقوها او يخضعوا لاربابها. فعلى الوجه الاول يكون وصف علي لهؤلاء الأنبياء الاولياء هو دعوة للناس الى ارتقاء هذا المقام. و على الوجه الثاني يكون وصفه هو أمر للناس بأن يطيعوا هؤلاء اذا رأوهم و لذلك وصفهم بدقة و جعل لهم ايات تدل عليهم, فيكون على هذا الوجه أيضا توجد دلالة قوية وواضحة على استمراية وجود أمثال هؤلاء الناس.

و اما القرينة القوية جدا, فهي أننا لو نظرنا الى صفات و سمات هؤلاء العباد الذين ناجاهم الله و كلمهم, سنرى أنها عين صفات الرسل و الانبياء المذكورة في القرءان و المعروفة بداهة لكل مؤمن بهم. فانظر مثلا الى هذه السمات :

1 الله "ناجاهم...كلمهم". و هذه سمة نبوية خالصة كما رأينا في حالة موسى خصوصا و الانبياء الكبار عموما.

2 " يذكرون بأيام الله " أيضا هذه سمة نبوية, فقد قال الله لموسى "و ذكرهم بأيام الله".

3 "و يخوفون مقامه" و هذه بدهية. كقوله "ذلك مما يخوف الله به عباده بالغيب".

4 " بمنزلة أدلاء في الفلوات" و هل يوجد سمة أكثر استعمالا في حق الانبياء من كونهم أدلة في فلوة الارض. "كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران".

5 " من أخذ القصد حمدوا اليه طريقه و بشروه بالنجاة, و من أخذ يمينا و شمالا ذموا اليه الطريق و حذروه من الهلكة" و هذه سمة الرسل الكبرى أي كونهم كما قال الله "و ما نرسل المرسلين الا مبشرين و منذرين".

6 "مصابيح تلك الظلمات, و أدلة تلك الشبهات" أيضا سمة نبوية كبرى, و هل يرسل الانبياء الا ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور, و هل تنزل الكتب الا لهذا.

7 و هكذا الكثير من هذه السمات من قبيل "يهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين, و يامرون بالقسط و يأتمرون به, و ينهون عن المنكر و يتناهون عنه" و كذك مثل "فكأنما قطعوا الدنيا و هم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك فكأنما اطلعوا على غيوب أهل البرزخ...فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا...كانهم يرون ما لا يرى الناس و يسمعون ما لا يسمعون" و كذلك "أعلام هدى, و مصابيح دجى, قد حفت بهم الملائكة, و تنزلت عليهم السكينة, و فتحت لهم أبواب السماء (!) ".

فان لهم يكن هؤلاء من رسل الله و أنبياءه فلا نعرف لله رسولا و لا نبيا. فعملهم عمل الرسل, و أصلهم أصل الرسل, فكيف لا يكونوا من الرسل ! كلام الله سمعوه منه, طريق الله سلكوه و دعوا اليه, ماذا تريدون أكثر من ذلك . لعلهم يريدون قلب العصا حية و احياء الموتى, او ما يسمونه بالعصمة المطلقة و نحو ذلك. قد خصصت رسالة لمسألة "المعجزات" هذه, و تبين أنها أمثال و رموز و ليست أمور جسمانية, فمن شاء أن يراجعها فليراجعها في كتابي رسائل العرش و غيره. و كاشارة سريعة أقول: لا أحد يستطيع أن يجزم بكون انسان ما "معصوم مطلقا" من حيث الموضوع, لانه حتى تتيقن و تقطع بهذه العصمة- كما يفهمونها- يعني أنه يجب أن تكون مطلعا على كل احواله الظاهرية و الباطنية, في كل اوقاته السرية و العلنية, و هذا يعني أنك تصبح مثل الله الرقيب الحسيب, ثم تنظر هل فلان معصوم مطلقا و لم يذنب أي ذنب منذ ولد أو منذ بعث حتى توفي , فأيكم بذلك زعيم ؟ و أما الاستدلال بايات القرءان على مثل هذه العصمة فهيهات. انما هذا أمر بين الله و عبده و لا اطلاع لاحد عليه اصلا, و لا سبيل الى اطلاع أحد عليه, بل و لا فائدة من مثل هذا الاطلاع على فرض امكانه, و ان قيل: نريد أن نعرف عصمته لنعرف كونه يقول الحقيقة. أقول: اعرف الحقيقة تعرف اهلها ! فضلا عن أن المشاهد من أصحاب هذه الديانات أنهم يبررون لرسلهم و كبراءهم كل أفعالهم مهما بدت أنها مجرمة او سفيهة أو ناقصة ! و هي نفس الاعمال التي لو صدرت من عدوهم لاقاموا الدنيا و ما أقعدوها عليه و على اتباعه و لشهروا به تشهير ما بعده تشهير, و لكنها ان صدرت عن من يعتقدون بقدسيتهم وجدتهم دكاترة في المحاماة بالنسبة لاسلوبهم في التبرير, و لوجدتهم فلاسفة كبار على مستوى التنظير. فأنى لنا أن نثبت لهم عدم تحقق العصمة المطلقة في أحد من رسلهم او أئمتهم و هذا هو واقع حالهم ؟!

و أما عن "المعجزات" فانه حتى اذا سلمنا بها كما يفهمونها, فانها ليست الا وسيلة لاقناع الكافر بصدق الرسول, فهي مجرد وسيلة للكفار, و بالتالي لا قيمة لها بالنسبة للمؤمنين من قبل و لا قيمة لها بالنسبة لمن يعرف الحقائق فيعرف أهلها. فالجاهل الذي يقول له الطبيب (لنستعمل مثل ابن رشد بتصرف) " أنا طبيب صادق عليم" ثم يرد عليه "أنا لا اصدق أنك طبيب, اثبت لي ذلك بمعجزة" فيقلب له الطبيب الكرسي الى أسد, فيصدق هذا الجاهل بارتباط الطبيب بالغيب, نعم قد يكون هذا طريق لمثل هؤلاء, و لكن بالنسبة للأطباء و طلبة علم الطب, فانهم يستطيعوا أن يعرفوا كون الرجل طبيبا فعلا و مستواه في علم الطب بالنظر الى معرفته و حاله و نحو ذلك من أمور حقيقية. فعلى فرض وجود هذه "المعجزات" و تفسيرها كما يفسرها فقهاء العوام, فانها تكون فقط لهذه الرتبة المتدنيه من الناس (مع العلم أن هذا التفسير يؤيد نظرية بعض الفلاسفة في كون الرسل انما جاءوا للجهلة و السفاء من الناس, فتامل !).

مع العلم أنه على اعتبار أن الرسول هو الشخص الذي يأتي بالاضافة الى رسالته و معرفته الالهية, يأتي أيضا ب "المعجزة" و تكون فيه "العصمة" يمكن أن نعتبرها تفسيرا لمعنى الرسول بالمعنى الخاص. فيكون الرسول بالمعنى العام هو الذي يكلمه الله (على مستوى ما) و ينشر مضامين هذا الكلام بين الناس, و هو ما نسميه نحن بالنبوة

المستمرة. و هذه النبوة المستمرة ليس فيها "معجزات" و لا "عصمة" بالمعنى الذي يعتقده العوام. و يكون الرسول بالمعنى الخاص هو الذي يأتي بهذين الامرين. نعم حتى ان سلمنا بهذا فانه جائز الى حد ما, و يكون مخرجا بالنسبة لمفهوم النص العلوي حين قيد ظهور هؤلاء العباد المكلمين ب "البرهة بعد البرهة, و في أزمان الفترات".

فالمعنى: يوجد رسل في كل زمان. و يوجد رسل يأتوا بمعجزة و عصمة, و رسل يأتوا فقط بالمعرفة و فروعها. الرسل اصحاب المعجزة و العصمة غيابهم يسمى "فترة" و هؤلاء- حسب الاعتقاد الشائع- قد انقرضوا. (و بالنسبة لنا: نعم هؤلاء فعلا قد انقرضوا, و لكن أساس اعتقادنا ليس نظرية ختم النبوة و نهايتها, و لكن نظرية أخرى مفادها: هؤلاء الرسل لم يوجدوا أصلا ! و لكن لا بأس, بل الحمد لله أنهم أيضا قد اعتقدوا بانقراضهم , كالديناصورات تماما, فان هذا الاعتقاد مقدمة للتحرر من هذه العقيدة بالكلية) و أما الرسل الذين يكلمهم الله في ذات عقولهم و يناجيهم في فكرهم, و يقيمون الدين في أنفسهم و يدعون الاخرين اليه فهؤلاء لم و لن ينقرضوا أبدا و لله الحمد.

فاذن, على هذا الأساس يكون تفسير كل نص علوي ينفي استمرارية النبوة و الرسالة, يجب أن يفهم في هذا الاطار. و هو النبوة و الرسالة بالمعنى الخاص. و أما المعنى العام فلا.

و اقوى نص للدلالة على هذه الحقيقة, أي حقيقة استمرارية النبوة, هي قول علي عليه السلام

"و ما برح لله- عزت الاؤه- في البرهة بعد البرهة, و في أزمان الفترات: عباد ناجاهم في فكرهم و كلمهم في ذات عقولهم".

و الطريق الاكبر الى هذا المقام الأعظم هو ان تكون من اهل الذكر كما قال علي عليه السلام

" و ان للذكر أهلا...يقطعون به أيام الحياة".

و من أعظم ثمار هذا الطريق المقدس هو أن تصبح كما قال علي عليه السلام ممن هم

" أعلام هدى, و مصابيح دجى, قد حفت بهم الملائكة, و تنزلت عليهم السكينة, و فتحت لهم أبواب السماء".

و لعل أناسا سيأتوا و يرووا كثيرا من الروايات عن علي عليه السلام أيضا فيها نفي لاستمرارية النبوة بأي درجة من درجاتها. و سأضرب مثالا واحدا فقط و ليقاس الباقي على هذا المثال بحسب ما يناسبه, مع تذكر أن المطلق

يحمل على المقيد, فان جاء نص عن علي مثلا ينفي أي استمرارية للنبوة بصورة مطلقة, فيبنغي أن يحمل على النبوة بمعنى مخصوص و هي التي ساذكرها الان ان شاء الله, و ليس كل نبوة بالمعنى الذي فصّلناه في هذا الكتاب.

جاء رجل الى علي عليه السلام فقال له : أنبي أنت ؟ فردّ علي : ويلك! أنا عبد من عبيد محمد.

فكما ترى, فان ظاهر الرواية بالنسبة للقارئ السطحي تظهر أن علي ينفي أنه نبي بكل معاني النبوة و مستواياتها. و لكن اذا تأملت الجواب أدركت مرمى السؤال و المقصود من الجواب أيضا. فان علي لم يجيبه بالقول : لا لست نبيا. بالرغم من أن هذه هي الاجابة المفترضة ان كان قصد السائل- و فهم علي للسؤال- انه مجرد سؤال عن النبوة. و لكن اجابة علي : ويلك أنا عبد من عبيد محمد. تكشف أن علي نفى عن نفسه نبوة من نوع معين, و ليس مطلق النبوة. و هي النبوة التي تنافي نبوة سيدنا محمد و تنسخها. فالظاهر أن السائل يفهم من النبوة النبوة التي تنسخ ما قبلها بالنسبة للقوم الذين ظهرت فيهم أو النبوة التي تأتي بشرع جديد كليا أو النبوة التي تنشئ طريقة مستقلة عن الموجود, باختصار: نبوة كنبوة سيدنا محمد عليه السلام. كتاب جديد, و أسس جديدة و طبقية جديدة يكون رأسها الاعلى في الناس هو النبي. و هذا ما أنكره علي في نفسه. فالنبوة تأتي في سياق أمة مخصوصة, كأنبياء بني اسرئيل في المثل القرآني, فداود و سليمان مثلا أنبياء في سياق أمة موسى و كتابه الامام, و هم يسبحون في فلك نبوة موسى. فنبوة موسى استمرت في داود و سليمان. هذا ما أقصده باستمرارية النبوة في فلك نبوة سيدنا محمد عليه السلام. فأنبياء أمة محمد هم كأنبياء أمة موسى. مثلا بمثل, و لن تجد لسنت الله تبديلا. و لهذا أجاب علي: أنا عبد من عبيد محمد. و هي التبعية المستبصرة الوارثة لنور محمد. و قس على هذا.

و لنكتفي بهذا القدر في هذا المقام.

اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين, و بارك لنا في سعينا, و اعصمنا في كل أمرنا. أنت ربنا و ولينا و مولانا, عليك توكلنا و اليك انبنا و اليك المصير. و أنت حسبنا, و أنت نعم المولى و نعم النصير.

(النص و النقد)

" الاطلاع على مراد الله تعالى من التكليف أعسر من الاطلاع على غيره من المعارف و دقائق العلوم, كما نص عليه العلماء " من كتاب قصة نبي الله موسى و الخضر, للشيخ علي الأحسائي.

هذه الفكرة المتضمنة في هذا النص هي السيف الذي يشهره أدعياء انقطاع الصلة النبوية بين السماء و الارض. فمن تأمل جيدا في الميراث المعرفي لمختلف الفرق و من ينظر الى أقوال عوام الناس أيضا من المؤمنين و المسلمين و الاسلاميين, فانه يرى بوضوح أنه لا توجد مشكلة حقيقية عند احد من العلماء او الفرق في اثبات وجود صلة ما بين الله و عباده, و أحيانا يسمونها "الهام" أو "خواطر" أو نحو ذلك. و لكن معظمهم يتحرز من أن يسميها "وحي". و أما العرفاء من الصوفيين و من سار على دربهم فان كبارهم- كالشيخ الأكبر- لا يتحسس من أن يطلق صفة الوحي على ما يرد عليه أحيانا, و ان لم يكن بالنص و لكن مضمون كلماته في بعض الاحيان تعتبر ادعاءا أكبر بكثير من مجرد ادعاء الوحي النبوي. على سبيل المثال, عندما يفتتح فصوص الحكم بان يقول أن النبي عليه الصلاة و السلام هو الذي أعطاه كتاب فصوص الحكم, فان هذا- خصوصا داخل منظومة فكر الشيخ الأكبر- تعتبر ادعاءا صريحا باستمرارية النبوة و الوحي, و ان انكرها بعد ذلك لسبب أو لاخر (قد يكون تقية, و قد يكون له تأويل خاص, او لعله انكر النبوة "كما يفهمها" العوام و الجهلة او غير ذلك من أسباب محتملة). قد تقول : و لماذا تعتبر هذا ادعاءا صريحا باستمرارية النبوة؟ أقول: لأن الشيخ ابن عربي رضوان الله عليه يرى أن "كل الأنبياء نواب محمد " ! أي أنه أصلا لم يتنزل وحي من السماء على رسول أو نبي الا بواسطة النبي عليه الصلاة و السلام, النبي في المقام الأعلى له. فلا ابرهيم و لا عيسى و لا موسى و لا أحد من الأنبياء و الرسل الا و قد أوتي وحيه بواسطه محمد و انما جاء كجزء من الوحي المحمدي الكامل الخاتم, فما فعله محمد هو أنه أظهر الدين الكامل الذي ظهرت

حكمه و أسراره تدريجيا على قلوب الرسل المتعددين. فعندما يقول الشيخ أن النبي هو الذي أعطاه كتاب الفصوص, فان هذا يساوي في المعنى القول بأن الله اوحي التوراة لموسى. بل بالاضافة الى ذلك عندما ننظر في كتاب مثل الفتوحات المكية فاننا نرى تصريحات عديدة بأن الشيخ لا يأخذ علمه الا من الله و الا عن طريق الكشف, و أمثال هذه التعبيرات, و هذه كلها ليست الا ادعاءات بالنبوة بدرجة من درجاتها, و كلمة "الكشف" هي الكلمة التي اضطر العرفاء أن يستعملوها من باب الرمز و التقية, بدل أن يقولوا "وحي". بل ان بعض العرفاء, و الواقع أكبرهم كابن عربي, أوتي من العلم الالهي و الكتب ما لا نجد له مثيلا على الاطلاق عند أحد من "الأنبياء" الذي يؤمن بهم عوام الناس من مختلف الاديان, اللهم الا باستثناء هذا القرءان على نحو خاص و من حيثية خاصة. أرونا كتاب "التوراة" او "الأناجيل" أو غير ذلك من الكتب "المقدسة" و لنقيم بينها مقارنة مع كتاب الفتوحات المكية أو فصوص الحكم, والله لا شئ من هذه الكتب يوازي كتب الشيخ. و هذا ليس من "الغلو" في شئ, من تعمق و نظر و فتح الله له رأى بنفسه. على اية حال, انظر الى كلمات العرفاء و دقق في تعابيرهم و كلماتهم و تعمق في مضامين نظرياتهم و أفكارهم, و سترى أنهم كلهم "أنبياء" على درجات مختلفة, ستروا حقائقهم عن الناس, بسبب جهل الناس و عدم استعدادهم لمثل هذه المكاشفة. و ليس النبي الا من أوتي علما بالنبوات و الأنباء من لدن الحق تعالى. و أما تعبيره عن ما اوتيه للعموم أو عدم تعبيره عن ذلك الا للخواص أو عدم تعبيره مطلقا أو تعبيره و لكن برمز و ستر فهذه مسائل أخرى ثانوية.

ليس عند الناس عموما مشكلة في أن يسمعوا بل أن يقولوا أن "الله ألهمني كذا" او "استخرت الله فيسر لي كذا" أو "الله أمرني أن أكتب الكتاب الفلاني" و نحو ذلك من التعبيرات "المجازية" ان صح التعبير, او التي يقولها بعض الناس و هو فعلا يؤمن بمضمونها, و لكن اذا وضعناه على المحك و شددنا عليه و قلنا له مثلا "ماذا تقصد أن الله ألهمك هذا ؟ هل تدعي أن الوحي ينزل عليك, أو أن الله يكلمك ؟" فانه تلقائيا سيقول: لا لا لا أقصد هذا, بل انما أقصد أن قلبي انشرح للموضوع الفلاني او أن طريق كتابة الكتاب تيسر و أفكاره تواترت عليّ بعد ان دعوت الله بالتيسير و أنتم تعلمون أن الله يفعل كل شئ فانما نسبت له ذلك من باب اظهار العبودية و الافتقار الى مدده و لكن في الواقع فاني أنا الذي فعلت و أنا الذي فكرت و أنا الذي ألّفت بمحض القوة التي أودعها الله في عقلي. و قس على ذلك. فالمشكلة عند الناس هي في ادعاء "وحي" فعلا, "تنزيل" فعلا, و ليس مجازا و لا رمزا و لا استعمال التعبيرات الشعرية العاطفية التي تنسب كل شئ الى الله من باب اظهار التدين و الافتقار و لكن في الواقع لا شئ من ذلك. بل وحيا كوحي الأنبياء, بل عين وحي الأنبياء بغض النظر عن الدرجة و الصورة و اللسان. فان الدرجة تعتمد على قلب المتنزل عليه, و الصورة بحسب لون قلبه, و اللسان بحسب نفسه و قومه. فهذه الامور الثلاثة حيثيات للمتلقي, و لكن الوحي و التنزيل من حيث نفسه هو حيثية للملقي سبحانه و تعالى. الوحي في مرتبته العالية ليس عربيا و لا فرنسيا و لا رمزيا و لا تجريديا و لا قصص و لا فلسفات, الوحي في مرتبته العالية

هو الحقائق في حد ذاتها. فالوحي من حيث المتلقي يعتبر دوال تدل على حقائق, و أما الوحي من حيث الملقي فهو المدلول هو هذه الحقائق ذاتها. مثلا كلمة "الشمس" بالمعنى الجسماني, هذه دالة تدل على حقيقة خارجية هي هذا القرص الملتهب في السماء الذي هو سبب للنهار, و أما نفس هذا القرص الملتهب المسمى بالشمس فهو المدلول و هو الحقيقة في حد ذاتها- بحسب الدال. و كذلك مثلا " الله " فهذه الحروف العربية الأربعة: ا ل ل ه, لا تعني شيئا بنفسها, و انما هي دال, المدلول هو المسمى هو الحقيقة الخارجية في حد ذاتها. الدال يتغير بحسب المتلقين المتعددين, و أما المدلول فهو واحد.

هذا الوحي يعتقد الناس عندنا أنه انقطع و "ختم" و يفهمون الختم بمعنى الانقطاع و القتل و الموت و السد و القفل و الحجب. و لهم في تبرير ذلك تبريرات كثيرة طويلة الذيل ان شاء الله أن نشاء في نقدها واحدة تلو الأخرى لفعلنا, و مجمل القول أنها لا تسمن و لا تغني من جوع. هباءا منثورا. لا قيمة لها و لا وزن لها. و انما هي تبريرات "يقتنع" بها من يعتقد بأصل العقيدة على عمى و خضوع و أحيانا بسبب الكسل و أحيانا أخرى بسبب التقية و الرغبة في مسايرة المجتمع و أحيانا رابعة بسبب ما يشبه سبب انكار الغزالي- رحمه الله- لأمر ما فقط لانه هو لم يصل اليه و لم يراه و لانه اعتقد انه قد بلغ الغاية القصوى و حيث ان الامر المعين لم ينكشف له فهذا يعني أنه باطل حيث انه هو و حدود تجربته معيار الحقائق المطلقة كلها ! (كما ذكرنا في الفصل السابق). كل هذا لا بأس به الان, ما نريد أن نتامل فيه هو الفكرة التي مع الأسف ذكرها الشيخ الأكبر- عفا الله عنّا و عنه – و هي أن الوحي الذي انقطع انما هو وحي التشريع.

جمهور الناس لا يمانع بل لعله يؤمن بامكانية "تنزل" العلوم و المعارف الالهية التي تدل على الحقائق كلها على أحد العرفاء و المتألهين. المصيبة عندهم هي : ادعاء تنزل شريعة جديدة. فقط هذا هو المحذور الذي طالما اجتنبه الفقهاء (بالمعنى الاصطلاحي المتعارف عليه, و الا فالفقيه القرءاني و العرفاني له معنى اخر تماما, لا يعتبر أكبر الفقهاء بالمعنى المتعارف الا صبي أو غلام من غلمان الفقيه الحقيقي) و هذا المحذور هو السبب الرئيسي لكل ما أحيطت به عقيدة ختم النبوة من حصون و جيوش- و أوهام أيضا ! بل اني اكاد أجزم بأن أصل هذه العقيدة هو هذه الرغبة نفسها, أي أن الرغبة هي التي خلقت هذه العقيدة. و ما تحريف النص القرءاني أو نبذ الحقائق البديهية و جحد كل حجة و منطق راقي الا لوازم اضطروا ان يسلكوها في سبيل اشباع هذه الرغبة. ما هي هذه الرغبة ؟ هي السيطرة السياسية الطاغوتية.

الشريعة تعني عندهم القانون الحاكم في الدولة. و الدولة نفسها تستمد شرعيتها أو على الاقل الحد الأدنى من القبول بها او لا أقل عدم معارضتها, من كونها "تطبق الشريعة" و "تحكم بشرع الله". فالدولة في الفرع السني مثلا ليست لها سند شرعي بنحو يؤمن بها الجماهير كدولة اسلامية فعلا اللهم الا هذا السند اليتيم و هو : الحكم بشرع الله. و اما الدولة في الفرع الشيعي عموما فانها تستمد شرعيتها أساسا من كون الحاكم فيها هو الامام من آل محمد, و لذلك في بعض الفروع الشيعية لا بأس أن يغيّر الامام الشريعة بل ان البعض يتنبأ في اخر الزمان

بنسخ شريعة محمد و تنزل شريعة جديدة, و البعض الاخر جعل كلام الامام هو أيضا من الشريعة (الفقه الجعفري مثلا انما هو نسبة الى جعفر بن محمد الملقب بالصادق لكون معظم هذا الفقه جاء بروايات عن جعفر- عليه السلام و أبيه الباقر أيضا) فعندما يقولون "شريعة" فان هذه كلمة ظاهرة, باطنها المستتر "شرعية". لا قيمة للشريعة الا لانها تعطي من يقوم بها الشرعية, الشرعية الاسلامية المحمدية الالهية. هذا في عقول- بل أدمغة الجماهير الذين ستطبق عليهم هذه الشريعة.

و لذلك وجب عليهم أن يقوموا بثلاثة أمور: أولا أن "يختموا" الشريعة, مما يعني أن دولتهم لن تزول من الناحية النظرية حيث ان البناء يقوم بثبات قاعدته و سنده. وثانيا أن "يحتكروا" الشريعة, و هذا يعني أنه كما أن اصدار القانون في الدولة يجب أن يكون محصورا في فئة واحدة (ما يسمى بالسلطة التشريعية في يومنا هذا مثلا) كذلك يجب أن يكون اصدار الشريعة و تعيين أحكامها حكرا على فئة معينة من المسلمين أو الاسلاميين, في هذه الحالة من تسموا باسم الفقهاء. و ثالثا ان "يكبروا" الشريعة, أي أن يجعلوها كبيرة محيطة لا تبقي و لا تذر أي صغيرة او كبيرة الا و هي داخلة تحت حكمها, و من هنا نسبة "صلاحية الشريعة لكل زمان و مكان" و نحو ذلك من تفخيمات و مبالغات سنرى حقيقتها بعد قليل ان شاء الله, و هذا التكبير للشريعة لا يعني في الواقع الا شئ واحد: أن الفقهاء و الدولة "الاسلامية" تملك الحق الالهي في أن تمد سيطرتها على كل صغيرة و كبيرة في حياة الناس و على كل شبر من الأرض من مشرقها الى مغربها, الفقهاء عموما يتولون جانب السيطرة الكاملة على كل صغيرة و كبيرة في حياة الناس, و الدولة تهتم بالسيطرة على كل شبر من الارض (على الاقل هذا كان الحلم في القرون الخالية الهالكة و قد تبخّر هذا الحلم اليوم و لم يبقي منه شئ الا في مخيلة بعض المنتظرين للمهدي السياسي).

فالختم و الاحتكار و التكبير المحيط, هذه هي خصائص شريعة الفقهاء. و التي أقنعوا عموم الناس و عوامهم أنها كلها خصائص حقيقية ذاتية للشريعة القرءانية و المحمدية, و أن كل الاحكام التي تصدر باسم هذه الشريعة هي من الله الى جبريل الى محمد الى الفقهاء أمناء الرسل و ورثة الأنبياء, اللهم الا في حالات نادرة حيث يتغلب الهوى على "بعض" الفقهاء فيزيغوا عن "الشريعة". هذا هو التصور العام. و الان أين محل الانتقاد في كل هذا ؟

الجواب: كله محل انتقاد من أوله الى اخره, من ظاهره الى باطنه. و لكن في هذا الفصل سنركّز على مبحثين, على واقع ما يعرف بالشريعة الاسلامية, و على الفكرة التي صدّرنا بهذا الفصل أي أن معرفة اسرار الحقائق الالهية أيسر من معرفة اسرار التكاليف الالهية.

(واقع الشريعة)

أولا, لا يوجد "شريعة" و لكن يوجد "شرائع". فالتعدد و الكثرة موجودة في كل مسألة تقريبا متعلقة بهذه الشرائع الاسلامية. فمن حيث "أصول" الفقه و الشريعة يوجد اختلافات في كل مسألة تقريبا من مسائلها بدون استثناء. و الاختلافات تصل أحيانا كثيرة الى حد أنها تجمع بين كل الاحتمالات الممكنة و المتناقضة و المتضاربة. و هذه هي الحالة التي أسميتها "القول بدون قول شئ". فعندما تسأل أحد سؤالا فيجيبك بذكر كل الاحتمالات الممكنة أو احتمالات متناقضة متضاربة لا يمكن الجمع بينها بحال, فان هذا يعني أنه لم يقول أي شئ في الواقع. مثلا : هل استعمال القياس جائز في الشرع المحمدي الالهي؟ سيقول لك الأصولي المتبحر: يوجد رأي يقول بأن استعمال القياس جائز و عظيم و النبي نفسه استعمله و رأي يقول جائز على كراهة و كحل أخير و رأي يقول أن القياس حرام و ضلال و أول من قاس ابليس ! و بعد الدخول في تفاصيل المسائل ستجد نفس هذا الاختلاف الذي هو من نوع " القول بدون قول شئ ". و كلهم "مجتهدون" و كل مجتهد مأجور ! ثم اذا دخلنا الى الفقه نفسه, الذي هو تفريع على الأصول, فانه من البديهي أننا سنجد هذه الاختلافات الشنيعة أيضا فيه (بعضهم يسميها "رحمة" لانه يريد أن يتهرب من حقيقة كونها "مصيبة" أو يستعمل فكرة "رحمة" من باب كلمة حق يراد بها باطل) فانه من الطبيعي أن الاختلاف في المنهج سيؤدي الى اختلاف في الثمرة, اللهم الا في حالات نادرة و خصوصا عندما يتعلق الأمر بالحقائق المتعالية عن الصورية و الجسمانية أي الداخلة تحت مسمى "لا شرقية و لا غربية" (و من هنا قيل أن عدد الطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق). فانظر في معظم أبواب الفقه و مسائله, ستجد أنه بعد عرض المسألة ستجد الاجابة عند الفقيه المبتحر في كل المذاهب من كل الفرق يقول هكذا: يوجد فيها رأي يقول يجوز و رأي يقول مباح و رأي يقول لا يجوز و رأي يجمع بينهم و رأي يرجح بينهم...الخ. و كل هذه الاراء تنسب الى الله و شريعة محمد ! ما لا يفهمه هؤلاء هو أن قبول نسبة هذه "الشرائع" الى الله و رسوله يعني أن الله و رسوله لم يشرعوا شئ !! كل الاحتمالات يعني لا شئ, لا شئ يعني أن الأقوى سيفعل ما يشاء ثم يضع عليه ختم الشريعة الشرعية. هل تفهمون هذا أم أنتم من الصم البكم الذين لا يعقلون !؟ بالأمس جاء شاب و سأل أحد المشايخ الفقهاء في مجلسي و قال له: يا شيخ أنا متزوج و أريد أن أجامع زوجتي من دبرها هل هذا جائز ؟ فقال له شيخ الشريعة الفقيه : اختلف فقهاء السنة و فقهاء الشيعة على قولين: قول يقول أنه جائز و قول يقول أنه غير جائز, فقال له الشاب: اذن الموضوع يرجع الى ذوقي الخاص شكرا يا شيخي جزاك الله خيرا ! فعلا هذه أحسن اجابة تعطى في مثل هذه الحالة و أشباهها, و أشباهها بل مثيلاتها لا حد لها. و من اطلع على ما يسمى بالفقه المقارن يدرك ما أعنيه جيدا. بل انه حتى لو لم يوجد احتمال معين في الاجابة عن مسألة معينة فان "الفقيه" الضليع في الاصول و الأدلة يستطيع أن يصطنع لها دليلا و يجعله أيضا "رأي" في الشريعة الاسلامية المحمدية الالهية. فالشرائع هذه ليست "مرنة" كما يحب أن يزعم أنصارها, و لكنها "زئبقية" ان شئت. كل من يريد أن يشكلها كما يشاء فانه يستطيع أن يقوم بذلك.

و في يومنا هذا أصبح من الشائع أن نسمع كلمة "مقاصد الشريعة". (و لقد خصصت كتاب أسميته "أنبياء بلا نبوة" لتحليل و نقد أهم كتب و نظريات مقاصد الشريعة في السابق و اليوم و ان شاء الله أن أتمه أتممته) و بعد دخول هذا الأصل و رواجه في الدوائر الاسلامية أصبحت الشريعة "الزئبقية" شريعة "هوائية" فلا صورة لها بالمرة و لا

شكل و لا شئ على الاطلاق. ففي السابق كان السائد ان يستدل ثلاثة فقهاء بنفس الاية او الرواية و لكن كل منهم يأخذ باحتمال من احتمالات فهمها و يقول برأيه على أساس هذا الاحتمال, أو تقديم دليل و تأخير اخر أو نحو ذلك من اختلافات منهجية و تفسيرية تدور كلها في فلك الشريعة و نصوصها في غالب الاحيان. و لكن بعد دخول "مقاصد" الشريعة, فان الخرق اتسع حتى ان أكبر مغزلة في العالم لا تستطيع أن ترتق هذا الفتق. و المعنى الحقيقي اللازم من القول بوجود مقاصد لأي شئ هو أن الشئ يصبح "وسيلة" و "المقصد" هو الغاية, فالوسيلة اذا لم تصل الى الغاية فانها تفقد شرعيتها و حجتها العقلية من البقاء, و أي وسيلة اخرى توصل الى هذا المقصد المعين تعتبر وسيلة شرعية لأن كل ما يوصل الى الغاية ان لم تعارضه غاية و مقصد اخر فانه يعتبر سليما مقبولا. و المقاصد هي أمور شديدة التجريد, مثل أن يقال أن "العدل" مقصد, أو "اليسر" مقصد, و نحو ذلك. و هذا يعني أن "المقاصد" هي الالهة الجديدة, و أما "الشريعة" أي الاحكام المخصوصة و المقيدة و الصورية فانها مجرد وسائل و طريق للتقرب من هذه الالهة العالية, فما كان طريقا صالحا في زمن قد يصبح طريقا فاسدا في زمن, و ما كان طريقا فاسدا في زمن قد يصبح طريقا صالحا في زمن, و قل مثل ذلك في الأمكنة و الحالات و الظروف. و هذا يعني أن الشريعة- أي شريعة اسلامية- اذا ظهر أنها مخالفة ل "مقاصد الشريعة" (!) فان اطرّاح الشريعة واجب و العمل بما يوافق المقاصد هو الأولى و هو الحق و من لا يعمل بذلك فهو جاهل أحمق يؤدي عمله هذا الى تعطيل الشريعة و كفر الناس بها.

لعلك تتساءل: ما علاقة مقاصد الشريعة هذه باستمرارية النبوة ؟

الجواب: نسخ او توقيف العمل بحكم من أحكام الشرع النبوي يعتبر عمل من أعمال الأنبياء, وضع حكم باسم الله و النبي يعتبر أيضا من أعمال الأنبياء, تعيين مصاديق "مقاصد الله و رسوله في شرعه" يعتبر من أصعب و أهم أعمال الأنبياء, و كل هذه الاعمال هي من صميم عمل الفقهاء و فقهاء "مقاصد الشريعة" على وجه الخصوص.

عندما يقال أن : التيسير في الشريعة من مقاصد الله و رسوله. هذا مفهوم الى حد كبير. و لا اشكالية فيه بين أهل القرءان و الاسلام عموما. و لكن الاشكالية لا تأتي من ذكر هذا المقصد أو ذاك. الاشكالية تأتي من تعيين مصداق هذا المقصد. المقصد الشرعي بدون أن يتفعل في الحكم الارضي لا قيمة له و يعتبر مجرد حبر على ورق و أشعار يتفاخر بها أهل الجاهلية. فمن الذين يقول أن العمل الفلاني قد دخل في حد العسر و بالتالي يجب أن يتم تيسيره بالصورة الفلانية ؟ بأي حق يقول هذا ؟ هذا من صميم التشريع. التشريع الذي يفترض أننا اتفقنا على أنه من اختصاص الأنبياء و الذي انقطع كل وحي متعلق به. بل ان فهم نصوص الله و رسوله في الحقيقة لا تتم الا بقوة و مدد حي من الله و رسوله. و لذلك مثلا في العقيدة الشيعية يعتبر الامام هو المفسر الرسمي للشريعة و النصوص الالهية و النبوية ان شئت. و لكن ما يحدث هو أنه بمجرد أن انسانا قرأ بضعة كتب و درس لفترة معينة , فانه يملك الحق في أن يقول "هذا مقصد الله" و " هذا يوافق المقصد أو يخالف المقصد". و نحو ذلك من أمور هي من صميم التشريع. الفقهاء أنبياء بلا نبوة. هم يتصرفون من حيث التشريع كالأنبياء تماما (كما في عقيدتهم طبعا) فهم

يطلقون على هذا العمل أنه حلال و هذا انه حرام و هذا أنه جائز في حال كذا و ممنوع في حال كذا و كله باسم الله و رسوله, و الأدهى من ذلك أنهم يختلفون الى حد العدمية كما ذكرنا, و هذا طعن مباشر في الله تعالى و رسوله. و لا أدري لماذا لا نطبّق معيار " و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " على ما ينتجه الفقهاء من أحكام فيه أكثر بكثير من مجرد "اختلافا كثيرا" بل انه اختلافا مميتا ! و هذه القاعدة القرءانية شاملة كما ترى. و لا تختص بباب دون باب. على أية حال, و من الامور الشائعة أيضا خصوصا اليوم أن كل من قرأ بضعة ايات و روايات أعطى نفسه الحق في أن "يستنبط" مقاصد الشريعة, و يزعم أنها ب "الاستقراء" أو نحو ذلك و قد يكون صادق أحيانا, و لكن ما يغفله هؤلاء أن استقراء القرءان يمكن ان يجعلنا نخرج بألف مقصد و مقصد. و ما فعلته في فصل "الأركان من القرءان" هو من هذا الباب. فكما أني ذكرت هذه الأركان, و التي أرى أنها شاملة مستوعبة أساسية, فانه يستطيع أي أحد أن يستخرج غير هذه الأسس و قد فعلوا فعلا. فمنهم من أراد أن يجعل "الحرية" مقصدا شرعيا, و "التزكية" و "العمران" و نحو ذلك. طبعا الذي يحدث في كثير من الأحيان خصوصا عند من لم يؤت اذنا من الله في مثل هذا التصرف هو التالي: يقرأ نصا أو بضعة نصوص, و تكون عنده فكرة مسبقة عن شئ يريده و يراه بسبب فلسفة معينة عنده أنها مهمة و أساسية, ثم يستنبط من هذه النصوص أن كذا و كذا من مقاصد الله في صنعه للأحكام, ثم يرفع صاحبنا العبقري هذه المقاصد الى مقام العرش, ثم يبدأ ينزّل الأحكام منها و يبدأ يضلل و يبدّع على أساسها. فمن بضعة نصوص يخلق الها و يجلسه على العرش ثم يبدأ يتكلم من وراء حجاب هذا الاله و يجعله ينطق بالأحكام كلما أراد. تعيين مصداق المقصد- على فرض أنه مقصد رباني فعلا- هو من صميم عمل النبوة و لا يستطيع أن يقوم به بثقة و يقين بل لا يستطيع أن يجترئ عليه الا من أتاه الله وحيا يؤيده في ذلك. و أما المستهتر بدينه فهذا لا كلام لنا معه, و هو من الذين اتخذوا دينهم لهوا و لعبا و غرتهم الحيوة الدنيا فسوف يعلم عما قريب عاقبة عمله و ما اكتسبت يداه. (بل الواقع ان الله تعالى بدأ بحسابهم فعلا فمحق سلطانهم من الارض و جعل معظم الناس تنفر منهم و من شرائعم و جعل بقية باقية تضطر الى أن تداهن و تتنازل عن كثير من أصولها حتى تستطيع أن تجد لها أتباعا في الجزء البسيط من الحياة الذي بقي لهم سلطان عليه, مع تذكر ظاهرة الزئبقية و الهوائية أيضا. صدق من قال "فأما الزبد فيذهب جفاء"). فان كان تعيين مصداق المقصد الرباني هو من صميم عمل النبوة, فما بالك بتعيين هذه المقاصد العرشية نفسها !

فقيه الشريعة الالهية ان لم يكن نبيا بدرجة من الدرجات فانه لا يكون الا ضال مضل. الله يجعل من يشاء اماما ليهدي بأمره. و ليس لأحد أن يتكلم باسم الله بدون سلطان حي من الله. و من لم يكن هذا حاله فهو من الذين يقولون على الله ما لا يعلمون. و هذا محرم, و جرم, و عاقبته سجن جهنم- و العياذ بالله.

لا التفات طبعا لمثل هذه الامور عند من يريد أن يكون له دولة فرعونية تلبس ثوب موسى, و لا لمن أعمى الله بصيرته فلم يستطيع أن يعرف حقيقة مقامه الانساني العالي و خلافته الذاتية فراح يطلب العز عن طريق التسلط على الناس و فرض الأوامر عليهم. و كما أغرق الله فرعون و جنوده, اليوم نشهد غرق دين الفقهاء و أفوله. و دين

العرفاء أصبح يزداد انتشارا في كل مكان, و لم يبق على دين الفقهاء بتمامه الا من انعزل و كبته الله و حصّن نفسه داخل حصون الانكار و وضع الاصابع في الاذان و استغشاء الثياب. و أما البقية فبنحو من الانحاء أصبحوا اما يتبعون دين الغرب الميت المظلم (بأن أدخلوا أصول دين الغرب الميت الكافر السفلي في أصول فقههم و فكرهم و عقائدهم من حيث لا يشعرون, و يحسبون أنهم مهتدون.) أو غير ذلك. و اما على مستوى الدول فلا يوجد دولة واحدة اليوم تعمل بشرائع الفقهاء فعلا, نعم اللهم كلهم فقهاء من حيث الشريعة الزئبقية و الهوائية, نعم من هذه الحيثية كلهم على دين الفقهاء الذي يعني انهم ليسوا على شئ أصلا او للدقة: هم على ما يشتهون.

بمقاصد الشريعة أصبح بالامكان ازالة شريعة و اثبات شريعة. هذا هو اللازم الضروري لها. و من لا يلتزم بهذا اللازم انما يمتنع خوفا على شريعته المعينة أن تزول. و امتناعه لا علاقة له بالعقل و المنطق و لا بالدين و الحقائق. انما هو من باب التحصن و الاتقاء.

تعيين المقاصد قائم على المحدودية البشرية, و تعيين مصاديق المقاصد سواء من حيث الموافقة أو المخالفة أيضا قائم على المحدودية البشرية, أي ليس بتأييد نبوي من لدن الله تعالى, فان الحاصل هو أن هذه الشرائع الاسلامية الموجودة اليوم هي: شرائع بشرية. و ليست شرائع نبوية. و أربابها أنبياء بلا نبوة. أنبياء مسوخ, أنبياء كذبة, أنبياء قطّاع طرق. مجرد كونهم يقومون بهذه الأعمال يعني أنهم من حيث الواقع يمارسون مقتضى عقيدة استمرارية النبوة, اللهم الا أنهم ياخذون شكلها و ليس حقيقتها, فهم في حالة "بتر" عن الحقيقة العليا لها. فهي شرائع بشرية مبتورة. و لكنها تزعم أنها شريعة الهية نبوية.

هذه هي الخلاصة: شرائع بشرية مبتورة, تلبس ثوب شريعة الهية نبوية. انزع الثوب ترى الحق.

(أيهما أصعب: معرفة العلوم الالهية أم التكاليف الالهية ؟)

من أعجب الأمور هو الاعتقاد بأن معرفة العلوم أيسر من معرفة التكاليف. و ذلك لامور:

اولا, ان مرتبة العلوم أعلى و أعظم من مرتبة التكاليف. فان العلوم متعلقة بالروح و العقل و القلب, و التكاليف متعلقة بالنفس السفلية و الجسم. فكيف يكون ما هو متعلق بالقلب- الذي هو سفينة النجاة و عرش الرحمن- أيسر مما هو متعلق بالجسم الطيني و الحيوة الدنيا الفانية ؟ هذا من الغرائب.

ثانيا, ان التكاليف تتفرع تلقائيا عن العلوم. و هذا بديهي حتى بالنسبة لأهل الدنيا الموتى. فالأمر و النهي انما يأتي بعد معرفة أمور معينة. و الأمر و النهي الغير قائم على علم انما هو عمى و ضلال و من رموز الغباء و السفه. و هل يوجد أشد رفضا عند العاقل المحترم لنفسه من ان تأمره بأمر ثم تقول له: هذا الأمر غير قائم على علم و لكن عليك أن تفعله ! أحسب أن هذا من المسلمات عند العلماء بل عند "المثقفين" كما يسمون أنفسهم. فكيف يعتبر أحد أن معرفة العلوم و الحقائق الالهية المقدسة أيسر من معرفة "حلال و حرام " ! و هل الحلال و الحرام الا تمثيل لحقيقة عالية أو جلب منفعة للجسم و المجتمع. فمن أدرك الحقيقة استطاع تعيين الشريعة. فالشريعة تتعدد بحسب أحوال الناس أفرادا و جماعات (و هو ما أصبح يقول شئ قريب منه جدا الفقهاء و لكن بعد زمن طويل و حتى عندما قالوه في السابق او اليوم فانهم لا يجدون الجرأة الكافية لاعلانه أو للسير فيه الى أبعد مدى من لوازمه) و لا أحد يستطيع أن يشرّع لك الا ربّك. لانه هو أعلم بك و ان توكلت عليه و استمددت منه فانه سيمدك و يكشف لك و "يوحي" اليك ان كنت من أهل ذلك برحمته و توفيقه. الله حق, و الله حي, الله ليس شخصا تكلم منذ بضعة قرون أرضية و مات و ترك ميراثا من كلامه في ذاكرة و كتب عصابة من العرب و الأعراب كانت تعيش في الصحراء. فمن لا يحسن الانصات لله تعالى فليعمل بما في عقله من قوة و لا ينسب أي شئ الى الله تعالى من حيث النسبة الرسولية و النبوية. لتكن فيكم الجرأة و الانسانية و الرجولية الكافية لأن تقولوا: أنا أقول كذا ! عندما تكون فعلا أنت القائل. و أما اذا كان الله قد أوحي اليك بأمر فقل: الله أمرني أن أقول كذا. و ان لم تستطيع التفريق بين الاثنين فاصمت خير لك و لمن يسمعك. فالحاصل, أنه من عرف الحقائق بالتحقيق عرف الشرائع بالتعيين. مع العلم أن التنزيل لا يكون الا باذن الله. و النبي هو الذي يحصل على هذا الاذن. فالحقيقة في السماء, و الشريعة في الارض, و لا يتنزل شئ من السماء الى الارض الا بالمرور عبر باب: اذن الله. فان أذن كان للمتنزل حكم النبوات و الرسالات. و ان لم يأذن فانه لن يتنزل شئ من السماء, و انما سيكون شئ نابع من سماء عقل الانسان نفسه و في حدود نفسه و محيطه.

فاذن يوجد نوعين عموما من الشرائع: شريعة مأذون بها و شريعة بشرية. الذي يأتي بشريعة مأذون بها هو نبي و رسول. و كل من سوى النبي فهو من أصحاب الشريعة البشرية (سواء زعم أنه تابع لنبي أو غير ذلك. و هذا يعني دخول كل ما يعرف بانه "شريعة اسلامية" و أربابها تحت هذا المسمى) و كما ذكرنا من قبل, فان تحديد منهج فهم شريعة, او أحكامها المعينة أو كل ما له علاقة بها فانه يعتبر تشريع و في حيّز التشريع. و بالنسبة للشريعة النبوية الماذون بها, فان كل ما له علاقة بها يجب أن يكون صادرا من نبي- أيا كانت درجته. و النبي لا يكون نبيا الا بعد أن يؤتى اذنا من العرش الأعلى. و ما عدا ذلك فهو شؤون بشرية. فبدون حضور نبي: لا شريعة الهية. فحقيقة الاعتقاد بان الانبياء كالديناصورات وجدوا في زمان بائد و هلكوا, يعني في المحصلة- المحصلة التي يظهر أننا اقتربنا منها الا أن يتداركنا الله برحمته- يعني: ان سلطان الله انمحق من الارض و شمسه غربت على أهل الارض. اني فعلا أتعجب كيف يمكن لانسان يحترم نفسه و حياته أن يتبع دينا على أنه دين الله بدون حضور حجة حقيقية من لدن الله, أي نبي او رسول, "رسولا من الله يتلو صحفا مطهرة". و ليس "فقيها او متفلسفا من البشر يفسّر

بدماغه و محدوديته السفلية صحف الله المطهرة" فتأمل. لا يكون لله على الناس حجة الا بعد الرسل, ليس رسل ماتوا و انقضروا, كما أن قوم ابرهيم لم تقم عليهم الحجة بنوح, و فرعون لم تقم عليه الحجة بصحف ابرهيم, و قريش لم تقم عليها الحجة بعيسى و انجيله, كذلك لا تقوم على أحد حجة اليوم بمحمد و قرانه. الحجة لا تقوم الا بركنين: نبي حاضر و كلام أو أمر نازل. و لهذا وجد منذ قرون قوم يقولون بأن الشريعة كلها معطلة حتى يظهر الامام الغائب أو نحو ذلك. و الحق أنه فعلا لا تقوم على أحد حجة الا بوصول أمر الله اليه. فمن وصل اليه أمر الله في ذاته فهو نبي ذاته. و من وصل اليه أمر الله ليبلغه الى الناس فهو الحجة عليهم في زمانه و مكانه. و بدون ذلك لا قيمة فعلية لشئ مما يزعمه الناس. نعم قد تؤمن به لأسباب متعددة, و لكن اياك أن تزعم بأنه دين الله الذي لا مجال للشك فيه لأن الحجة التامة قد قامت به.

و أما ما يدعيه أنصار انتهاء النبوات مطلقا من تبريرات فهي كما ذكرت لا قيمة لها. فمثلا يقولون أن الاديان القديمة تحرفت و دين محمد لم يتحرف, و لهذا كان دين محمد لكل الناس في كل زمان و مكان و بقية الاديان نسخت. الجواب على هذا القول البائس يمكن أن نجعله طويلا يجيب عن كل شاردة وواردة فيه و لكن نكتفي باشارات تمثل الخلاصة:

لا حجة حقيقية على أن الاديان السابقة تحرفت, فمن ادعى التحريف يجب أن يأتي بالنسخة الأصلية من الدين أو الكتاب ثم يقيم الحجة على هذه النسخة ثم يقيم مقارنة بين النسختين ثم يخرج بنتيجة, و هيهات أن يكون شئ من هذا وقع أو يمكن أن يقع.أولا, و هذا ليس الا كأن يأتي أحد أرباب الديانات التي جاءت بعد دين محمد عليه السلام و يدّعي أن دين محمد قد تحرّف و أنه جاء بالنسخة الشاملة الجديدة- كما فعل البعض بالفعل. و كما أنكم تستسخفون بهذا فاستسخفوا برأيكم.

ثم أنه قد وجد من يقول أن التحريف المزعوم انما وقع في كتاب اليهوذ و اليسوعيين و أنه انما وقع في اخفاء اسم محمد أو في شئ من العقائد التي لم تطل كل أتباع هذه الديانة. و هذا يعني أن كتب غير اليهوذ و اليسوعيين مسكوت عنها و بالتالي لا تكون مشمولة بدعوى التحريف, و كذلك حتى بالنسبة لهذين الكتابين لا يكون التحريف شاملا لكل اتباع الديانة فان قال بعض اليسوعيين بالتثليث (و على فرض أنه باطل بحسب فهم من لا يفقه شيئا في العلوم الحقيقية العالية و يتكلم فيما لا يحسن او بحسب فهم بعض اليسوعيين لهذه العقيدة بشكل خاطئ و مشوه) فانه يوجد منهم من لم يؤمن بالتثليث, و قس على ذلك.

و أخيرا اذا نظرنا الى دين محمد, عقيدة و شريعة, فاننا سنجد أن كل فرقة تتهم الفرق الاخرى بتحريف العقيدة و الشريعة, و هذا يعني أن كل الفرق متهمة بالتحريف ! و حيث انه لا وسيلة فعلية, لا أقل ميسرة و ممكنة, لادراك أيهم على صواب و أيهم على باطل, فان كان هذا الجهد متعسر بالنسبة لمعظم الاسلاميين أنفسهم فمن باب أولى

أن يكون عسيرا بل مستحيلا على غير العرب و غير المسلمين و لا يعقل ان تقوم على أحد الحجة بأنه يجب عليه أن يسعى لتعلم لغة ثم التبحر في كتب المذاهب و الفرق و الخلافات التي لا تنتهي و التي بعد 14 قرنا لا تزال كل فرقة كبرى على عقائدها و لم يحلوا شيئا فما الظن بمن لا يعرف حتى اللسان العربي أو العلوم الاسلامية و الكتب الخلافية, و أرونا سابقة واحدة أن الله تعالى أقام حجة على أحد بمثل هذا أو أقيموا لنا تبريرا شافيا لمثل هذا المسلك, و لا مجال لذلك. بل ان القرءان نفسه, نجد أن روايات سنية تتهم القرءان بانه نقص او تحرف, و روايات شيعية تتهم القرءان بذلك. طبعا يوجد من كلا الفريقين من ينكر صحة هذه الروايات و مضمونها او يلف و يدور في تفسيرها. و لكن اذا أخذت على ظاهرها كما هي, فان هذا يعني- خصوصا لغير المسلم الذي ينظر الى هذه الكتب- أن أكبر فرقتين في الاسلام تتهم القرءان بالتحريف و هذا يعني أن القرءان عندهم تحرف !

ثانيا, ان الذي جعل دين محمد- الشريعة (اذ لا توصف العقيدة الحقيقية بانها "صالحة لكل زمان و مكان" فان الحقيقة حقيقة لا توصف بالصلاح و الفساد كما هو ظاهر)- صالحة لكل زمان و مكان انما هو الفقهاء و ليس محمد. فهم قد وضعوا الأصول و القواعد و المقاصد حتى يستطيعوا أن يجعلوا هذا الكيان الهلامي الزئبقي الهوائي المسمى بالشريعة صالحا لكل زمان و مكان. لولا جهد الفقهاء لما وجدت شريعة اسلامية خارج صحراء مكة و المدينة لبضعة أعوام على الاقل فضلا عن أن يبقى هذا الاسم الى اليوم. و كل شريعة يمكن ان ينسب اليها انها صالحة لكل زمان و مكان ان أحسن أربابها تنظيم قواعدهم و أصولهم. و أبرز مثال على ذلك الشريعة اليهودية, فهؤلاء شريعتهم قبل الاسلام بنحو ألف سنة و الى يومنا هذا, و ها هو دين الهندوس قبل الاسلام بنحو ثلاثة الاف سنة و الى يومنا هذا ! فأي قيمة فعلية و حجية لمثل هذه الدعاوى الشمولية.

و لنضرب مثلا أخيرا على أمثال هذه التبريرات الفارغة التي يستند اليها انصار انتهاء النبوة. يقولون: ان الله يبعث كل نبي بمعجزة خارقة للعادة تناسب قومه, فقوم موسى كانوا مشهورين بالسحر فأعطى الله موسى معجزة من هذا الجنس, و قوم عيسى كانوا مشهورين بالطب فأعطى الله عيسى معجزة من هذا الجنس, و قوم محمد كانوا مشهورين البلاغة و البيان فأعطى الله محمدا القرءان و ثم بما ان دين محمد الى يوم القيامة فقد وضع الله في القرءان اعجاز علمي حتى تقوم الحجة على قومنا في هذا العصر.

الجواب: من أين نبدأ مع هذا الموج المتلاطم من الهباء ؟ قد أبدأ من تبيين أني ضد تفسير ما ورد في القرءان على أنه ايات للانبياء على أنه حوادث جسمانية بالنحو الذي يتخيله العوام, أو أبينّ أن "خرق العادة" لا حجية فيه على فرض أنه وقع أصلا , بل لو وضع شخص الشمس في كفه فأظلم العالم ثم أرجع الشمس الى مقرها في الفضاء لما كان في هذا حجة على أنه نبي من عند الله , أو أبين أنه حتى يثبت لنا أنه قد تم "خرق العادة" يجب أن نكون قد أحطنا علما و شهودا بكل الحوادث التي وقعت على الارض منذ وجدت الى يوم تنتهي حتى نعرف ماهي "العادة" ثم بعد أن نرى معجزة النبي المزعومة نعلم أنه قد تم "خرق العادة" و هذا لم و لن يحصل. أو أسأل هؤلاء العباقرة: و

ماذا كانت معجزة نوح ؟ لا تقول صناعة السفن أو التنبؤ بغرق قومه, لانه دعا قومه ألف سنة الا خمسين عاما بدون أن يغرقوا و معلوم ان الغرق جاء كعقاب لاحق و ليس كحجة سابقة كما هو ظاهر فما هي "معجزة" نوح؟ أو هل يا ترى كان قوم ابرهيم مشهورين بالدخول في النار و الخروج منها أحياء – كما يفعل أتباع بعض الطرق الصوفية أو الهندوسية- فجاء ابرهيم و دخل في نار كبرى و خرج سليما معافى؟ و ان كان هذا الفرض الخيالي صحيحا, فهل كان ابرهيم ابو المسلمين يدعو قومه بدون حجة و بيّنة الى يوم ألقوه في النار؟ و أين هذا من قول الله "تلك حجّتنا أتيناها ابرهيم على قومه" و لا يوجد في ذكر هذه الحجة الا تأمل في السماء و حجاج عقلي عرفاني؟ أو هل كان المشهور عند قوم يونس ان يمكثوا في بطن ثور لبضعة ساعات فأعطى الله يونس القدرة أن يعيش في بطن حوت لبضعة أيام فقامت الحجة ؟ و أستطيع أن أطيل في هذا الباب و من يريد تفصيلا أكثر فلينظر في كتابي " قصص القرءان". و لكن لنضع كل هذا جانبا, مع أنه وحده كفيل باسقاط هذا التبرير, لا أقل اضعافه ضعفا شديدا بحيث لا يقوم كحجة يستعملها الله العزيز الجبار لاثبات دينه أو اعتباره "بينة".

فقط أكتفي بالتذكير بأمرين:

أولا, ان عيسى لم يحتج على بني اسرئيل ب "معجزات" موسى, مع قرب العهد و تشابه الديانة. فكيف يمكن أن يحتج على كل البشرية اليوم على الارض, و فيهم أكثر من ثلاثمائة لغة و لسان, و عشرات الديانات, بعد 1400 سنة, بكتاب عربي لا يفهمه معظم أهله و أتباعه ! (مع اعترافهم بقصورهم الذاتي او الشبه ذاتي عن فهمه). بل ان كتابي هذا الذي بين يديك لو أعطيته لكثير من "العرب" لن يستطيعوا أن يفهوا الكثير منه- و هو ليس بشئ يقارن بالقرءان لا في البلاغه و في في التعمق التام في الامور.,فهل يحتج باللسان العربي القرءاني العظيم على كل هؤلاء الاقوام باختلاف ألسنتهم و أديانهم و أطوارهم و وو...الخ؟ أين هذا في القرءان ؟ أين هذا في العقل السليم, بل و العقل الغير سليم أيضا !

نعم, لذلك أضاف أنصار هذه النظرية قيد جديد و هو فكرة الاعجاز العلمي، بالرغم من ان نفس الاعتراض السابق قائم بالنسبه لكل الاقوام حتى من زمن سيدنا محمد عليه السلام. فالاعجاز العلمي المزعوم هذا هو الحجة على كل من ليس بعربي- و العرب بالتبعيه اذ يفترض ان الحجه على هؤلاء هي البلاغه. و بهذا يمكن أن نقسّم نظريتهم في حجية القرءان الى يوم القيامة الى قسمين: قسم للعرب و الحجة عليهم أساسا بأن يأتوا بمثل هذا القرءان و ثانويا حجة الاعجاز العلمي. و قسم لغير العرب و الحجة أساسا عليهم الاعجاز العلمي و ثانويا أن يأتوا بمثل هذا القرءان.

أقول: ان الحجة قامت على سحرة فرعون بأن جاءهم موسى بمثل جنس سحرهم و لكن بأعظم منه, و الحجة قامت على قوم عيسى بأن شفاهم من أمراض لم يستطيع طبّهم أن يشفيها, (على مبانيكم طبعا) و الحجة قامت على قوم محمد بنفس ما يحسنون هم و لكنه جاء بأعظم مما عندهم. فاذن الحجة على الناس اليوم هي أن يأتي شخص باكتشافات علمية أعظم و أسرع مما يستطيع أن يأتي به علماء الغرب. (هذا على أقل تقدير و مع تسامح كثير, اذ

ليس كل الناس اليوم يهتم أو يفهم المكتشفات العلمية "السفلية" حتى تقوم الحجة عليه به, و لكن لا بأس لنتنزل معهم) الحجة لا تقوم على شخص بأن تأتيه بكتاب فيه ما انجزه هو- هذا بدون الدخول في مضمون استنباطاتهم و منهجهم الزئبقي في ما يسمى بالاعجاز العلمي و نقضه. بل يجب أن يكون الأمر على نفس سياقه في موسى و عيسى و محمد. هؤلاء جاؤوا باشخاصهم و واجهوا قومهم و أهل التحدي فيهم, ثم أخرج هؤلاء ما عندهم و هؤلاء ما عندهم, فكان ما عند الأنبياء أعظم مما عند من ضدهم, فخر السحرة سجدا. و حتى يكون الأمر على نفس هذا السياق, يجب أن يأتي اليوم نبي, يتواجه مع علماء الغرب و مؤسساتهم العلمية الضخمة و "جنودهم" الكبار, ثم يعرض مثلا هؤلاء العلماء معضلات عندهم على هذا النبي (و يا حبّذا لو كان جاهلا لا يقرأ و لا يكتب و معروف عنه هذا و ثابت عنه بيقين كافي تطمئن اليه النفوس) ثم يأتي الوحي الي هذا النبي فيحل لهم هذه المعضلات أو يفيض عليهم نظريات علمية لم تكن عندهم , ثم يتأكدوا فيجدوا أن ما قاله هو عين الحق. اذا وقع شئ شبيه من هذا فان الحجة تكون لا بأس بها و يمكن قبولها أو لا أقل التسليم بها من باب التساهل و الاطمئنان النفسي من كون قوة أعلى من قوة الناس تتصل بهذا الانسان. و اما أن يأتي أحد و يريد أن يثبت نبوة حية و شريعة حية و دين الله بأن يحتج بأن " و الارض بعد ذلك دحاها " و الدحي يحتمل أن يكون مد و بسط و يحتمل أن يكون تكوير كالبيضة المدحية, فان مثل هذا لاشك أنه يوجد خلل ما في عقله . حتى لو وجدت معلومات في القرءان ظاهرها لا يمكن أن يعرفه الناس الا بمختبرات و الات مجهرية دقيقة, كأطوار الجنين في بطن أمه مثلا, فان هذا يشبه في أحسن الظنون احتجاج عيسى بعصا موسى. نحن نعترف بموسى و نبوته فهذا يعني أن دين اليهود الموجود اليوم (على اختلاف فرقهم و طوائفهم و أحزابهم) هو دين موسى؟ هل قبول أن الله كلم موسى يعني أتباع هذا الدين؟ الجواب البديهي: لا. لان دين موسى كان موسى قائم عليه. و أما دين اليهود اليوم فما أدرانا أي عقيدة و أي شريعة هي بعينها العقيدة و الشريعة التي جاء بها موسى. فاليهود يختلفون فيما بينهم اختلافا عظيما في العقائد و الشرائع. فعندما يقيم أحد "الحجة" علينا بأن موسى فعل المعجزة الفلانية, فلنقل أنا سلّمنا له أنه " نعم الا ان موسى نبي و الله كلمه و قام بكل هذه المعجزات و أنزل الله عليه كتابا عظيما ..و لكن يا عزيزي ما أدراني أن هذا الذي عندكم أنتم اليهود بعد مرور ثلاثة ألاف سنة على وفاة موسى هو عين ما كان عنده و كان هو يعتقده و أنزل عليه؟ و ان افترضت أن هذا الذي عندكم فيه الحق الذي أنزله على موسى, و لكن ما أدراني أي فرقة عندها الحق؟ أم يا ترى تريدني أن أتعلّم العبرية و السريانية و أتبحر في كتبكم و خلافاتكم التي لها أول و ليس لها اخر حتى أعرف الحق ! هل بمثل هذا أقام الله موسى و أعطاه بينته على بني اسرئيل في ذلك الزمان ؟ استيقظ أيها الاخ المحترم و كف عن التهريج عسى الله أن يرحمنا جميعا ان ءامنا بأنه سيبعث لنا أحدا من لدنه ". (و هذا بلسان القوم و ليس بحسب اعتقادي الخاص في كثير من المسائل) و مثل هذا يقال عن الاسلام و ما فيه. فلو كان في القرءان نظرية اينشتين للنسبية مفصلة بلغة الفيزياء اللاتينية مع كل المعادلات الرياضية فان هذا لن ينفع في اثبات حجية الاسلام اليوم في قليل أو كثير, نعم قد نقول " فعلا في هذا الكتاب جانب الهي أو غيبي أنزله الله في ذلك الزمان " و أما بعد مرور القرون و وقوع الخلاف في كل صغيرة و كبيرة في الدين, بل و قبل ذلك فان وجود و

حضور حجة الله من النبي او الرسول حق وواجب حتى تتم الحجة و يتبين الدين فان تبيين الدين مهمة رسول و نبي. (و انما انكرت الروايات من باب أني أريد أن نرى القرءان كما هو في ذاته, و أما الروايات ففيها الكثير من الافكار العظيمة و لا شك في ذلك عند من له اطلاع جيد و هذا لا يعني ان نجعلها حجابا على القرءان, فان عدم وجود نبي حاضر يبين هذا القرءان لنا هو حجاب كاف نسأل الله أن يرفعه , فأن نضيف حجب أخرى من قبيل أفكار خارج القرءان عليه كما تفعله المرويات فانه غباء و جهل لا يقوم به حتى غير المسلم الذي يريد أن يفهم القرءان فضلا عمن له صلة روحية بهذا الدين و التنزيل).

و لنكتف بهذا في هذا المجال.

و الخلاصة: على اعتبار أن الدين علوم و أحكام. فالعلوم الوحي فيها مستمر و لا خلاف معضل في هذا. و الاحكام من حيث الواقع فان الفقهاء قد اخذوا على عاتقهم التصرف باسم الله و رسوله بدون وجه حق و اذن من الله تعالى لهم (لكل فرد منهم) في ذلك بل تجرأوا بسبب الغرور او الدنيا او التغرير بهم, و بذلك أصبحوا يتصرفون من حيث الواقع كأنهم أنبياء يشرعون و يفسرون و يحللون و يحرمون و بقية شؤون التشريع من ارتفاع في المقاصد الى تنزيل على الحوادث (و لا علم لهم بتفاصيل و ظروف كل حادثة فردية يشرعون لها او يفتون فيها و هذا من قبيل الطبيب الذي يعطي دواءا بدون معاينة خاصة للمريض و تاريخه المرضي فتأمل المصيبة). و أما من حيث أن معرفة العلوم الحقيقية أيسر من معرفة التكاليف فغير سليم لأن العلم مبدأ الحكم و الحكم فرعه. و العلم أعلى من الحكم و من عرف الأعلى عرف الأدنى. و الدنيوي في الغالب يعرف بالتجربة و التفكر و ها هم أقوام لا حظ لهم من "الشريعة الاسلامية" و دنياهم خير من دنيا الاسلاميين في جوانب كثيره فتأمل ترشد.

ان كان يوجد غرائز ثابته في الطبيعه البشريه، و كان الاستقراء التاريخي و الحاضر، و التحليل النفسي و التاويل المعنوي، هم الطرق لاكتشاف هذه الغرائز، فان من اول الغرائز بروزا يبدو انها : عشق القتل . القتل الذي يبدو مستهجنا بالنسبه لمن تسامت نفوسهم، هو اللذه الكبرى للهمج و البرابره من الحيوانات البشريه. سواء تمثل هذا في صوره دول و مؤسسات او في صوره جماعات و عصابات متفرقه، فان القتل هو القتل. هذا طبيعي و متوقع و ليس ادانه اخلاقيه او عاطفيه. فغريزه القتل من الامور المركوزه في الطبيعه البشريه، و لكن كبتها و قمعها و تحويلها او تساميها هو سبيل الحضاره و الترقي الانساني. و للانصاف، لا نعلم سببا خاصا يمكن ان يقتنع به الهمج، لان من شروط الهمج انهم همج، اي لا يرون لروح العقل قيمه ذاتيه او جماليه، انما العقل هو دماغ يستعمل كوسيله لتحصيل شئ من اشباع الغرائز السفليه، و ليس الغرائز المروضه او الرغبات المتعاليه. اللهم الا امر واحد يبدو انه يستطيع ان يؤثر هذا التاثير في عوام الناس، و هو الشرع و العقائد الدينيه التي تنذر بعذاب اليم ابدي لا يتصور هوله بالنسبه لمن لا يروض هذه الغرائز و يتسامى بها ، بل يتعالى عليها حتى ينساها بالكليه او يكاد قدر الوسع. فلا يمكن ترويض الوحش الا بوحش اكبر منه. و هذا يجري بالنسبه لكافه البشر و لا يختص بامه دون امه او عرق دون عرق .و المشكله الازليه للناس هي ان الوحش الاكبر الذي عمل في البدء على ترويض الوحش الاصغر، يصبح بدوره هو وحشا يحتاج الى ترويض من وحش اكبر منه. فهل يمكن ان تنشأ قوه تملك ان تسعى فقط لضمان سير الامور الانسانيه الحضاريه بدون ان يستبد اعضائها فيصبحوا هم انفسهم عقبه امام الحضاره ؟ الى الان لا نعرف مثالا لهذا، و الامثله القليله الكاسده التي يطلقها البعض على توفر مثل هذه القوه في الزمن الغابر او الحاضر، حتى لو سلمنا بها، فان هلاكها العاجل و ارتداد اهلها الى الطغيان و للهوى الغرائزي هو دليل اخر على ان النمط السائد بين الناس هو في احسن الاحوال استعمال القوه لمقاومه القوى الهمجيه، ثم تحول هذه القوه ذاتها الى قوه همجيه تحتاج الى مقاومه. و لا ندري كيف نخرج كبني الانسان من هذه المعضله خروجا تاما.

الا ان المصيبه تبدأ عندما يكون الدين نفسه هو الذي يأذن بالقتل، و بالتالي يعد اصحابه بالنعيم، بل يخوفهم بالجحيم ان لم يمتثلوا. و بالرغم من ان هذه المواضيع تكاد تصبح من المواضيع المستهلكه بالنسبه لاهل الاطلاع بل و لمعظم غيرهم، فيحق لنا ان نتسائل: و لماذا نعيد ذكر هذه الامور التي يعرفها الكل ؟ الجواب من نواحي متعدده.

آولا، اريد ان اسجل وجهتي في هذه المساله المهمه.

ثانيا، اريد ان ابين ان اصل هذا جانب من هذا الارهاب الدولي و الشعبي و العصاباتي يجد تبريره في ما يسمى بتاريخ صدر الاسلام و خصوصا في قصه حرب ابوبكر للمرتدين، فهذه هي اول حادثه بعد وفاه النبي عليه السلام تؤسس لكل تفاصيل الاجرام الذي وقع بعدها.

ثالثا، اريد ان اجيب عن بعض التبريرات التي يسوقها العلماء و الجهله على السواء في بعض هذه الامور، فكم من مره استمعنا او قرانا او واجهنا مثل هذه المقولات و التبريرات و اردنا ان نسجلها و الاجابه عنها بالكتابه و البحث المبسوط بحسب الحاجه.

رابعا، اريد ان اجيب ايضا عن بعض الاتهامات و النظرات المتعاليه التي يقوم بها مفكري و اغبياء اهل الشرق و الغرب على العرب و هذا الدين المحمدي خصوصا، سواء كانوا من اتباع اليهوديه و اليسوعيه، او من مواطني الدول الامريكيه و الاروبيه. فان هذا الاستعلاء قد بلغ حده و نريد ان ننظر فيه و في قيمته.

فهذا الكتاب ليس فقط للاجابه عن شؤون البيت الداخليه (اي امه محمد عليه السلام) و انما لشؤون البيت الخارجيه ايضا. و لا مجال للاستغراق و الاطناب فليس عندنا الكثير لنقوله في هذا المجال، اللهم الا بعض الملاحظات و المقارنات و التذكير ببعض الوقائع و الحقائق.

هل يمكن للقتل ان يتوقف في البشر ؟ الظاهر انه لا يمكن على هذه الارض. هل هذا مبرر لمن يقتل ؟ بالطبع لا ، فان وجود الخنازير و الحمير في الارض لا يبرر تشبه الانسان بهما. هل حقيقه ان البشر يقيمون حربا- في المعدل المتوسط- كل سنه في الثلاثه الاف سنه السابقه، و يوجد تقريبا جريمه قتل كل بضعه دقائق، بل كل دقيقه، في الارض، هل هذه الحقيقه تبرر ان القتل عمل طبيعي ؟ نعم ان هذه الحقائق تدل دلاله واضحه على ان القتل ليس شئ غريب عن البشر، بل هو اقرب الى الغريزه و الفطره، و بالاضافه الى ذلك فانها تدعو الى الشك في اي بحث يتحدث عن القتل ك "سيئه" بالنسبه للبشر، فلولا ان فيهم الاستعداد الفطري لذلك فما بالهم يدمنون القتل، ثم انه في الشريحه العريضه التي تشمئز من القتل، الكثير من هؤلاء انما يرفض القتل اذا وقع عليه او اهله او اصحابه او اهل بلده و دينه، باختصار هم تقريبا كموسى الذي هو على استعداد ان يقتل من اجل شيعته. كل هذا يجعل عزيمتنا تفتر الى حد ماعن فائده مثل هذه الابحاث و الكتابات. لانه مع الاسف، الهمجي لا يقرا، و ان قرا لا يفهم، و ان فهم لا يعمل، و ان عمل فيرتد على عقبه القهقري بسبب عدم راحته النفسيه الغرائزيه حين يقمع هذه الغرائز الوحشيه و يحاول ان يتسامى عليها. فلمن نكتب اذن ؟ يبدو اننا نكتب لنتسلى، او لنفيض ما في قلوبنا و عقولنا فنرتاح قليلا من ثقل الكلام و الافكار و التصورات، و احيانا لنفرغ الغضب بوسيله سلميه متساميه كهذه، فخير للانسان ان يرمي على الانسان لعنه بدل ان يقذفه بصخره. فلنكتب و الله اعلم بالعواقب.

لننظر اولا في روايه بدايه الحرب التي سماها اربابها بحرب المرتدين و لننطلق من هنا.

.....

عن ابي هريره، قال : لما توفي رسول الله و كان ابوبكر و كفر من كفر من العرب، فقال عمر: كيف تقاتل الناس، و قد قال رسول الله (امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله و نفسه الا بحقه، و حسابه على الله) فقال : والله لاقاتلن من فرق بين الصلاه و الزكاه، فان الزكاه حق المال، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو الا ان قد شرح الله صدر ابي بكر، فعرفت انه الحق.

هذه هي الروايه في اساسها ، يوجد روايات اخرى بنفس المضمون، و انا انقل من كتاب الوافي بما في الصحيحين، من الكتاب العاشر، الروايه الاولى. و قد حذفت كل صيغ التصليه و الترضي حتى لا يتشتت الذهن اثناء تامل الروايه، فمن شاء فليصلي و ليترضى في سره. و يقول البعض ان هذه الروايه من الناحيه السنديه فيها كلام، الا اننا لن ننشغل بمثل هذه الابحاث الشكليه حيث ان الروايه بمضمونها كان و لا يزال مقبولا من عموم العلماء بالشأن و القاده و اتباعهم. فتعالوا ننظر.

.....

ليس في الروايه اي استدلال بكتاب الله تعالى او استلهام مباشر منه. فلا عمر يذكر ايات من كتاب الله تتحدث عن احكام القتال و متى يجب و متى لا يجب. و لا ابوبكر يرد عليه بايات من كتاب الله العزيز و تبين هذا الامر منه. بالرغم من الايات كثيره في هذا المجال. بل كل ما فيه استدلال بحديث ينسب الى النبي عليه السلام، و استدلال ابوبكر باستنباط او راي خاص منه، و استدلال عمر ب ذوق ابوبكر او "شرح صدره" فعرف انه الحق و هو استدلال براي الصحابي او السلطان ان شئت. و هذا في امر مهم جدا و هو سفك الدماء. فليس من العجب ان توالى هذا النوع من العمل في الامه بعد ذلك. و العجيب ان هذه الاستدلالات الثلاثه هي فعلا و على مر الزمان هي الاستدلالات الغالبه عند معظم علماء الامه و عوامها. و هذا من اوائل الخطوات التي اتخذت في سبيل طمس كتاب الله من الحضور في الوعي الفردي و الاجتماعي و السياسي للامه المحمديه. فالسؤال هو: هل الذين يمنعون من تاديه الزكاه او الصدقه لحاكم لم يختاروه او يشاركوا هم باختياره او لا يرون فيه اكتمال شروط الاخذ للصدقه في كتاب الله تعالى كقوله " خذ من اموالهم صدقه تطهرهم و تزكيهم بها و صل عليهم ان صلاتك سكن لهم " فمن لم تكن صلاته سكن لهم فليس عليهم ان يعطوه صدقاتهم (و هذا مما استدل به مانعوا الزكاه عن ابي بكر) ، هل هؤلاء "الصحابه" الذين يشهدون الشهادتين و يصلون و لم يعترضوا على اصل الزكاه و الصدقه و انما اعترضوا على اعطائها لفرد معين ، فهل هم من الكفار او المشركين ؟ ان قلنا " نعم هم من الكفار " فانه حتى هذا لا يحتم قتالهم الا ان اعتدوا بنص كتاب الله تعالى و لا اقل ان يعتبروا نوع من الكفار المسالمين. فالروايه لا تبين انهم كانوا سيحاربون ابي بكر و من معه. لو كان ابوبكر يريد ان يحاربهم من اجل كفرهم او من اجل انهم حاربوه او هو يتوقع محاربتهم له لقال : والله لاقاتلن من كفر بالله. او والله لاقاتلن من يقاتلني. او والله لاقاتلين من عزم على مقاتلتي. او ما شابه ذلك. و ليس في الروايه اي شئ من هذا القبيل كما هو واضح. بل الروايه تثبت ان هؤلاء هم ممن يقول لا اله الا الله ، بشهاده عمر ايضا ، و هم ممن يصلي ، و لم تبين انهم يجحدون اصل الزكاه.

و هنا امر اخر، و هو ان الروايه تطمس السبب الذي منع هؤلاء من اعطاء الصدقه لابي بكر. و هذا بدايه لسنه غير حسنه في الامه، و هي طمس دعوى الخصم او تشويهها تشويها قبيحا حتى يظهر الحق كله لنا. لو كان هؤلاء ممن رفض الدين كله بعد موت النبي عليه السلام، فانه حتى مع ذلك ما كان يحل قتالهم و سفك دمائهم – اللهم الا على مذهب الطغاه – بل كان ينبغي ان يرى ما هو سبب رفضهم للدين بعد وفاه النبي عليه السلام ثم ينظر في ذلك. و الروايه حتى لا تظهر ان ابوبكر ارسل لهم احدا ليحتج عليهم بوجوب اعطائه اموالهم، فهي لا تقول مثلا على لسان ابوبكر: اني يا عمر ارسلت اليهم رسلا ليذكروهم بواجب اعطائي اموالهم لاني القائم مقام النبي عليه السلام، و لكنهم رفضوا ، و نحن نحتاج الى هذه الاموال لاقامه هذه الدوله. لا يوجد هذا. بل يوجد سنه غير حسنه اخرى، و من اسوا السنن على الاطلاق التي لا تزال مستمره الى يومنا هذا. و هي سنه تلبيس اراده اهل التسلط

بلباس تنفذ شريعه الله و الغيره المحضه عليها. تامل الروايه مره اخرى، هل تجد ان ابوبكر ذكر السبب الفعلي الذي اراد ان يقاتلهم عليه ؟ اتباع ابوبكر الى يومنا و الذين يبررون مثل هذه السنن الغير حسنه، يعتذرون لابي بكر و عمر بما لم يعتذر به هو لنفسه. و هذا من الغرائب. يقولون اشياء مثل: انه اضطر ان يفعل ذلك حتى يقيم الدوله بهذه الاموال و الا فان الامه كانت ستهلك. و الغريب ان ابوبكر نفسه لم يقل هذا. فكانهم اعلم به من نفسه ! هم " ملكيين اكثر من الملك ". الروايه تبين انه انما تذرع ب " والله لاقاتلن من فرق بين الصلاه و الزكاه. فان الزكاه حق المال ". اين حفظ الدوله و اين كل هذه المزاعم. هو هنا يظهر بمظهر الغيره المحضه على الشريعه و الحقوق. نعم من وراء تذرعه هذا هو نفس ما يعتذر له اتباعه. و لكن الفرق كبير بين ان يبين هو حقيقه ما اراده و بين ما يخفيه وراء كلامه.

و لاحظ ايضا المغالطه الصريحه في كلام ابي بكر. هو يرد على منعهم "عنه" بادعاء انهم قد رفضوا الاصل. لا يوجد انهم رفضوا اصل الصدقه لمن هي حق له، لا يوجد انهم فرقوا بين الصلاه و الزكاه مطلقا ، وانما رفضوا "هذا المصداق" لمستحق الصدقه. و فرق كبير بين ان ترفض الاصل و ان ترفض مصداق بعينه. و هذا من سنن السوء كذلك. فان همج الامه لا زالوا يقاتلون الناس بسبب اختلافهم معهم في تعيين المصداق، ثم يزعمون ان الناس رفضوا الاصول. ابوبكر يرى نفسه كرسول الله في هذا المقام ، تامل قوله " والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم " فاذن هو كالرسول هنا. و من اين له انه كالرسول ؟ هذه دعواه هو و من شايعه في البدء. فقاتل الناس على اساس انهم رفضوا اعتباره قائم كالرسول و له نفس صلاحيات الرسول في هذه المساله. بالرغم من ان شروط اعطاء الصدقه لم تتوفر فيه كما نصت عليه الايه القرءانيه و هي الايه التي احتج بها خصومه. و ابوبكر لم يرد عليهم في دعواهم هذه. بل اعرض عنها بالكليه. و اكتفى بطلب المال. و هذا من سنن السوء ايضا، فان هذا هو بدايه "علمنه" الدوله ان شئت، فاهل السلطه لا يبالون ب "صلي عليهم" و لا ب "سكن لهم " و لا يحزنون. فقط يريدون الطاعه العمياء بلا اعتراض و لا منازغه في الامر، اعطونا اموالكم و حاربوا معنا عندما نريد ان نوسع الملك، و كفى. اخراس كامل لدعوى الخصم السياسي، و كتم صوت دعواه و الاكتفاء بالتبريرات الداخليه للمتسلطين. مع العلم ان اعتقادي الشخصي ان هذه الروايه هي ما اذاعوه لعامه الناس، و الا فان كلام اهل السلطه مع بعضهم البعض- خصوصا من يتعامل بهذا الاسلوب - لا يكون بتبادل النصوص الدينيه او الكلام عن الحقوق المثاليه، بل الاقرب الى الحق خصوصا ان كانت روايتهم المعلنه فيها كل هذا القبح، فالاقرب هو ان ابوبكر قال شيئا من قبيل : يا عمر نحتاج الى هذه الاموال حتى نقوم بهذا الامر و يجب ان ناخذها منهم مهما كلف الثمن. فقال عمر : نعم معك حق. و كفى. و اما نصوص نبويه و صلاه و حقوق و شرح صدر و حق، فلا يتاتي من كان على هذه الشاكله التي تظهرها هذه الروايه المعلنه. ان كان المعلن سيئا ، فماذا يكون الخفي اذن !

اراد بعض اهل الفكر ان يتخلصوا من مشكله هذه الروايه (امرت ان اقاتل الناس) ممن يتبنى الراي القائل بان الحرب انما هي للدفاع، و ليست بسبب الكفر. فاستدلوا بالايات القرانيه و اسسوا اسسهم كلها و ردوا على استدلالات خصومهم. و لكن بقيت لهم هذه الروايه كالشوكه في الحلق. و اذكر مثالا على هؤلاء و هو الشيخ الشهيد البوطي رحمه الله في كتابه الجهاد في الاسلام. فالشيخ بعد ان ذكر ان بعض علماء الحديث قد ضعفوا هذه الروايه و تكلموا فيها لم يكتفي بهذا. بل سلم بصحه الروايه او قبولها. و لكنه ارتكز على اساس كلمه "اقاتل". فقال ما معناه: امرت ان اقاتل لا تساوي امرت ان اقتل. اقاتل تعني وجود مقاتله من الطرفين، فالمعنى ان الطرف

الاخر بدأ بالقتال و نحن سنقاتله في المقابل. و اما اقتل فتعني البدء بالقتال. و الروايه لا تقول "امرت ان اقتل" و لكن تقول "امرت ان اقاتل". فكما ترى فان المرتكز هو التفسير اللغوي لكلمه "اقاتل". و العجيب ان الامام الشافعي، و هو من هو في اللغه و علومها كما يقر القوم ، كان يعلم بهذا الفرق و قال : ليس القتال من القتل بسبيل. او شئ من هذا القبيل. بمعنى انه فرق بين معنى "اقاتل" و بين معنى "اقتل". و قال ما معناه: قد يحل قتال الشخص و لا يحل قتله. و لكن - و هنا موطن العجب عند الشيخ البوطي- الامام الشافعي هو ممن استدل بهذه الروايه من اجل تثبيت مذهبه في ان اصل القتال هو بسبب الكفر و ليس الدفاع ! و محل العجب هو كان الشيخ يقول : ان الشافعي كان يدرك الفرق، فكيف اتخذ هذا المذهب اذن . هذا هو معتمد من يقبل هذه الروايه و لكنه يعتقد بان القتال في هذا الاسلام لا يكون الا بسبب الدفاع و ليس بسبب كفر الطرف المقابل، فضلا عن ان يكون محض اعتداء لتوسعه الملك (و هو ما وقع تاريخيا مهما تكلف المتكلفون- و هذا لا يعني انه لم يكن لمثل هذا منطقه الخاص كما قد نذكره في محله ان شاء الله تعالى).

و الان، ما هو جوابنا عن هذا التفريق بين اقتل و اقاتل ؟ و ما هو تفسيرنا لكون الامام الشافعي قد اتخذ مذهبا يضاد مضمون الروايه كما فهمها من اتخذ الطرف المقابل ؟

اما عن التفريق بين اقتل و اقاتل. فيحتاج الى نظر. لان "اقاتل" لا تدل بالضروره على معنى الدفاع. و الاحتجاج بكون المقاتله من المفاعله اي وجود طرفين، فهو صحيح و ظاهر، و لكن هذا لا يدل على كون الطرف هذا او ذاك هو الذي بدأ القتال. كل ما تدل عليه انه سيوجد قتال من طرفين، و هذا بديهي، و هل تتوقع ان يقف الذين سنقاتلهم كالغنم لينتظروا ذبحهم ! طبيعي انهم سيقاتلون. و هذا سينتج "مقاتله". فالبدء بالقتال ينتج مقاتله، كما ان الدفاع عن النفس ينتج مقاتله. و لهذا يبدو ان الامام الشافعي لم يجزم برأي دون اخر من الحيثيه اللغويه. و لكن ترجيحه جاء من نفس الروايه، اي بقرائن من نفس الروايه. ما هي هذه القرائن؟ اهمها نفس الروايه و ثانيها كيفيه استدلال عمر بها. ففي نفس الروايه " امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا" و هذه فيها اشاره الى البدء بالقتال. فكاننا نقول : سنعذب المتهم حتى يعترف. فالغايه التي يراد تحقيقها تتم بواسطه هذا العمل، و بالتالي يكون البدء بالعمل حتى تتحقق الغايه. و اما استدلال عمر، فهو لان ابوبكر اراد ان يبدأ الناس بالقتال، اذ هؤلاء لم يبدأوا او يخرجوا لقتال ابوبكر و من معه، و من هنا استغرب عمر و قال " كيف تقاتل الناس؟ " و كما ذكرنا من قبل و نعيد: لو كان الناس قد ارادوا او عزموا على مقاتله حزب ابوبكر، لاكتفى عمر او ابوبكر بالاحاله الى رد العدوان لتبرير المقاتله ، و هذا بديهي بدون استدلال، و لو كان ثمه استدلال فان صاحب مقوله "حسبنا كتاب الله" كان ينبغي عليه ان يستدل بقوله تعالى "و قاتلوا الذين يقاتلونكم " او غيرها من الايات التي تجيز رد العدوان بمثله في مثل هذه المواطن. فواضح ان ابوبكر كان سيبدأهم بالقتال. فعندما استدل عمر بالروايه " امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله " فان معنى كلامه و استدلاله يصبح : كيف تبدأ بقتالهم و انما امر النبي عليه السلام ان يبدأ بقتال الناس حتى يوحدوا الله ، و هؤلاء من الموحدين و ان لم يعطوك اموالهم فكيف تقاتلهم اذن ؟ فجاوبه ابوبكر بما جاوبه. و الروايه صريحه في نفي عصمه المال و النفس قبل التوحيد. مع اننا سنشير الى معنى هذا التوحيد بعد قليل ان شاء الله تعالى. " فمن قالها فقد عصم مني ماله و نفسه ". اي عباره اوضح من هذه في نفي اصل عصمه المال و النفس لمن لم يقل لا اله الا الله ؟ " فمن قالها " شرط و سبب. "فقد عصم" نتيجه. لا سبب لا نتيجه. فكل هؤلاء الذين يبيحون لانفسهم اخذ اموال الناس و سفك دمائهم معهم الحق من حيث اصل استدلالهم بهذه الروايه. و لكن هل لهم الحق كله ؟ بالطبع لا. اولا لان هذه الروايه من اقبح ما كذب على نبي القرءان عليه السلام.

و ثانيا، حتى على فرض صحه الروايه، فان المصيبه في هؤلاء الهمج - كمصيبه اول من اسس هذه السنه السيئه في الامه - هي انهم يماهون بين انفسهم و بين رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. فلنفترض ان النبي فعلا قال هذا. "امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله و نفسه الا بحقه ". النبي هو المأمور من قبل الله تعالى مالك الملك. و لاحظ كلمه "مني" في عباره "فقد عصم مني". فالمعصوم منه هو النبي نفسه. الروايه لم تقل : امرنا ان نقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله، فان قالوا فقد عصموا منا اموالهم و انفسهم. الروايه لم تقل: امرت انا و كل من يقوم مقامي من بعدي ان نقاتل الناس. الضمير مفرد ، و المعنى متفرد للنبي وحده. هذا كمثل قول القرءان " فصل عليهم ان صلاتك سكن لهم " المعنى و الشرط هنا لا يتحقق الا للنبي نفسه. و ليس النبي كاحد من الناس حتى يقوم احد مقامه. و اما ما يزعمه الملاحده من ان هذا منصب سياسي و كل من قام به فهو كالنبي او قائم مقام النبي، فانما هم من المتكبرين و اتباع سنه السوء، و الهمج. فحتى اذا سلمنا لهم بالروايه، فانه ليس فيها مشاركه غير النبي له في هذا المقام. فلعل الله تعالى اذن له بذلك لعله ما، و هذا لا يعني استمرار هذه العله ذاتها في غيره. و ان كنا لا نريد ان نبرر مثل هذا، و لكن فقط لاعطاء فكره عن معنى امكانيه صحه مثل هذه الروايه او شئ من التوجيه لها، او لنقل ترقيعها تامل فيما يلي.

الايه القرءانيه تقول " لله خمسه و للرسول و لاولي القربى، و اليتامى و المساكين و ابن السبيل". عندما ذكرت احدى مسائل تقسيم بعض الاموال. لاحظ ان في الايه ثلاث مرات باللام، و ثلاث مرات بلا لام. اي لام الملكيه. "لله" و "للرسول" و "لاولي القربى". و لكن في الفئات الثلاث الاخر لم توجد لام الملكيه هذه. بل قال " اليتامى و المساكين و ابن السبيل ". و هذا يعني ان هذه اللام لها دلاله خاصه. فهي لا تعني مجرد النسبه او الاعطاء، كان تقول: اعطي كذا لفلان. و لكنها تعني امر اخر. و لو كان لمجرد ذكر العطاء، لقال : و لليتامى و للمساكين و لابن السبيل ". او لقال "لله" ثم ذكر الباقي كلهم بلا لام. فهذه قرينه، و القرينه الاخرى هي انه وضع اللام قبل اسم الله تعالى. و معلوم ان الله تعالى يملك كل شئ. و بالتالي لا يمكن لاحد ان يعطيه ما ليس ملكه. و من هنا نفهم معنى يقول : الملك لله ، الله اعطاه للرسول و لاولي القربي. اي ان اللام هذه لام الملكيه. و هذا يثبت ملكيه رسول الله- بالتبعيه- لكل مملكه الله تعالى الارضيه لا اقل. و لذلك فاعطاء الرسول من خمس الغنائم هو ارجاع للمال الى صاحبه الاصلي الحق، و ليس اعطاء لغير مستحق بالذات كالمساكين و ابن السبيل. هذا تفسير معين للايه. و يشهد لهذا ايات اخر من قبيل " تؤتي الملك من تشاء ".

و يشهد لهذا من المرويات ما ارسله مسيلمه الى النبي- و هي روايه فيها دلالات كثيره. بعث مسيلمه الى النبي كما يروى : " من مسيلمه رسول الله الى محمد رسول الله. الارض نصفها لك و نصفها لي ". فرد الرسول عليه " من محمد رسول الله الى مسيلمه الكذاب. ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبه للمتقين ". لا نريد ان نشير الى توسع مسيلمه في اثبات الرساله لمحمد، و حصر محمد للامر في نفسه، مما يشير الى اصل الحصريه في كل ما له شأن من هذا القبيل. و لكن تامل في عباره مسيلمه و كيف انه رتب على رسالته استحقاقه للملك. و كيف فعل محمد نفس الشئ فرتب معنى رسالته على استحقاقه الملك ، و حيث ان مسيلمه اعترف برساله محمد، و هذا يعني وجود رسولين لله، فالمترتب اذن ان "الارض نصفها لك و نصفها لي ". و لكن بما ان محمد كان يرى نفسه الرسول الوحيد لله في الارض، فالنتيجه عنده كانت " الارض لله يورثها من يشاء من عباده " و المعنى المتضمن ان محمد هو الذي اورثه الله بمشيئته هذه الارض كلها. و هذا ما لا يفقهه كثير من عوام الناس الذين يظنون ان الرساله و النبوه بهذه المعاني هي مجرد امور عرفانيه روحانيه. ان السياسي ثمره الروحاني عند امثال هؤلاء. بل الروحاني

ذريعه الى السياسي. هذا ان كان يوجد ما يمكن تسميته روحاني اصلا. و انما المقصود ان عقائدهم في الله تعالى انما يستعملونها كذرائع لمطالب سفليه. و اما ان الله تعالى قد اذن او لم ياذن بذلك فهذا امر اخر.

فالحاصل من هذا هو ان النبي قد ملكه الله الارض و ما فيها و عليها. و بالتالي له ان يتصرف فيها كما يشاء او "يشاء الله". و بذلك نفهم ما معنى " حتى يقولوا لا اله الا الله" فهذه تعني : انا الملك الوحيد للارض. توحيد الله يعني في النتيجه صك ملكيه الرسول للارض و ما عليها. و من شاء ان يرتفع اكثر في الاستدلال يستطيع ان ياتي بالحقيقه المحمديه التي هي واسطه الفيض في الوجود، و التي تعني ملكيته لكل ما صدر منه، و بالتالي للبلاد و العباد ضمنا. فالولايه التكوينيه مقدمه للولايه السياسيه. و هذا ليس ببدع عند الفرق السنيه و لا الشيعيه على العموم. و لا نعلم مخالفا لهذا النهج الذي يتوسل بالله للدنيا، الا من يسمون بالخوارج. و مع الاسف فهؤلاء من اسفك الناس للدماء و لكن من زاويه اخرى. و حتى في القرءآن، هذا ليس ببدع كبير من القول. فان يوسف قد اتاه الله الملك ، اليس كذلك ؟ السؤال: كيف اتاه الله الملك ؟ عن طريق قبول الملك الحالي له و جعله على خزائن الارض . و السؤال الان : كيف اصبح هذا الملك ملكا ؟ الجواب: بالسفك و القمع كبقيه من هذا شأنهم. و هل يصبح الملك ملكا بالتبسم في وجه الناس و الدعوه الى المعيشه السعيده ! انما يملك الملوك بحد السيوف. هذا في الاصل. ثم ياتي من له سيف اقوى من سيفهم فيعلو عليهم. و كل من له درايه بالشؤون السياسيه و المعنويه للبشر، يدرك انه لا يستطيع احد ان يملك، او يملك طويلا الا ان وجد لنفسه اساس متعالى يعطيه صلاحيه الملك او "الاستحقاق". و من هنا جاءت فكره الاستحقاق الالهي. و بما ان "الارض لله" ، فانه من الحق ان الله "يؤتي الملك من يشاء"، فما ان ياتي احد ممن يدعي انه رسول الله و خليفته الخاص، فان النتيجه تكون هي نفس النتيجه التي فهمها فرعون من موسى عندما قال له " و تكون لكما الكبرياء في الارض " اي انك بدعواك هذه تريد ان تخرجنا من ارضنا و تحكمها انت و اخوك. و لهذا كان الرسل و الانبياء يقتلون و يذبحون من قبل ساده اقوامهم. ليس لانهم يعلمون الناس افكار فلسفيه و عرفانيه. و ليس لانهم يعلمون الناس ان لا يسرقوا و لا يقتلوا. و ليس لانهم يعلمون الناس ان يديروا خدهم الايسر لمن يصفعهم على خدهم الايمن. و ليس لانهم يعلمون الناس التامل و التبسم في وجه الناس و انفاق الاموال في سبل الخير. اي ضلال يقع فيه هؤلاء الذين يوهمون انفسهم ان لب الرسالات و دعاوى النبوه و المهدويه و المسيحانيه هو فعل الخير و معرفه الله و الحقائق. ما اضل نظرهم ويا لسذاجه عقولهم. ان العرفاء بالله حقا كابن عربي و جلال الدين الرومي و محمد النفري و السكندري ، هؤلاء هم اهل الله فعلا الذين و ان كانوا يستعملون لسان و رموز من حولهم، الا انهم على التحقيق ليس لهم دخل بهم. و هذا موضوع اخر لعلنا نعالجه في موضع اخر. على ايه حال، منذ متى كنا نرى احدا يعادي من يدعوا الى فعل الخير و انفاق الاموال على الفقراء و الاخلاق الحسنه . لا يوجد الا حين يخاف اهل التسلط الحاليين على ملكهم و سلطانهم، كخشيتهم من كون هذا الوديع اللطيف انما يتوسل بمثل هذا ليجمع الجموع و يكسب الولاء. و لكن دعوى الرساله و النبوه و الامامه و المهدويه و المسيحانيه انما هو في المحصله دعوى سياسيه. و هذا لا يعني بالضروره ان مدعي الرساله و المسيحانيه كذاب، كما قلنا هذا امر اخر. نحن نتحدث عن لب الدعوى من الحيثيه العمليه الارضيه، و نتيجتها المنطقيه. الرسل يفهمون هذا، الائمه يفهمون هذا، اصحاب السلطه يفهمون هذا. الوحيد الذي لا يفهم هذا هم السذج من اتباع الرسل و الائمه و عبيد السلطه الحاليه.

ابوبكر في هذه الروايه يبين فهمه لهذا المعنى، و ان "اركان الاسلام" ليست الا وسائل لتدعيم السلطه. فالزكاه ليست "امر بين العبد و ربه". اللهم الا في ضميره الخاص ان كان ممن ينخدع. الزكاه امر بين العبد و حكومته. و قل مثل ذلك بدرجه او باخرى في بقيه العقائد و الاركان و ما شئت. فاركان الاسلام هي في الواقع اركان السلطه التي

تدعي القيام بالاسلام. و من اكبر الادله على ذلك انه ما راينا يوما احدا يقوم باسلام لا ترتضيه السلطه الا و قد حاربته السلطه. و اول الامثله على ذلك هو هذه الروايه موضوع دراستنا. ابوبكر لم يبالي بكونهم يقولون لا اله الا الله. ابوبكر لم يبالي بكونهم يقيمون الصلاه. ابوبكر لم يبالي بكونهم اتبعوا نص القرءان في شروط من يستحق اخذ الصدقه، او لا اقل انهم "اجتهدوا" في ذلك. كل هذا لا عبره به. فطالما ان اسلامك لله لا يؤيد الحكومه، فانت لست بمسلم لله، لان الله هو وسيله الحكومه لجعلك عبدا لها. تعالى الله عما يشركون. و ان افترضنا انك مسلم تنزلا، فسنقاتلك ثم الله يجازيك بحسب نيتك في الاخره. فالدنيا لنا، و الاخره لله. و هذا هو المعنى الحقيقي لمقولتهم الشهيره: لنا الظاهر و الله يتولى السرائر.

فلا عصمه لاحد الا بعد التوحيد ؟ ما هو التوحيد : هو ان تخضع فقط للسلطه التي تريد منك التوحيد. فالتوحيد هو التوحيد الحكومي السياسي. و لا علاقه له بالتوحيد العرفاني او الفلسفي او ما شابه.

و من هنا تفهم مثلا قصه الوهابيه. الوهابيه فعلا هم اول من رفع شعار التوحيد الحق في هذا العصر. توحيد بلا شرك . في زمن شيخ اسلام الوهابيه ابن عبد الوهاب-رحمه الله- كانت المدن في منطقه نجد خصوصا متفرقه متحاربه في كثير من الاحيان. على كل مدينه حاكم مستقل. فاراد ابن عبد الوهاب ان ينشر "التوحيد". فاعلن كفر و شرك كل من حوله، بل كل الامم و الدول في الارض. لا فرق عنده على التحقيق و اعتذار بعض عبيده له في هذا الزمن انما هو اتقاءا لغضب الامه. فان لم تجتمع كل هذه الامم و الدول تحت ظل دوله و حكم واحد، هو حكمه هو و من معه، فانهم كلهم من المشركين و الكفار. و من هنا انطلقوا في نشر التوحيد. طبعا كالعاده و على القاعده: يتوسل للتوحيد السياسي بدعوي التوحيد الالهي. و من اسخف ما توسل به ابن عبد الوهاب و من بعده هو ان عباده الاضرحه و التوسل بالاولياء و الانبياء هو الشرك الذي يريدوا ان يحاربوه ! هذا مضحك فعلا. و المضحك اكثر هو تصديق اتباعه في ذلك الزمان و كثير منهم في هذا الزمان بان هذا هو جوهر دعوته. اي تخليص التوحيد من الشرك- بالمعنى الالهي. كلما كان حجاب دعوى التوحيد الالهي اشد رقه و شفافيه، كانت الدعوى السياسيه اشد هشاشه و عرضه للتلف. و من ارق الحجب التي ظهرت في تاريخ هذه الامور هي دعوى الوهابيه. في نهايه المطاف انما اسس لها شخص يسكن في الصحراء و الغالبيه العظمى من اتباعه لعلهم لا يحسنون قراءه صفحه واحده من كتب العرفان و الفلسفه العاليه. فضلا عن التبحر فيها. فبضعه ايات قرانيه و قبضه من الروايات النبويه كفيله ب "اقناع" هؤلاء و امثالهم. طبعا مع تطميعهم بالاموال و الغنائم من "الغزوات" التي كانوا يقومون بها. هم فعلا يسمونها "غزوات". و اي غرابه في هذا ؟ هم نتيجه منطقيه لمثل هذا الفكر و هذه الروح.

يلوم الناس الوهابيه على فعلهم و افعالهم. و يلوم الناس الجماعات الارهابيه في هذا العصر على استباحتهم للاموال و الدماء. و اصل كل هذا موجود في الروايه موضوع الدراسه. فحزب ابوبكر و عمر اسس لحلول اي فرد يجد حوله عصابه تدعمه في محل رسول الله و اعطاء نفسه صلاحيات الرسول من قبيل "امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا". و هم لا يرضون منهم الا القول بتوحيد الحكم السياسي و الاجتماعي بهم. فلا ننسي آن من السنن التي اقامتها هذه الروايه عن ابي بكر و عمر هي سنه : راي صاحب السلطه فاصل في مسائل الخلاف. "صاحب السلطه" هو كل من وجد له عصابه تدعمه و حزب يؤيده. و لذلك ابوبكر لم يرد على حجه عمر برد كاف، حتى عمر لم يقتنع بحجه ابوبكر فورا. و لذلك قال " فوالله ما هو الا ان قد شرح الله صدر ابي بكر ، فعرفت انه الحق ". فهو لم يقتنع بكلام ابوبكر. و لكنه اقتنع باقتناع ابوبكر. و هذا فرق عظيم. فلو كان كلام ابوبكر مقنعا لقال عمر : فوالله بعد ان قال ما قال عرفت انه الحق. او شئ من هذا القبيل. فان لم يكن هذا استدلالا بالذوق الشخصي للسلطان فما ادري ما هو اذن. نعم انسب ما تشاء من المقامات المعنويه لصاحبك، و لكن ان تقاتل الناس بناءا على ذلك و معك كتاب

الله الذي فيه اكثر من سته الاف ايه، و لا تحسن ان تستدل بشئ منها مع تكاثر الايات فيه بهذا الخصوص، و لا تحسن ان تصرخ "حسبنا كتاب الله" الا عندما يامرك النبي بامر قبل وفاته، فهذا امر غريب فعلا.

فلا عصمه لمال او نفس من لا يسلم مقاده للعصابه التي تريد السلطه. و هذه العصابه ارادت ان تجعل نفسها في نفس مقام الرسول. فاستحلوا لانفسهم ما استحله الرسول لنفسه. فهم في الواقع لم يؤمنوا بختم النبوه و الرساله، من الناحيه الفعليه هم و لا امثالهم من الناس اليوم قد ءامنوا بذلك. فاي ختميه و انت تجعل نفسك كالرسول في هتك العصمه باسم الله، و في جعل ارائك الشخصيه و تفسيراتك لها نفاذ على ارواح عباد الله. ان فرعون لم يتفرعن الا باسم نفسه، و هؤلاء يتفرعنون باسم الله، فاي الفريقين احق بالامن ان كنتم تعلمون ! و انا لله و انا اليه راجعون. و سيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون.